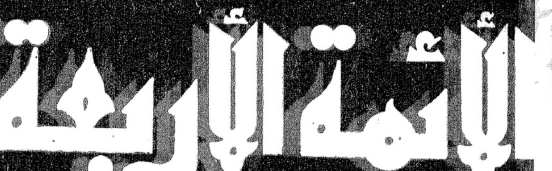
أحمد الشرباصي



الأئمة الأربعة

أبو حنيفة • مالك بن أنس
الشافعي • أحمد بن حنبل

تأليف
أحمد الشرباصي

دار الهلال

بسم الله الرحمن الرحيم

أحمد الله تبارك وتعالى ، وأصلى وأسلم على أنبيائه ورسله وعلى خاتمهم سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه ، وأتباعه ، ومن دعا بدعوته باحسان الى يوم الدين . وأستفتح بالذى هو خير : « ربنا عليك توكلنا ، واليك أنبنا ، واليك المصير »

قبس من كتاب الله

« وما كان المؤمنون لينفروا كافة ، فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ، ليتفقهوا فى الدين ، ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم ، لعلهم يحذرون »

« سورة التوبة »

وشعاع من هدى النبوة

« من يرد الله به خيرا يفقّهه فى الدين »

« حديث شريف »

تقديم

الأئمة الأربعة هم أئمة الفقهاء الأعلام ، وهم أصحاب المذاهب الفقهية الأربعة التى شرقت وغربت ، واشتهرت بين الناس فى الماضى والحاضر ، وهم : أبو حنيــفة النعمان ، ومالك بن أنس ، ومحمــد بن ادريس الشافعى ، واحمد بن محمد بن حنبل ، رضوان الله عليهم اجمعين

وانما بلغ هؤلاء الأئمة ما بلغوا من منزلة ومكانة بما بذلوه من جهود عظيمة فى خدمة الشريعة الغراء والفقه الاسلامى ، وبما خلفــوه هم وأمثال لهم من تراث فقهى ضخم سيظل مفخرة كبرى للاســلام والمسلمين ، واذا كان الأئمة الأربعة قد تألقوا فى العصر الذهبى لنمو الفقه وازدهاره ، فقد تقدمتهم جهود مختلفة بذلها على الطريق أعلام تكاثرت أسماؤهم ، وتوالت خطواتهم ، منذ بزغت شمس الاسلام الى ان تسلم هؤلاء الأئمة الأربعة من سابقيهم مواريث التشريع والاستنباط والفقه ، فقاموا على صيانتها وتنميتها ، ومضاعفة ثمراتها ، وبث خيراتها بين الناس ..

ولعل ادراك هــذا على وجهه يقتضينا القاء نظرة على تاريخ التشريع وتطور الفقه ، فقد أقبــل الاســلام ومنبع تشريعه وأســاس أحكامه ومصـــدر تعاليمه هو القرآن الكريم : كتاب الله عز وجل ، الذى لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميــد . والقرآن كتاب عقيدة وشريعة ، فكما تحدث عن المعتقدات والعبادات ، تحدث عن النظم والأحكام الدنيــوية ، فجاءت فيه آيات كثيرة عن أحكام الأسرة ، وعن البيوع والمعاملات ، وعن الجنايات والعقوبات ، وعن العلاقات الفردية والجماعية والدولية ..

ثم كان الى جوار القرآن المجيد حديث الرسول عليه الصلاة والسلام ، الذى بيَّن وفسَّر ، وخصص وقيَّد ، وشرح وطبق .. وفى كل باب من أبواب الفقه الاسلامى نجد مجموعة من الأحاديث التى تتكفل بهذه المهمة ، مصداقا لقول الله سبحانه وتعالى لرسوله : « وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم ، ولعلهم يتفكرون » . وقد بين الرسول بالقول والفعل والتقرير ، وكلما تطلب المسلمون حكما فى أمر فزعوا الى الرسول يستنبئونه ويستهدونه ، فيجيبهم بوحى الله تعالى وتوجيهه : « وما ينطق عن الهوى ، ان هو الا وحى يوحى »

وعلم الرسول صحابته بما علم ، وكان لهم من حسن التلقى ، ودقة الفهم ، وصدق الاتباع ، واخلاص الاهتداء ، ما جعل أقوالهم موضع القبول والتقدير ممن جاء على آثارهم ، ورضى الرسول لصحابته ان يجتهدوا اذا لم يجدوا نصا أو حكما سابقا ، بحيث لايقصرون فى الخضوع لكتاب الله ، والرجوع الى سنة رسول الله ، والتقيد بمبادىء الدين وقواعده ..

وهذا رسول الله صلوات الله وسلامه عليه يبعث بمعاذ بن جبل الى اليمن داعيا وهاديا وقاضيا ، ويسأله : « كيف تصنع اذا عرض لك قضاء ؟ » . ويجيب معاذ : « اقضى بما فى كتاب الله » . قال الرسول : « فان لم يكن فى كتاب الله ؟ » . فأجاب : « فبسنة رسول الله » . قال : « فان لم يكن فى سنة رسول الله ؟ » . فأجاب : « اجتهد رأيى ولا آلو » أى لا أقصر ..

فضرب النبى صلى الله عليه وسلم صدر معاذ بيده كالمعجب به ، وقال : « الحمد لله الذى وفّق رسول رسول الله لما يرضاه رسول الله ! »

ولم يقم الفقه أو استنباط الأحكام فى عهد الرسول على افتراض الحوادث أو تخيلها ، بل قام على الواقع ، اذ يعرض الأمر من الأمور ، فيأتى الحكم بنص القرآن أو هدى الرسول ..

وكان من الطبيعى أن يتسع نطاق الفقه بعد عهد الرسول ، لأن الفقه

كالكائن الحى الذى ينمو مع الأيام ، اذ هو مرتبط بالحياة والأحيــاء ، وبالاجتماع والمجتمع ، وكلما زادت الحياة اتساعا زاد الفقه انفساحا .
وقد اتسعت حياة المسلمين ، وتراحت أبعاد مجتمعهم بانتشار الاســلام ، وتوالى الفتوح ، ودخول الناس فى دين الله أفواجا ، وجدت حوادث ، ووقعت وقائع ، وقامت أوضاع ، والنصوص الدينية الموروثة فى القرآن والسنة متناهية ، أى واقفة عند حد ، ولكن الوقائع والحوادث موصولة متجددة غير متناهية ، فلا بد من الاستنباط والاجتهاد ..

وفى عهد الخلفاء الراشــدين بدت ملامح للاجتهاد ، وكان البارز فى ذلك هو الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وعلى يديه خطا الفقه الاسلامى خطوات الى الأمام ..

***

وتفرق كثير من الصحابة فى الأقطار والأمصار ، وبعضهم قد أوتى بصرا بالتفسير ، وقدرة على الاستنباط من القرآن والحديث ، فجعل كل واحد من هؤلاء يستنبط ما يستطيع ، ويبث ما يعرف ، فاستمرت خطوات الفقه الى الأمام ..

كان فى « المدينة » عمر ، وعلى ، وعبد الله بن عمر ، وزيد بن ثابت ، وأبى بن كعب ، وأبو موسى الأشعرى ، وفى «مكة» عبد الله بن عباس ، وفى « الكوفة » عبد الله بن عتبة بن مسعود ، وفى « مصر » عبد الله ابن عمرو بن العاص . ولا شك ان هؤلاء الذين تفرقوا تفرق النجوم فى الآفاق قد لاحظوا فى استنباطهم وجهودهم الفقهية ظروف المــكان والزمان والناس ..

وكان لهؤلاء الصــحابة الفقهاء تلاميــذ تلقوا عنهم ، وزادوا فيما تلقوا ، وهؤلاء التلاميذ عرفناهم باسم « التابعين » ، وسموا « تابعين » لأنهم تلوا الصحابة ، واتبعوا هدى الرسول وسنن أصحابه ، وساروا فى الطريق الذى سلكه أسلافهم ، وان كنا نلاحظ هنا ان بعض التابعين تميز بالاقتصار على الحديث والنقل ، والبعض الآخر تميز برعاية ذلك

مع جهد يبذله عن طريق العقل والرأى ..

ولا شك ان « التابعين » الذين تفرقوا فى الأمصار ، وازدادت أمامهم الدولة اتساعا ، قد لاقوا أوضاعا وأحداثا وأمورا لم تعرض للصحابة من قبل ، وكان عليهم أن يبحثوها ويفتوا فيها ، وبذلك ازداد نطـاق الفقه اتساعا ..

وينبغى ان نلاحظ ان فقـه الصحابة والتابعين لم يجمد على النص حرفيا ، بل تلمس فى كثير من الأحيان معرفة الأسباب والعلل للأحكام ، ليراعى هذه الأسباب والعلل عند الافتاء ، كما لاحظنا ان أقوال التابعين فى ميدان الفقه اختلفت بسبب التفرق فى الأقطـار ، والاختـلاف بين أوضاع الأمصار ، والتفاوت فى الاطلاع على الأحاديث ..

وكان من وراء ذلك أن صـار لكل فقيـه من التابعين جمـلة آراء مستقلة نستطيع أن نسميها مذهبا ، واشتهر من هؤلاء سعيد بن المسيب وعبد الله بن عمر فى « المدينة » ، ويحيى بن سعيد ، وربيعة بن عبد الرحمن ، وعطاء بن أبى رباح فى « مكة » ، وابراهيم النخعى ، والشعبى فى « الكوفة » ، والحسن البصرى فى « البصرة » ، وطاووس بن كيسان فى « اليمن » ، ومكحول فى « الشام » ... الخ ..

***

وفى عام ١٠٠ للهجرة رأينا خامس الراشدين عمر بن عبد العزيز يأمر بتفريق العلماء والفقهاء فى الأقطار ، ومن بينهم عشرة أرسلهم الى بلاد افريقية ، وهم : أبو عبد الرحمن الحبلى ، وسعد التجيبى ، واسماعيل ابن عبيد ، وعبد الرحمن بن رافع ، وموهب المعافرى ، وحيان بن أبى جبلة ، وبكر بن سوادة ، وجعثل بن عاهان ، وطلق بن جابان ، واسماعيل ابن عبيد الله ، وقد تحدث عنهم بتوسع أبو بكر المالكى فى كتابه الكبير « رياض النفوس » ..

وانطوت دولة بنى أمية ، وقامت دولة بنى العباس ، وظهر الصراع بين العلويين والعباسيين ، وبين الشيعة والخوارج . وحدث التقاء بين

التفكير العربي والتفكير اليوناني ، بسبب الترجمة ونقل العلوم ، ودونت السنة النبوية وأقوال المفتين ، وازدهر الفقه فى الأقطار ، وكثر المشتغلون به ، وأصبح الفقهاء طبقات ، كل طبقة تلي سابقتها ، وتستمد منهـا ، وتزيد عليها ، وقد عنى أبو اسحاق الشيرازى بتفصيل الحديث عن ذلك فى كتابه « طبقات الفقهاء » ..

وفى هذا العهد تألق الأئمة الأربعة ، فكانوا كالبدور تحيط بهم هالات من النجوم والكواكب ! ..

وظهرت ــ كما سنرى ــ مدرســة الرأى والعقل ، بجوار مدرســة الحديث والنقل ، وازدادت كل منهما وضوحا وتميزا ، وكان من الطبيعى أن تنمو مدرسة الحديث فى الحجاز عامة ــ وفى المدينة خاصة ــ لأن الحجاز مهد السنة ، وموطن الصحابة الذين تلقوها وحملوها ، كما كان من الطبيعى أن تزدهر مدرسة الرأى والعقل فى العراق ، لأن العراق بلد جديد فى الاسلام بالنسبة الى الحجاز ، وهو بعيـد عن موطن السنة ، وله تراث قانونى وحضارى ، فأهله محتاجون الى ما يقنعهم ، ولا بد فى اقناعهم من الدليل والبرهان ، ومن هنا انفسح المجال أمام العقل والتفكير

***

واذا كانت مصادر الفقه الاسلامى قد بدأت فى عهد الرسول صلوات الله وسلامه عليه بالمصــدرين الأساسيين وهما : القرآن والسنة ، فاننا نرى هذه المصادر تزيد وتتكاثر بمر الزمن واتساع الفقه ، ومن الفقهاء من يتشدد أو يتردد فى قبولها ، ومنهم من يرحب بهـا حتى تصير لديه عشرة مصادر ، فيكون من وراء القرآن الكريم والحديث أقوال الصحابة وهى معروفة ، و « الاجماع » ويراد به اجتماع الناس على أمر ليس فيه حكم للقرآن ولا للسنة ، ويعرفه الفقهاء بأنه اتفاق جميع المجتهدين من الأمة الاسلامية فى عصر على حكم شرعى [1]

وكان هناك أيضا « القياس » وبيان أمره أن أحكام الشريعة معللة

(١) كان الاجماع معروفا للصحابة . يقول عمر فى عهده لشريح القاضى : « فان أتاك ما ليس فى كتاب الله ، ولم يسن فيه رسول الله فاقض بما أجمع عليه الناس »

في الغالب بعلل يمكن معرفتها ، فمتى وجدت علة حكم منصوص عليه أمكن نقل هذا الحكم الى أمر لا نص فيه متى وجدت فيه العلة نفسها ، وقد يقال له : التسوية أو الالحاق ، وبعض الأئمة يجعل القياس والاجتهاد والرأى شيئا واحدا (١)

وانما يجوز القياس ــ بطبيعة الحال ــ للعالم بكتاب الله تعالى ، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وأقوال السلف ، واجماع المسلمين ، ولسان العرب ، مع بذل غاية الجهد فى البحث والاستنباط ..

والتحقيق ان للرأى المستقيم نصيبه فى اجتهاد الفقهاء منذ صدر الاسلام ، واذا كانت هناك نصوص تذم القول بالرأى ، فالمراد بالرأى فيها هو الرأى التابع للأهواء والأغراض ، الذى لا يستند الى أصل من الدين !

وكان هناك « الاستحسان » فى مجال الفقه ، والاستحسان يراد به درء المفسدة وجلب المصلحة فى حدود قواعد الدين العامة ، وهو طلب السهولة فى الأحكام فيما يبتلى به الخاص والعام ، وعرفه بعض العلماء بقوله : « هو العدول فى مسألة عن مثل ما حكم به فى نظائرها لوجه أقوى » . وعرفه آخر بأنه العدول عن حكم اقتضاه دليل شرعى فى واقعة ، الى حكم آخر فيها ، لدليل شرعى اقتضى هذا العدول ! ..

وكان هناك فى الفقه مراعاة « المصالح المرسلة » ، وقد تسمى « الاستصلاح » أى طلب الصلاح ، ويراد بذلك تشريع الحكم فى واقعة لا نص فيها ولا اجماع ، بناء على مراعاة مصلحة مرسلة ، أى مطلقة لم تقيد بنص فى الدين يدل على اعتبارها أو الغائها ، فهى من المسكوت عنه

وكان هناك مراعاة « العرف » أو « العادة » .. أى مراعاة ما يتعارف عليه الناس ، ويسيرون عليه غالبا فى قول أو فعل ، بشرط الا يعارض هذا العرف حكما من أحكام الله تعالى ، أو قاعدة من قواعد الدين ..

(١) قال ابن القيم فى كتابه « أعلام الموقعين » مانصه : « وقد كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يجتهدون فى النوازل ، ويقيسون بعض الاحكام على بعض ويعتبرون النظير بنظيره »

ظهرت هذه الأصول والمصادر فى حقل الفقه الاسلامى ، وعرفها الأئمة الأربعة ، ومنهم من توسع فى قبولها ، ومنهم من رد بعضها أو تشدد فيه ، ولكن الذى لا شك فيه ان هذه المصادر كانت أشبه بكنوز ضخمة تفتحت أبوابها على الفقه الاسلامى فزادته ثروة وقوة وصلاحية !

من خلال هذه الأضواء التى تألقت فى آفاق الشريعة تترجم للأئمة الأربعة تراجم لا يشتط بها طول ، ولا يجحف بها خلل ، فنستعرض لكل منهم صورة عن حياته تتعدد جوانبها : فنرى فيها عصره ومولده ، ونشأته وحياته ، وشيوخه وتلاميذه ، وطريقته وجهوده ، وآثاره ، وكتبه ، وصفاته ، وأخلاقه ، وبعض ما نلاحظ عليه ، وأقوال الناس فيه ، والمحن والبلايا التى تعرض لها ، فالملاحظ فى تاريخ هؤلاء الأئمة انهم قد ذاقوا ألوانا من العذاب فى سبيل عقيدتهم ورأيهم ، ولكنهم صبروا الصبر الجميل ، ففازوا من الناس بالثناء الجليل ، ومن الله تعالى بالثواب الجزيل ..

وقد حرصت على أن أتتبع طائفة من كلمات كل امام ، التقطها من هنا وهناك ، وأقدمها طاقة منظومة ، لتعطينا فكرة جلية عن بيانه وأفكاره وآرائه فى الدين والدنيا ..

كما حلا لى أن أتحدث عن صلة هؤلاء الأئمة بالشعر والغناء والفن وطيبات الحياة ، مع ان هذا الجانب من حياة هؤلاء الأئمة مطمور مغمور ، يأتى فى تراجمهم المتناثرة رذاذا خفيفا على أطراف أوراق عريضة لأشجار باسقات . ولعلّى فعلت ذلك لنتبين سماحة الاسلام ، وسعة الأفق عند هؤلاء الأئمة ، ولندرك ان الدين الالهى العظيم الذى جاء ليصوغ أتباعه صياغة جديدة مجيدة تهيئهم ليكونوا رهبان الليل وفرسان النهار ، لا يمنع أهله أبدا أن يتمتعوا بطيبات الحياة وزينة الدنيا ، ما داموا لا يقترفون اثما ، ولا يضيعون واجبا ، ولنقتنع بأنه من الخير الكبير أن تزول تلك الجفوة الواسعة عند بعض الناس بين الدين والحياة ، وأن تزول تلك القطيعة المصطنعة بين الدين والفن ،

ولنؤمن بما كررت قوله من قبـــل : اذا تفنن رجل الدين وتدين رجل الفن ، التقيا فى منتصف الطريق لخدمة العقيدة العظيمة والفن السليم !

ولا أنسى أن أشير هنا الى ظاهرة لها خطورتها ، فهناك من يحاول انتقاص هؤلاء الأئمة الأربعة ، والتهوين من شـــأنهم فى كيد وخبث ، فيقول : انهم كبقية الناس يخطئون وينحرفون ، ولا ينبغى أن نأخـــذ بآرائهم وأقوالهم ، وهذا سعى خفى وبيل ، يراد منه فى الواقع هـــدم ذلك التراث الاسلامى الضخم الذى بناه أولئك الأئمة الأعلام فى صبر وجلد ، وبنور وايمان ، وباســـتمداد قويم من كتاب الله تعالى وسنّة رسوله صلوات الله وسلامه عليه ، بعد اعدادهم لأنفسهم أعظم اعداد ، فحفظوا القرآن ، وجمعوا السنة ، ودرسوا العلوم ، وتلقوا عن السلف ، وطهروا حواسهم ونفوسهم بالتعبد والتهجد ، وازدانوا باليقين والاخلاص.

وكأن هؤلاء الكائدين يريدون أن يأتوا على بنيان الدين من القواعد ، ولكنهم يجعلون ذلك على مراحل ، يبدأونها بالحملة على علماء الدين لأنهم كسائر البشر ، ثم ينتقلون الى انتقاص أئمة الفقهاء ، لأنهم غير معصومين ، ثم ينتقلون الى الطعن على السنّة النبوية متذرعين بأنه قد أضيف اليها ما ليس منها ، ثم لا يكون أمامهم بعـــد ذلك الا القرآن الكريم ، وأغلب الظن ان نفوسهم ستسول لهم حينئذ أن يهاجموه : « يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ، ويأبى الله الا أن يتم نوره ولو كره الكافرون » ..

واذا شغلنا الحديث اليوم عن هؤلاء الأئمة الأربعة ، فقد يتسع قابل الزمن لحديث عن أئمة آخرين من أمثال : الليث بن سعد ، والأوزاعى ، وابن حزم ، وداود الظاهرى ، وزيد بن على ، وجعفر الصادق ، وابن تيمية ، وابن القيم ، رضوان الله عليهم أجمعين ..

أسأل الله عز وجل أن يجعل هـــذا العمل لوجهه ، وأن يبارك فيه ، وينفع به ، انه أكرم مسئول وأفضل مأمول ، وسبحان من لو شاء لهدى الناس جميعا الى سواء السبيل ..

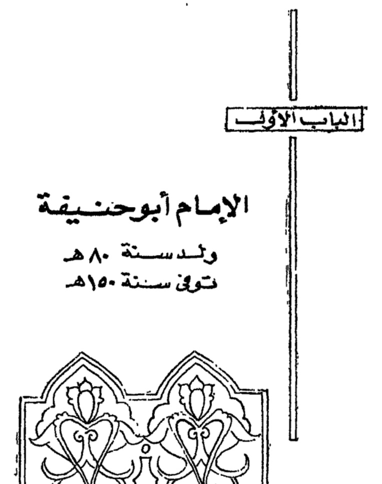
احمد الشرباصى

الباب الأول

الإمام أبوحنيفة

ولد سنة ٨٠ هـ

توفى سنة ١٥٠هـ



أبو حنيفة

مكانة أبى حنيفة :

هكذا شاءت الأقدار أن يكون الامام أبو حنيفة أول الأئمة الأربعة : كان أولهم ميلادا ، وأسبقهم وفاة ، فاستحق أن يأتى الحديث عنه فى الطليعة ..

وليس أبو حنيفة بالرجل الهين الشأن أو الضعيف المكانة ، حتى لا نلتمس للعناية به الا انه سبق غيره فى الميلاد والوفاة ، فقد كان رجلا عظيما فى أكثر من جهة ، كان ناجحا فى سعيه لحياته ودنياه ، وكان نابغا فى تحصيله العلم والمعرفة ، وكان بارعا فى تفكيره واستنباطه ، وكان صاحب أخلاق فاضلة تؤهله لمزاملة أهل الصدارة من الأئمة الأعلام ، واستطاع أن ينتزع لشخصه مكانة ملحوظة فى مجتمعه الذى اختلطت فيه عوامل الانصاف بعوامل الاعتساف ، وحسبه انه كسب لنفسه ذلك اللقب الذى سار مسير الشمس فى الآفاق ، وهو لقب « الامام الأعظم » ، فاذا أضفنا الى ذلك انه كان « فقيه العراق » ، و « امام أهل الرأى » أدركنا الباعث الذى بعث عبد الله بن المبارك على أن يقول فى أبى حنيفة : « انه مخ العلم » ، والباعث الذى بعث ابن جريج على أن يقول فيه : « انه الفقيه » ! ..

عصر أبى حنيفة :

قضى أبو حنيفة معظم حياته فى عهد الدولة الأموية ، ثم شهد جانبا

(١) ينبغى أن نلاحظ ان عصر أبى حنيفة مشترك بينه وبين بقية الائمة الاربعة فى جزء كبير منه ، فقد ولدوا وماتوا جميعا فيما بين أواخر القرن الاول الهجرى ووسط القرن الثالث ، اى مابين سنة ثمانين وسنة احدى وأربعين ومئتين كما سنرى

من عهــد الدولة العباسية ، فقــد ولد فى زمن ولاية الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان ، وتوفى فى ولاية الخليفة العباسى الأول أبى جعفر المنصور ..

وهذا العصر الذى شهده أبو حنيفة يمتاز بكثرة الاتجاهات الدنيوية والدينية ، والحركات الفكرية والسياسية ، فقد حول الأمويون الخلافة الراشدة الى ملك عضوض ، ومن وراء ذلك حدثت فتن واضطرابات ، وظهرت النزعة العربية القومية الواضحة فى العهــد الأموى ، وبدرت بوادر من التعصب على غير العرب ، واشتدت الوطأة حينا على الموالى ، وتهيأ المجتمع لألوان من المؤامرات والدسائس ، وظهر الاضطهاد لآل بيت الرسول عليه الصلاة والسلام ..

ثم أقبل العصر العباسى ، فاذا الصراع يشتد بين العباسيين والعلويين ، واذا النزعة الأعجمية تظهر « كرد فعل » على النزعة العربيــة القوميــة السابقة ، واذا النحل والمذاهب تتكاثر ، واتسع الاتصــال بالفلســفة اليونانية والفكرين : الفارسى والهندى ، عن طريق التوسع فى الترجمة ...

وكان المجتمع على عهد أبى حنيفة يضم كثيرين من شعوب مختلفة ، ففقد التجانس والتناسق ، فهناك عرب ، وعجم ، وفرس ، وروم ، وهناك الموالى ، والجوارى ..

واتسعت الحياة المادية والاجتماعية بعد أن فتح الله تعالى على العرب والمسلمين ما فتح من أقطار الدنيا وخيرات الحياة ، وكانت هناك محاولات للتوفيق بين حياة المجتمع والنصوص الدينية ، فكثرت الأقوال فى الفقه الاسلامى ، وظهرت الآراء والمذاهب ، وبرز فى الحياة العلمية والدينية منهجان ..

أولهما : منهج النقل ، أو مذهب أهل الحديث ، وهو المنهج الاتباعى ، أو المتقيد بنصوص القرآن الكريم ، وما نقله الرواة من سنة الرســول عليه الصلاة والسلام . وكان من الطبيعى أن يكون لهذا المنهج أنصاره الكثيرون ، بمقتضى الحرص الشديد من المسلمين على تتبع كل ما قاله

الرسول الأمين ، أو فعله ، أو أقره ، لأنه المثل الأعلى ، والقدوة المثلى ، وهو المفسر الأول للدين ..

وثانيهما : منهج العقل ، أو مذهب أهل الرأى ، وهو المنهج الذى يضيف الى تقبــل النص واحترامه اعمالا للفكر ، واستنباطا للحكم ، واجتهادا فى تفسير النص ..

وربما ساعد على ظهور هذا المذهب نمو المجتمع واتساعه ، بجوار ما نجم من تأثر بالتفكير اليونانى الذى أخذ طريقه الى المجتمع الاسلامى ، فأعطى العقل ارادة قوية فى البحث عن علل الأحكام وحكمة التشريع ..

ولم ينشأ أبو حنيفة على هامش هذا المجتمع ، أو فى زاوية من زواياه ، بل عاش فى قلبه وصميمه وعاصمته .. عاش فى بغداد التى تموج بالعلم والعلماء ، والبحث والباحثين ، والجدل والمجادلين ، والتيارات المتعددة أحيانا والمتضاربة أحيانا أخرى ..

وبغداد هى عاصمة العراق ، والعراق يومئذ هو أقوى البيئات العلمية والاسلامية ، بما له من ماض عريق فى الناحية العلمية ، وبما فى أهله من استعداد للبحث والتفكير ، وبهجرة الكثير من العلماء اليه ــ والى بغداد عاصمته بوجه أخص ــ بعد أن اتخذته الخلافة العباسية قاعدة لحكمها ، فزادته قوة وجاذبية ..

ومن الطبيعى أن يغلب على العراق المنهج العقلى ، أو مذهب أهل الرأى ، بينما غلب على « المدينة » وما حولها المنهج النقلى ، أو مذهب أهل الحديث والنقل ، فقد ظلت المدينــة ردحا طويلا من الزمن تمثل صخرة المقاومة أمام التيارات الاجتماعية والمادية الوافدة مع توالى الفتوح وتكاثر الأجناس ، لســذاجة الحياة فيها بالنسبة الى غيرها ، ولوثاقة اتصالها بسنة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ففيها كان محيــاه ، وفيها استقر جدثه ومثواه ، والى جوار قبره أقام الكثيرون من أهل الصدر الأول ، يستمسكون بالذى هداهم اليه الرســول من ســنة أو أثر ، ويعضون على ذلك بالنواجذ ..

أما العراق فقد نشأت فيه خلافة ودولة ومجتمع كبير ، وهـذا كله يحتاج الى قوانين ونظم وأحكام ، فلا بد من النظر والتفكير .. ومن حول العراق بلاد غير اسلامية ، والعلاقات بينه وبين هذه البلاد تحتاج الى ايضاح الأحكام المتعلقة بها ..

وفى العراق وجد كثير من الموالى والجوارى ، وشاع الغناء والسماع ، وعرف فريق من الناس طريقهم الى « الشراب » ، ولا بد أمام هـذه الظواهر كلها من كلمة ــ بل كلمات ــ للفقه الاسلامى يقولها أهلوه ، ليرى الناس مدى قربهم من الدين أو بعدهم عنه ..

ثم ان هذا المجتمع الاسلامى قد نهض على أوضاع اقتضتها الادارة المختلفة المجالات ، فهو محتاج الى تقويم هـذه الأوضاع دينيا ، والى تحديد واجبات الراعى والرعية ، والعلاقة بين الحاكم والمحكوم ..

لم يكن عجيبا بعد هذا كله أن يغلب على العراق مذهب أهل الرأى ..

ولم يكن عجيبا ان نجد للرأى فى حياة أبى حنيفة أثرا وأى أثر ! ..

حياة أبى حنيفة :

ولد أبو حنيفة فى مدينة الكوفة ــ وقيل فى الأنبار ــ سنة ثمانين للهجرة ، وهناك رواية ضعيفة تقول انه ولد سنة احدى وستين ، وهذا التاريخ لا يتسق مع الأحداث التى مرت على أبى حنيفة ، فالصحيح هو القول الأول ..

وأبو حنيفة اسمه : النعمان بن ثابت بن زوطى بن ماه مولى تيم الله ابن ثعلبة . ويروى انه عربى الأصل ، وانه من بنى يحيى بن زيد بن أسد ــ وقيل ابن راشد ــ الأنصارى ..

ولكن هـذا القول غير صحيح ، فالمشهور ان أبا حنيفة من أصل فارسى ، واستدلوا على ذلك بعدة أمور ، منها : انه قيل فى نسبه انه : « النعمان بن ثابت بن النعمـان بن المرزبان » ، والمرزبان كلمة فارسية معناها : الرئيس من أبناء فارس الأحرار ..

ومنها وجود اسم « زوطى » فى نسبه ، وهو اسم أعجمى ، وليس

بعربى ، ومنها ما روى فى أكثر من مصدر ان أصله من « كابل » أو « ترمذ » ، وقد قيل ان أبا حنيفة هو أحد المقصودين بالحديث النبوى الشريف الذى رواه البخارى ومسلم ، وفيه : « لو كان العلم معلقا عند الثريا لتناوله رجال من أبناء فارس » ..

و « ثابت » والد أبى حنيفة قد ولد على الاسلام ، وروى انه من « الأنبار » . وروى انه أقام فى « ترمذ » ، وقيل فى « نسا » ، ولعله أقام فى كل بلدة منها زمنا ، ويبدو انه كان تاجرا موسرا حسن الاسلام ، كما يروى انه التقى بالامام على بن أبى طالب رضى الله عنه ، فدعا له الامام ولذريته بالخير والبركة . وأما « زوطى » جده فقد كان مملوكا لبنى تيم الله بن ثعلبة ، ثم أعتق ، ومن سلالة أبى حنيفة من ينكر هـذا الرق ، ويقول انهم من أبناء فارس الأحرار ..

وأما والدة أبى حنيفة فليس بين أيدينـا تفاصيـل عن شخصيتها أو حيـاتها ، ولكننا نستطيع من متابعة أخباره ان ندرك بسهولة انه كان يجلها ويعزها ويطيعها ، ويرى طاعتها سببا من أسباب التوفيق الالهى ، كما يرى عصيانها سببا من أسباب نقمة الله تعالى عليه ..

فقد روى أبو يوسف ــ وهو أكثر تلاميـذ أبى حنيفة شهرة ــ ان أبا حنيفة كان يحمل والدته على حماره الى مجلس « عمر بن ذر » لأنها كانت تريد ذلك ، وهو يحرص على اطاعة أمرها ، ويقول أبو حنيفة : ربما ذهبت بها الى مجلسه ، وربما أمرتنى أن أذهب اليه ، وأسأله عن مسألة فآتيه وأذكرها له ، وأقول له : ان أمى أمرتنى ان أسألك عنها ..

فيقول له عمر متعجبا : وانت تسألنى عن مثـل هـذا ؟.. يعنى ان أبا حنيفة يعرف هذا وأكثر منه ، فيقول أبو حنيفة : هى أمرتنى ! ..

فيقول له عمر : قل لى كيف هو حتى أخبرك ! ..

فيخبره أبو حنيفة بجواب المسألة ، ثم يعيد عليه عمر ما سمعه منه ، ثم يعود أبو حنيفة الى أمه ويقول لها : ان عمر قال فى المسألة كذا وكذا .. ولقد حدث أن استفتت أمه عن شىء ، فأفتاها فيه ، ولكنها لم تقبل

فتواه ، وقالت : لا أقبل الا فتوى « زرعة القاص » ..

وطلبت منه أن يحملها اليه ففعل ، وقال لزرعة : أمى تستفتيك فى كذا فقال له زرعة : انت أعلم وأفقه ، فأفتها ..

فقال أبو حنيفة : لقد أفتيتها بكذا ، ولكنها لم تقبل ..

فقال لها زرعة : القول ما قال أبو حنيفة .. !

ولقد حاولت الدولة اكراه أبى حنيفة على تولى القضاء فى أيام مروان فلم يقبل ، فضربوه على رأسه ضربا موجعا ، ولما أطلقوا سراحه لم يشك الحبس ولا الضرب ، بل قال : « كان غم والدتى أشد على من الضرب » !

ويظهر ان الضرب كان شديدا ، لأن الامام أحمد بن حنبل كان اذا ذكروا ذلك أمامه بكى وترحم على أبى حنيفة !

اشتغاله بالتجارة :

كان أبو حنيفة فى أول أمره منصرفا الى الاشتغال بالتجارة وحدها ، ثم اشتغل معها بالعلم ، وظل يتاجر طيلة حياته ، وكان يتـاجر فى الخز ـ وهو نوع من الثياب ـ ولعله أخذ الاتجار فيه عن أبيه ، وكان ماهرا فى التجارة مسعدا فيها ، وكان له دكان معروف فى الكوفة ، واستعان بشركاء فى التجارة يسافرون له فيها وينوبون عنه ، ومن شركائه حفص ابن عبد الرحمن ..

وكان أبو حنيفة أمينا فى تجارته لايخدع مشتريا ، ولا يشتط فى أخذ الربح ، ويذكر للمشترى ما فى السلعة من عيب اذا كان فيها ، ويروى انه وكل الى شريكه « حفص » أن يبيع ثيابا فيها عيوب ، وأن يذكرها لمن يشتريها ، ولكن الشريك نسى ذلك ، وحاول أبو حنيفة أن يعرف المشترى فلم يهتد اليه ، فتصدق بالثمن كله ! ..

واستطاع أبو حنيفة أن يحسن الجمع بين التجارة والعلم ! ..

طلبه للعلم :

نشأ أبو حنيفة فى الكوفة ، وهى حينئذ تشهد نشاطا علميا كبيرا ، فكان من الطبيعى أن يتجه أبو حنيفة الذكى المتوقد الذهن الى العلم ،

ويروى انه بدأ يتعلم النحو ، والنحو فى أصله قواعد مضبوطة وأقوال مسموعة ، ولا مجال فيها لتصرف العقل أو تعدد الرأى ، ولكن أبا حنيفة رجل يحب استخدام عقله ورأيه ، فأراد بمقتضى هذا أن يجمع كلمة « كلب » على « كلوب » ، كما تجمع كلمة « قلب » على « قلوب » ، فقالوا له : لا بد أن يكون جمع « كلب » هو « كلاب »

فضاق ذرعا بهذا الحجر ، وترك النحو الذى لا قياس فيه الى تعلم الفقه الذى يوجد فيه قياس يرضى عقله وذكاءه ، وكأن الذين رووا لنا هذه الحادثة قد أرادوا أن يشعرونا بميل أبى حنيفة الى الأخذ بالرأى من أول الطريق ..

وبجوار الفقه اشتغل أبوحنيفة بعلم الكلام ، وكان له فيه بحوث منها : الفقه الأكبر ــ الرد على القدرية ــ العالم والمتعلم ــ رسالته الى البستى ..

وليس عجيبا أن يبرع أبوحنيفة فى هذا المجال ، فان للعقل فيه صيالا أى صيال ! ..

ويروى فى سبب انصرافه الى العلم أنه مرَّ يوما على الامام الشعبى ، فدعاه الى الجلوس وقال له : الى من تختلف ؟ .. يعنى : الى أى العلماء تذهب لتتعلم منه ؟ .. فقال أبو حنيفة : أختلف الى السوق . فقال الشعبى : لم أعن الاختلاف الى السوق ، عنيت الاختلاف الى العلماء .. فأجاب أبو حنيفة : أنا قليل الاختلاف اليهم . فقال له : لا تفعل ، وعليك بالنظر فى العلم ومجالسة العلماء . فانى أرى فيك يقظة وحركة !..

ووقعت كلمة الشعبى فى نفس أبو حنيفة ، وأخذ يضرب بسهمه الوافر فى العلم ، فنفعه الله عز وجل بكلام الشعبى ! ..

شيوخ أبى حنيفة :

عجبت حين قرأت فى طبقات الشعرانى أن أبا حنيفة كان فى زمنه أربعة من الصحابة ، هم : أنس بن مالك ، وعبدالله بن أبى أوفى ، وسهل بن سعد ، وأبو الطفيل ، وهو آخرهم موتا ، ولم يأخذ عن واحد منهم ! ..

فلماذا لم يأخـذ عنهم ؟ .. من البعيد أن يكون قد تيسر له الأخـذ واستخف به أو أعرض عنه ، فالغالب أنه عز عليه ذلك ، وانما عز عليه أن يأخذ عنهم لأن منهم من مات وأبوحنيفة ما زال صغيرا ، مثل عبد الله ابن أبى أوفى الذى توفى سنة سبع وثمانين ، فكان عمر أبى حنيفة حينئذ سبع سنوات ، لأنه ولد كما عرفنا سنة ثمانين . ومثل سهل بن سعد الذى توفى سنة ثمان وثمانين ، أو سنة احدى وتسعين ، وعمر أبى حنيفة فى نحو الحادية عشرة

وأنس بن مالك مات ــ كما تقول الروايات التاريخية ــ سنة تسعين ، أو اثنتين وتسعين ، أو خمس وتسعين ، فكان أبو حنيفة حينئـذ غير منصرف الى طلب العلم ، وسنه فى الخامسة عشرة ، فقد عرفنا انه بدأ بالاشتغال فى التجارة

***

بقى أبو الطفيل ــ وهو عامر بن واثلة ــ فقد مات سنة عشر ومئة ، فكان عمر أبى حنيفة حينئذ عشرين سنة ، وهى سن صالحة لتلقى العلم ، فلا بد أن يكون هناك مانع منع أبا حنيفة من التلقى عنه ، بدليل انه كان ينوه بأخذه العلم عمن أخذوه من الصحابة ، فقد زار أبو حنيفة أبا جعفر المنصور الخليفة العباسى ، وكان عنده عيسى بن موسى ، فقال عيسى للمنصور عن أبى حنيفة : هذا عالم الدنيا اليوم ..

فسأل المنصور أبا حنيفة : يانعمان ، عمن أخذت العلم ؟..

قال : عن أصحاب عمر عن عمر ، وعن أصحاب على عن على ، وعن أصحاب عبد الله بن عباس عن عبد الله ، وما كان فى وقت ابن عباس على وجه الأرض أعلم منه

فقال المنصور معجبا : استوثقت لنفسك ! ..

وفى رواية أخرى انه قال للمنصور عن أخذه الفقه : « عن ابراهيم عن عمر بن الخطـاب ، وعلى بن أبى طالب ، وعبـد الله بن مسعود ، وعبد الله بن عباس »

فقال المنصور : بخ بخ ، استوثقت ما شئت يا أبا حنيفة الطيبين الطاهرين المباركين ، صلوات الله عليهم ..

***

ولقد كان لأبى حنيفة طائفة من الشيوخ والأساتذة ، منهم حماد بن أبى سليمان الأشعرى ، وزيد بن على زين العابدين ، ومحمد الباقر زين العابدين ، وجعفر الصادق ، وعبد الله بن الحسن بن الحسن ، وجابر بن يزيد الجعفى ..

ولكن أكبرهم أثرا فى نفس أبى حنيفة هو حماد بن أبى سليمان الأشعرى فقيه الكوفة ، المتوفى سنة عشرين ومئة ، ولقد قال أبو حنيفة عنه : « كنت فى معدن العلم والفقه ، فجالست أهله ، ولزمت فقيها من فقهائهم » ، وهو يقصد انه عاش فى بيئة علمية تموج بالعلم والفقه ، وتعمر بالبحث والنظر ، ومن حوله أهل العلم يجالسهم ويباحثهم ، وله أستاذ جليل هو حماد بن أبى سليمان !

وتلقى أبو حنيفة عن حماد الفقه والحديث ، واذا كان قد تلقى جانبا من الفقه عن ابراهيم النخعى والشعبى ، فان جلوسه اليهما لم يطل كما طال مع حماد ، حيث جلس اليه أبو حنيفة — وهو فى نحو الثانية والعشرين من عمره — وظل يلازمه الى نحو الأربعين ، ثم استقل بالتدريس فى مسجد الكوفة بعد سن الأربعين

ويروى ان أبا حنيفة كان يتعلم « علم الكلام » (١) ، ويجلس على مقربة من حماد ، وأقبلت امرأة ذات يوم على أبى حنيفة تسأله عن مسألة ، فلم يعرف جوابها ، فأحالها الى حماد ، ورجاها أن تعود اليه بعد ذلك لتخبره بجواب حماد ، فمضت المرأة اليه وسمعت جوابه ، وعادت فأخبرت به أبا حنيفة ، فأعجب به ، وقال : لا حاجة لى بعلم الكلام ..

وتحول الى مجلس حماد يسمع منه ، ويحفظ أقواله ، ويعيدها فى

(١) وهو علم البحث فى العقائد والجدل حولها ، ويسمى « علم التوحيد » لان بعض ابوابه تدور حول اثبات وحدانية الله ، وقد خلطه بعض أهله بالفلسفة فتعقد

براعة ، فأعجب به حماد ، وقال لمن حوله : لا يجلس فى صدر الحلقة بحذائى غير أبى حنيفة . وظل أبو حنيفة يلازمه حتى مات حماد !

وكانت نفس أبى حنيفة قد تطلعت الى الرياسة فى العلم والفتوى ـ وما زال شيخه حماد حيا ـ ولكنه بالتجربة والاختبار وجد نفسه غير أهل لهذه الرياسة حينئذ ، فندم على تطلعه السابق لأوانه ، وقرر أن يلازم شيخه حتى يموت ، وقد فعل !

وبعد موت حماد جلس الناس الى ابن له يسمعون منه ، راجين ان يتصل جهده بجهد أبيه العظيم فيدوم ذكره ، ولكن الابن لم يصبر على مجلس الفقه ، اذ كان يغلب عليه حب النحو ، فتقدم الناس الى أبى حنيفة يطلبون منه أن يجلس لهم ، وكثر الساعون اليه فى ذلك ، ومنهم أبو يوسف القاضى ، وزفر بن هذيل . وقبل أبو حنيفة ، وظل نجمه يسطع ويتألق حتى ذكره الخلفاء ، واحتاج اليه الأمراء

وعلى الرغم من هذا السطوع وهذا التألق ، لم يسهل على أبى حنيفة أبدا أن ينسى شيخه وأستاذه حمادا ، فأقام على شرعة الوفاء له ، يذكره بالخير ، ويثنى على فضله ، وينوه بأثره فيه ، ويدعو له ، حتى قال أبو حنيفة : « ما صليت قط الا ودعوت لشيخى حماد ، ولكل من تعلمت منه علما ، أو علمته » . وفى رواية أخرى قال : « ما صليت صلاة منذ مات حماد الا استغفرت له مع والدى ، وانى لأستغفر لمن تعلمت منه علما ، أو علمته علما » !

ولو رجعنا الى كتاب « تهذيب الأسماء واللغات » للنووى لوجدناه قد أورد أسماء كثيرين ممن سمع منهم أبو حنيفة ، وأسماء كثيرين ممن سمعوا منه !

وقد أخذ أبو حنيفة قراءة القرآن الكريم عن الامام عاصم ، وهو أحد القراء السبعة

واذا تركنا الشيخ الأول لأبى حنيفة وهو حماد ، وجدنا ان أبا حنيفة قد تأثر تأثرا واضحا بمذهب ابراهيم النخعى ، حتى ذهب بعض الباحثين

الى أن جهد أبى حنيفة كان مقصـــورا على تخريج المسائل من هــذا المذهب ، والمهارة فى التفريع على أصوله ، وقد يكون هناك لون من المبالغة فى هذا القول ، لأن أبا حنيفة له آراؤه المستقلة التى لا يلتزم فيها رأى النخعى ، فهو يستقل بالرأى كثيرا ، ويخالف شيخه النخعى وأستاذه حمادا ، واذا رجعنا الى كتاب « الآثار » الذى وضعه محمد بن الحسن صاحب أبى حنيفة وجدنا فيه كثيرا من الشواهد على ذلك

وأبو حنيفة ــ بجوار ذلك ــ هو الذى وضع طريقة القياس ، وبدأ فيها ، وبذل مجهوده فى توطيدها ، وجاء من بعده فزادوا فيها ووسعوا

جلوسه للتدريس :

عرفنا ان أبا حنيفة قد لازم شيخه حمادا حتى مات ، ثم تولى التدريس بعد وفاة شيخه بمدة ، وعرفنا ان نفسه تطلعت الى التدريس فى حيـــاة شيخه ولكنه لم يستمر ، ولقــد حدثنـــا أبو حنيفة عن نفسه انه همّ بالجلوس للتدريس وأن يعتزل شيخه ، ويجعل له حلقة مستقلة ، وخرج ذات ليلة لينفذ ما حدثته به نفسه ، ولكنه حينما رأى شيخه استحيا ، وعزفت نفسه عما همّ به ، وجلس الى شيخه

ثم هيأت الأقدار لأبى حنيفة فرصـــة يرضى فيها طموحه ، دون أن يرتكب فى حق شيخه ما يعاب عليه ، فقــد اضطر شيخه الى الســفر لواجب عزاء ، وطلب من أبى حنيفة أن يجلس مكانه حتى يعود ، ففعل

وسئل أبو حنيفة ستين سؤالا ، أجاب عنها كلها ، وكتب أجوبته التى قالها ، ولما عاد شيخه حماد عرض عليه هذه الأجوبة ، فوافقه على أربعين منها ، وخالفه فى عشرين ، وأبان له أسباب المخالفة ، فآلى أبو حنيفة على نفسه ألا يفارق شيخه حتى يموت ، ووفى بعهده !..

وكانت الحادثة الماضية فرصـــة لأبى حنيفة كى يدرب نفســـه على التدريس من جهة ، ولكى يقف على سعة محيط العلم من جهة أخرى

ومات حماد ، وجاء لأبى حنيفة طوعا واختيارا ما حدثته نفسه بأن يناله قبل الأوان !..

وجلس للتدريس ، واستمع اليه من نستطيع أن نسميهم بالتلاميــذ الكبار ، فلم يكن جلساء أبى حنيفة من عامة الناس ، ولا من البادئين الشـــادين فى العلم والمعرفة ، بل كان فيهم من له نصيب أى نصيب فى التحصيل والفقه ، حتى ان رجــلا قال يوما فى مجلس وكيع بن الجراح الفقيه : أخطــأ أبو حنيفة . فقال له وكيع : كيف يقدر أبو حنيفة أن يخطىء ، ومعه مثل أبى يوسف وزفر فى قياسهما ، ومثل يحيى بن أبى زائدة ، وحفص بن غياث ، وحبان ومندل فى حفظهم الحديث ، والقاسم ابن معن فى معرفته باللغة العربية ، وداود الطائى وفضيل بن عياض فى زهدهما وورعهما ؟.. من كان هؤلاء جلساءه لم يكد يخطىء ، لأنه ان أخطأ ردوه !..

واذا كان كلام وكيع هذا يدل من جهة على أن جلساء أبى حنيفة كان فيهم علماء بصراء بمختلف العلوم ، وكانوا يستطيعون أن يصححوا له أخطاءه ، فان هذا الكلام نفسه يدل بمضمونه من جهة أخرى على ان علم أبى حنيفة كان من الكثرة والدقة بحيث يصلح صــاحبه ليجلس مجلس التدريس والافتاء بين أمثال هؤلاء !..

تلاميذ أبى حنيفة :

وما دمنا قد عرضنا لمجلس أبى حنيفة للتدريس والتعليم ، فلنتعرف الى طائفة من تلاميذه الذين كان لهم ذكر أو أثر فى مجال الفقه الحنفى أكثر من غيرهم . وفى طليعة هؤلاء التلاميذ أبو يوسف يعقوب بن ابراهيم ابن حبيب الأنصارى الكوفى ، المولود سنة ثلاث عشرة ومئة ، والمتوفى سنة اثنتين وثمانين ومئة

وكان فقيرا فى أول أمره ، فاضطر أن يعمل بيديه ، وكانت لديه رغبة فى العلم ، فأعانه عليها أبو حنيفة بالمال والرعاية ، وجلس أبو يوسف أولا الى ابن أبى ليلى نحو تسع سنين ، ثم انصرف الى أبى حنيفة ، وصار فقيها عالما حافظا ، وتولى القضاء للخلفاء : المهدى ، والهادى ، والرشيد ، من خلفــاء الدولة العباسية

وقد أفاده توليه القضاء خبرة وتجربة وقدرة على تطبيق الأحكام ، وكان يدعم رأيه بالحديث النبوى

وله كتب كثيرة فى العبادات والبيوع والحدود وغيرها ، ومن أشهر كتبه كتاب « الخراج » الذى وضعه لهارون الرشيد ، والذى يعد من أهم المراجع التى تتعرف عن طريقها الى النظم الاقتصـادية المختلفة فى الاسلام ..

ومن كتبه كتاب « الآثار » وكتاب « الرد على سير الاوزاعى فيما خالف فيه أبا حنيفة » ، وغير ذلك ..

ومن تلاميذ أبى حنيفة أبو عبد الله محمد بن الحسن الشيبانى ، المولود سنة اثنتين وثلاثين ومئة ، والمتوفى سنة تسع وثمانين ومئة ، وقد جلس الى أبى حنيفة زمنا طويلا ، ومات أبو حنيفة والشيبانى ما زال دون العشرين من عمره ، وهذا يدل على تبكير نبوغه واستعداده للتفقه

ثم جلس الشيبانى بعد أبى حنيفة الى أبى يوسف ، كما أخـذ عن سفيان الثورى والأوزاعى ، وتلقى عن الامام مالك بن أنس فقه الحديث والرواية ..

وولى القضاء للرشيد ، وكان يجمع بين الفقه والأدب، وقال فيه الامام الشافعى : « كان أفصح الناس ، وكان اذا تكلم خيل الى سامعه ان القرآن الكريم نزل بلغته » !..

وكانت له مهارة فى التفريع والحساب ، وعناية بالتدوين ، وله كتب منها : المبسوط ، والزيادات ، والجامع الكبير ، والجامع الصغير ، والسير الكبير ، والسير الصـغير ، والرد على أهل المدينـة ، وأكبر كتبه هو المبسوط ..

وكان رجلا يصون كرامته ويحفظ عزته !..

ومن تلاميذ أبى حنيفة زفر بن الهذيل ، المولود سـنة عشر ومئة ، والمتوفى سنة ثمان وخمسين ومئة ، وهو عربى الأب فارسى الأم ، وقد سبق أبا يوسف ومحمد فى التلقى عن أبى حنيفة ، وكان أكثر تلاميـذه

قياسا ، ولم يؤلف كتبا ، ولكنه نشر آراء شيخه بلسانه ..

***

وتولى قضـاء البصرة ، وكان أهل العلم فيها يكرهون أبا حنيفة ، ويسيئون به الظن ، فجعل زفر ينقل اليهم من الأقوال والآراء ما يعجبون به ويستحسنونه ، ثم يقول لهم بعد ذلك : هذا قول أبى حنيفة . فيقولون متعجبين : ويحسن هذا أبو حنيفة ؟ !.. فيقول لهم : نعم .. وأكثر من هذا !..

فلم تزل حاله معهم على هذا حتى رجع كثير منهم عن بغض أبى حنيفة الى محبته ! ..

ومن تلاميذ أبى حنيفة الحسن بن زياد اللؤلؤى الكوفى ، المتوفى سنة أربع ومئتين ، وقد اشتهر برواية الحديث ، وتتلمذ لأبى حنيفة ، وكان من أصحابه ، وتولى قضاء الكوفة سنة أربع وتسعين ومئة وله كتب منها : أدب القاضى ، والخصال ، ومعانى الايمان ، والنفقـات ، والخراج ، والفرائض ، والوصايا ، والمجرد ، والأمالى

ولقد كان أثر أبى حنيفة فى تلاميـذه عميقا واسـعا ، فاذا كان قد استطاع أن يتتلمذ لشيوخه ، ثم يتألق ويستقل ويصير له مذهب خاص ، فان تلاميذه لم يستطيعوا أن يتخلصوا تمام التخلص من طوق المتـابعة الفقهية له ..

واذا كان فى هؤلاء التلاميذ من خالف أستاذه فى مسائل أو مواضع فقد ظلت الصبغة الغالبة على هؤلاء التلاميذ هى التأثر بمذهب أستاذهم وسيرهم على منواله

وهذا أشهرهم أبو يوسف قد تابع شيخه فى أكثر آرائه ، ودافع عن هذه الآراء كلما وجد من الفقهاء من يخالفها أو يعترض عليها

وكذلك كان تلميذه محمد بن الحسن الشيبانى ..

ولا يسهل علينا أن نغمط هؤلاء التلاميذ حقهم وجهدهم ، فاذا كان لشيخهم حق الأستاذية ومكانة الموجه ، فقد كان لبعض هؤلاء التلاميذ

فضل كبير فى نشر المذهب الحنفى ، وتخليد ذكرى صـاحبه فى عقول الناس ، والبارز فى هذا الميدان من تلاميذه هما أبو يوسف ومحمد

وينبغى ان نعلم ان أبا حنيفة لم يؤلف فى مذهبـه كتبا ، ومع ذلك شاع هذا المذهب وذاع ، لأن تلاميذه ــ وفى طليعتهم أبو يوسف ، ومحمد كما ذكرنا ــ ألفوا الكتب فى المذهب ، ثم أفاد أبو يوسف ومحمد مذهب شيخهما بأمر آخر ، وهو دعمهما له بالأحاديث النبـوية ، وقد تيسر لهما هذا من اتصالهما أيضا بفقه أهل المدينة القائم على السنة ..

كما ان أبا يوسف أفاد مذهب شيخه كثيرا بتوليه القضـاء ، لأن القضاء بالمذهب يثبت احكامه ، ويشيع أقواله ، ويعطيه قوة ومكانة !

ولا نغمط حق من جاء بعد أبى يوسف ومحمد ، فقد كان هناك زفر ابن الهذيل الذى خدم مذهب شيخه كذلك ، وكان هناك أيضا أبوعبدالله محمد بن شجاع الثلجى المتوفى سنة ست وخمسين ومئتين ، وهو الذى قال عنه ابن النديم فى كتابه « الفهرست » انه « الذى فتق فقـه أبى حنيفة ، واحتج له ، وأظهر علله ، وقواه بالحديث وحلاه فى الصدور» !

اصول مذهب ابى حنيفة :

ان مذهب أبى حنيفة صورة حية واضحة لصلاحية الفقه الاسلامى لامداد المجتمع بما يحتاج اليه من أحكام تتعلق بنواحيه المختلفة ، لأن أبا حنيفة قد اعتمـد فى تكوين مذهبـه على القرآن الكريم ، والسنة النبوية ، والاجماع ، والقياس ، والاستحسان ، وبذلك فسح المجال أمامه لكى يجتهد ويستنبط ويقعـد للحياة ما تحتاج اليه أوضـاعها الكثيرة ، دون خروج على أصول الدين أو قواعد الشريعة

وكان يقول : « آخذ بكتاب الله تعالى ، فما لم أجد فبسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فما لم أجد فى كتاب الله تعالى ولا فى سـنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، أخذت بقول أصحابه : آخـذ بقول من شئت منهم ، وادع من شئت منهم ، ولا أخرج من قولهم الى قولغيرهم»

والجزء الأخير من كلمته هذه يدلنا على الخطوة الأولى فى طريقه نحو

الاجتهاد والرأى ، واعطاء الرأى حقه من المقارنة بين الأقوال ، واختيار بعضها دون البعض الآخر

ثم نراه يقول : « اذا جاءنا الحديث عن رســول الله صلى الله عليه وسلم أخذنا به ، واذا جاءنا عن الصحابة تخيرنا ، واذا جاءنا عن التابعين زاحمناهم »

وهــذه الكلمة تتضمن خطوة أخرى واســعة ، فهو يرى ان أقوال التابعين غير ملزمة له ، فاذا لم يجد نصا فى القرآن الكريم ، ولا أثرا ثابتا عن الرسول ، ولا قولا للصحابة ، رأى نفسه فى حل من أن ينافس التابعين فى آرائهم واجتهادهم ، فينظر كما نظروا ، ويجتهد كما اجتهدوا ، ويتلمس الحق جهده كما تلمسوه

ولذلك كان يذكر أسماء طائفة من التابعين ثم يقول عنهم انهم « قوم اجتهدوا فأجتهد كما اجتهدوا » . ويقول : « وما جاءنا عن التابعين فهم رجال ونحن رجال » ! ..

ومعنى هذا ان أبا حنيفة يخضع للقرآن والسنة ، ويقــارن بين آراء الصحابة ويختار منها ما يرتضيه ، وأما بالنسبة الى التابعين فهو يرى لنفسه الحق فى أن يوافقهم أو يخالفهم حسب اجتهاده ، لأنه نظيرهم ، له مثل رأيهم واجتهادهم ، فهو رجــل وهم رجــال ، ولذلك يحق له مزاحمتهم ومسابقتهم فى مجال البحث والرأى

واذا استعرضنا مذهب الامام أبى حنيفة باتجاهاته وتفريعاته ونظرياته وجدنا انه ينهض على طائفة من الأصول لاحظها ســابق ولاحق ، ومن هذه الأصول :

أولا : التيسير فى العبــادات والمعاملات ، فأبو حنيفة يرى مثلا انه اذا أصاب الجسم أو الثوب نجاسة جاز غسلها بكل مائع طاهر يزيلها ، كماء الورد والخل ، ولا يقصر التطهير على الماء وحده

وكذلك يقول : اذا كان الانسان فى ليلة مظلمة ، وأراد الصــلاة ، واشتبه عليه أمر تعيين « القبلة » ، وصلى الى غير « القبلة » بعد أن

تحرى جهده ، صحت صلاته ، ولو ظهر فيما بعد انه أخطأ فى الاجتهاد ..

وفى الزكاة يجيز أبو حنيفة اخراج القيمة بدل عين الزكاة ، وهو يرى انه لا يجتمع « العشر » و « الخراج » فى الأرض التى يملكها المسلم ، فاذا دفع المسلم عن هذه الأرض خراجا لم تجب عليه الزكاة ، واذا دفع فيها العشر باسم الزكاة لا يجب عليه الخراج

ويجيز أبو حنيفة فى المعاملات شراء الثمر قبـل أن ينضج ، اذا لم يشترط المشترى تركه فى شجره حتى ينضج ، وعليه ان يقطعه

هذه الأقوال ـ وأمثالها كثير ـ تشير الى أن أبا حنيفة كان يميل الى التيسير على الناس ، بينما يميل بعض الفقهاء الى التشديد

ثانيا : رعاية جانب الفقير والضعيف ، ومن أمثلة ذلك ان أبا حنيفة أوجب الزكاة فى الحلى من الذهب والفضة ، حتى يتجمع من وراء ذلك ما يكون فيه سعة للفقراء . ويرى أبو حنيفة ان المدين لا تجب عليه زكاة اذا كان الدين يستغرق ماله ، ولا شك أن فى هذا رفقا بالمدين

ثالثا : تصحيح تصرفات الانسان بقدر الامكان : فأبو حنيفة يحاول أن يجعل تصرف الانسان صحيحا مقبولا ، ما دام قد استقام واستوفى شروط التصرف الصحيح ، ومن أمثلة ذلك انه يقول ان اسلام الصبى العاقل الذى لم يبلغ الرشد يعتبر اسلاما صحيحا كاسلام الكبار

وكذلك يجيز أبو حنيفة للوصى على اليتيم أن يتجر فى مال هذا اليتيم الذى يقوم بالوصاية عليه

رابعا : رعاية حرمة الانسان وبشريته ، ولذلك لا يجعل أبو حنيفة لولى المرأة البالغة الرشيدة سلطانا عليها فى زواجها بمن تحب ، اذ لها الحق فى أن تباشر بنفسها عقـد زواجها ، ويكون صحيحا . ويرى ان الرجل اذا زوج ابنته البالغة ، ورفضت ذلك وكرهته ، لم يصح الزواج

كما يرى أبو حنيفة ان الشهادة فى عقد الزواج تجوز برجل وامرأتين ، ولا يشترط أن يكونا رجلين فقط

ويجيز أبو حنيفة شهادة بعض أهل الذمة على بعض

خامسا : رعاية سيادة الدولة ممثلة فى الامام ، ولذلك جعل أبوحنيفة من حق الامام « أى الحاكم الشرعى » أن يتصرف فيما يغنمه المسلمون من الأرض المفتوحة بما تقتضيه المصلحة

وجعل من حق الامام أن يحرض المجاهدين على القتال بأية وسيلة مجدية يراها ، كأن يجعل نصيبا معينا من المال لمن يفعل أمرا معينا فى المعركة ، يعاون به على نصر المؤمنين

وجعل من حق الامام تمليك الأرض الموات (البور) لمن يحييها ، أى يجعلها خصبة مثمرة

وجعل للامام الولاية على « اللقيط » ، كما جعل له استيفاء حق القصاص ..

وهذه القواعد جديرة بأن تجعل أبا حنيفة مستحقا لقب « امام أهل الرأى » ، ولا عجب ، فقد كان يجتهد كثيرا ، ويأخذ بالقياس فيما لا نص فيه ، وكان كما عرفنا تلميذ حماد والنخعى ، وقد كانا من أعلام فقهاء الرأى ..

وقد نفع أبا حنيفة فى هذا المجال انه لم يقتصر على التلقى عن أهل الرأى ، بل تعرف بجوار ذلك الى آراء مختلف الفقهاء ، كعطاء بن أبى رباح ، وعكرمة مولى ابن عباس ، ونافع مولى ابن عمر ، وزيد بن على ، وجعفر الصادق ..

ويضاف الى هذا ألمعيته فى استنباط الأحكام من الأحاديث ، ولقد نرى اناسا على عهده يحفظون الأحاديث ولا يفهمون منها الا ظواهرها ، ولكن أبا حنيفة يغوص فى أعماق معانيها ليلتقط منها ما ينفع الأمة ، ولا يتعارض مع نصّها ..

وقد روى ان الأعمش المحدث أملى على أبى حنيفة طائفة من الأحاديث فوعاها وتفهمها .. وبعد حين من الزمان ، كان أبو حنيفة فى مجلس الأعمش ، وجاء من سأل الأعمش عن طائفة من المسائل ، فلم يهتد الى الجواب فيها ، فالتفت نحو أبى حنيفة وقال له : ما تقول فيها ؟..

فسارع أبو حنيفة بذكر أجوبتها ، فقال الأعمش : من أين لك هذا ؟..

فقـال أبو حنيفة : من الأحاديث التى رويتها عنك .. ثم سرد عليه طائفة من الأحاديث بأسانيدها ..

فقال الأعمش له : حسبك ، ما حدثتك به فى مائة يوم ، تحدثنى به فى ساعة ؟... ما علمت انك تعمل بهذه الأحاديث ، يا معشر الفقهـاء ، أنتم الأطباء ، ونحن الصيادلة ! ..

أبو حنيفة والحديث :

أساء بعض الناس الظن بأبى حنيفة حينما رأوه يستخدم العقل والرأى والاجتهاد فى استنباط الحكم ، فادعوا عليه انه يترك العمـل بالحديث النبوى ، وسببت هذه الدعوى لأبى حنيفة بعض المتاعب ، ولذلك عنى بتفنيدها والرد عليها ، فنراه فى موطن يقول : « عجبا للناس ، يقولون انى افتى بالرأى ، ما أفتى الا بالأثر » ، والمراد بالأثر هنا هو ما جاء فى السنة ..

وأبو حنيفة يقصد بكلمته هذه انه متى صح الأثر عنده قبله وخضع له ، والا اجتهد برأيه

واذا كان أبو حنيفة قد أخذ بالقيـاس أو الاستحسان أو العرف ، فليس هذا مجوزا أن يتهمه البعض بأنه يقدم القياس على الحديث ، لأنه كان يخضع أولا ــ كما يصرح ــ للقرآن والحديث وأقوال الصحابة ، وهو الذى يقول : « كذب والله وافترى علينا من يقول اننا نقدم القياس على النص ، وهل يحتاج بعد النص الى قياس ؟ » . ويقول : « نحن لا نقيس الا عند الضرورة الشديدة ، فان لم نجد دليـلا قسنا حينئذ مسكوتا عنه على منطوق به » . ويقول : « انا نأخذ أولا بكتاب الله ، ثم بالسنة ، ثم بأقضية الصحابة ، ونعمل بما يتفقون عليه ، فان اختلفوا قسنا حكما على حكم ، بجامع العلة بين المسألتين ، حتى يتضح المعنى »

وأبو حنيفة يأخـذ بالأحاديث المتواترة ، والأحاديث المشـهورة ، وأحاديث الآحاد . وهو اذا لم يأخذ بحديث رواه شخص ، فانه لا يعد

نفسه طاعنا فى الحديث النبوى ، ولكنه يطعن فى ثبوت هذا الحديث عن النبى صلى الله عليه وسلم ، ويقرر أن الطعن فى الراوى أو فى الثبوت ، وليس رفضا لشىء جاء عن النبى ، لأنه متى ثبت ان الرسـول قد قال هذا القول ، أو فعل هذا الشىء ، فانه يكون على العين والرأس ، ولذلك نجد أبا حنيفة فى كتاب « العالم والمتعلم » يقول :

« فردى على كل رجل يحدث عن النبى صلى الله عليه وسلم بخلاف القرآن ، ليس ردا على النبى صلى الله عليه وسلم ، ولا تكذيبا له ، ولكنه رد على من يحدث عن النبى صلى الله عليه وسلم بالباطل ، والتهمة دخلت عليه ليس على نبى الله عليه السلام ، وكذلك كل شىء تكلم به نبى الله عليه الصلاة والسلام ، سمعناه أو لم نسمعه ، فعلى الرأس والعينين ، قد آمنا به ، ونشهد انه كما قال نبى الله

ونشهد أيضا على النبى صلى الله عليه وسلم انه لم يأمر بشىء نهى الله عنه ، ولم يقطع شيئا وصله الله ، ولا وصف أمرا وصف الله ذلك الأمر بغير ما وصف به النبى ، ونشـهد انه كان موافقا لله فى جميـع الأمور ، ولم يبتدع ، ولم يتقول على الله غير ما قال الله تعالى ، ولا كان من المتكلفين ، ولذلك قال الله تعالى : «من يطع الرسول فقد أطاع الله» !

وجاء تلاميذ أبى حنيفة فأكدوا نفى هذه التهمة عنه ، وأيدوا خضوعه للكتاب والسنة قبل كل شىء ، فهذا زفر يقول : « لا تلتفتوا الى كلام المخالفين ، فان أبا حنيفة وأصحابنا لم يقولوا فى مسألة الا من الكتاب والسنة والأقاويل الصحيحة ، ثم قاسوا عليها »

واذا كان أبو حنيفة يستخرج من الحديث ما لايستخرجه غيره ، فليس ذلك راجعـا الى افتراء أو ابتـداع ، وانما هو الفهم ، والتـأويل ، والاستنباط .. فيظن الظان الضعيف البصر أو النظر ان أبا حنيفة قد هجر السنة أو فارق الحديث ، والواقع انه ما زال حوله يدندن ، ولذلك قال أبو يوسف : « ما رأيت أحدا أعلم بتفسير الحديث ومواضع النكت التى فيه من الفقه من أبى حنيفة »

واذا كنا نرى كثرة للأحاديث فى كلام أبى حنيفة [١] ، فمرجع ذلك الى أنه كان يدقق فى قبول الأحاديث ، ويشترط شروطا لتحقق صحتها ، واذا قيل له حديث فى موضوع ، ولم تتوافر فيه شروط الصحة ، توقف وقال : « لم يصح فى هذا عندى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم شىء فأفتى به » ، فاذا أساء أحد فهم هذا وقال لأبى حنيفة : أتخالف النبى صلى الله عليه وسلم ؟.. سارع بالرد قائلا فى حزم وعزم : لعن الله من يخالف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، به أكرمنا الله ، وبه استنقذنا !»

ولعل هـذا المسلك هو الذى جعل ابن خلدون يقول فى مقدمته : « الامام أبو حنيفة انما قلت روايته لما شدد فى شروط الرواية والتحمل ، وضعف رواية الحديث اليقينى اذا عارضها الفعل النفسى ، وقلت من أجلها روايته فقل حديثه ، لا انه ترك رواية الحديث ، فحاشاه من ذلك ، ويدل على انه كان من كبار المجتهدين فى علم الحـديث اعتماد مذهبه عندهم ، والتعويل عليه »

وينبغى أن نلاحظ ان بعض النـاس فى عصر أبى حنيفة كذبوا على الرسول صلى الله عليه وسلم ، ونسبوا اليه أحاديث غير صحيحة ، وكان هذا نتيجة لظهور الفرق والفتن ، وكان العراق موئلا للشيعة والخوارج وغيرهما ، وقد صلح هذا الجو أكثر من غيره لوضع الأحاديث ، بل بالغ البعض فقال عن العراق انه « دار ضرب الحديث » ! ..

وكان أبو حنيفة يترك الحديث من الأحاديث لأنه يجد حديثا أقوى منه وأصح ، وكان لا يأخذ برواية راو متروك أو متهم بوضع الحديث ، وكان يفسر نص الحديث أحيانا بتفسير غير التفسير الذى يراه غيره ، كما فى حـديث « البيعان بالخيار ما لم يتفرقا » . فالفقهـاء يفسرون « التفرق » هنا بتفرق المجلس ، وأبو حنيفة يفسره بتفرق القول ، فيرى

(١) زعم نامدو أبي حنيفة انه لم يرو سوى سبعة عشر حديثا ، وهذا غير صحيح لانه انفرد برواية مائتين وخمسة عشر حديـثا ، فـوق ما اشترك فى اخراجه من الاحاديث مع الائمة ، ولأبى حنيفة كتاب من المسانيد «كنز الاحاديث» طبع فى مصر سنة ١٣٢٦ هـ فى ثمانمائة صفحة، ولكنى أقول ان أبا حنيفة كان يستطيع أن يبلغ فى الحديث فوق ما بلغ . ولو أن أبا حنيفـة الفقيه الثاقب النظر ، توافر عنده ما توافر عند الحفاظ من أحاديث وآثار لتضاعف نفعه للفقه الاسلامى

أن البيع يتم بالايجاب والقبول ولو لم يتفرق الطرفان من المجلس ! ..

ومع سعة العلم عند أبي حنيفة ، ودقة الفهم منه ، كان يتواضع للعلم ، ولا يغتر برأيه ، ولا يحمل الناس عليه ، بل يقول : « قولنا هذا رأى ، وهو أحسن ما قدرنا عليه ، فمن جاء بأحسن من قولنا فهو أولى بالصواب منا » ..

وهو يعنيه الوصول الى الحق أولا وقبل كل شيء ، ومن أى طريق كان ، وليس لديه شغف بالمجادلة أو المماراة ، ولذلك نهى ابنه حمادا عن الجدل والمناظرة فى علم الكلام والعقائد ، فقال له ابنه : رأيناك تناظر فيه وتنهانا عنه ؟ ! ..

فأجاب أبو حنيفة : كنا نناظر وكأن على رؤوسنا الطير مخافة أن يزل صاحبنا (أى مناظرنا) ، وأنتم تناظرون وتريدون زلة صاحبكم ، ومن أراد أن يزل صاحبه فقد أراد أن يكفر صاحبه ، ومن أراد أن يكفر صاحبه فقد كفر قبل أن يكفر صاحبه !

ومع هذا فقد كان أبو حنيفة يغلظ فى القول ، أو يقسو فى الرد أحيانا على مناظريه أو مجادليه ، ولست أدرى لماذا أثارتنى محاورة أبى حنيفة مع « جهم بن صفوان » حول الايمان : أيكون اعتقادا بالجنان ، أم لابد معه من الاقرار باللسان ؟ ..

وليس معنى هذا اننى أخفف الحكم على « جهم بن صفوان » ، فقد يستحق قسوة الحكم عليه بسبب آرائه وانحرافه ، ولكنى أرى أن أبا حنيفة كان يستطيع تجنب بعض العبارات الشديدة ، ويبلغ ما يريد بغير هذا الأسلوب

ولنستعرض هذه المحاورة ، فقد ذهب « جهم بن صفوان » الى أبى حنيفة وقال له : يا أبا حنيفة ، أتيتك لأكلمك فى أشياء هيأتها لك :

فأجابه أبو حنيفة : الكلام معك عار ، والخوض فيما أنت فيه نار تتلظى ! ..

قال جهم : فكيف حكمت عليَّ بما حكمت ، ولم تسمع كلامى ولم تلقنى؟ ..

أجاب أبو حنيفة : بلغنى عنك أقاويل لا يقولها أهل الصلاة ..

قال جهم : أفتحكم عليَّ بالغيب ؟ ..

أجاب أبو حنيفة : اشتهر عنك ذلك ، وظهر عند العامة والخاصة ، فجاز لى أن أحقق ذلك عليك ..

قال جهم : لا أسألك عن شىء الا عن الايمان ..

قال أبو حنيفة : أو لم تعرف الايمان الى الساعة حتى تسألنى عنه ؟

قال جهم : بلى ، ولكن شككت فى نوع منه ..

قال أبو حنيفة : الشك فى الايمان كفر ..

فردَّ جهم : لا يحل لك الا أن تبين لى من أى وجه يلحقنى الكفر ..

قال أبو حنيفة : سل ..

فسأله جهم : أخبرنى عمن عرف الله بقلبه ، وعرف أنه واحد لا شريك له ولا ند ، وعرفه بصفاته ، وأنه ليس كمثله شىء ، ثم مات قبل أن يتكلم بلسانه : أمؤمنا مات أم كافرا ؟ ..

وأجاب أبو حنيفة بقوله : كافر من أهل النار ، حتى يتكلم بلسانه مع ما عرفه بقلبه (١)

فسأله جهم : وكيف لا يكون مؤمنا وقد عرف الله بصفاته ؟ ..

ورد أبو حنيفة : ان كنت تؤمن بالقرآن ، وتجعله حجة ، كلمتك به .. وان كنت لا تؤمن به ولا تجعله حجتك كلمتك بما نكلم به من خالف ملة الاسلام ..

قال جهم : أومن بالقرآن وأجعله حجة ..

قال أبو حنيفة : قد جعل الله تبارك وتعالى الايمان فى كتابه

---

(١) قال الموفق المكى فى توضيح ذلك : « تأويل قول أبى حنيفة : اذا اتهم « الشخص » بعدم الاقرار ولم يقر فانه يموت كافرا ، فأما اذا لم تكن هناك تهمة بأن كان فى جزيرة من البحر أو فى مغارة من الارض فانه لا يكون كافرا » وهذا تأويل حسن . وقد ورد عن أبى حنيفة قوله : أن المؤمن بقلبه الذى لم ينطق بلسانه يكون مؤمنا عند الله وان لم يكن مؤمنا عند الناس ، فكيف قال هنا ما قال ؟

بجارحتين : بالقلب واللسان ، فقال تبـارك وتعالى : « واذا سمعوا ما أنزل الى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق ، يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين ، وما لنا لا تؤمن بالله وما جاءنا من الحق ، ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين ، فأثابهم الله بما قالوا جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، وذلك جزاء المحسنين»

فأوصلهم الى الجنة بالمعرفة والقول ، وجعلهم مؤمنين بالجارحتين : بالقلب واللسان ..

وقال تعالى : «قولوا آمنا بالله ، وما أنزل الينا ، وما أنزل الى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط ، وما أوتى موسى وعيسى ، وما أوتى النبيون من ربهم ، لا نفرق بين أحد منهم ، ونحن له مسلمون ، فان آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا » ..

وقال تعالى : « وألزمهم كلمة التقوى » ..

وقال تعالى : « وهدوا الى الطيب من القول » ..

وقال تعالى : « اليه يصعد الكلم الطيب » ..

وقال تعالى : « يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة » ..

وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « قولوا : لا اله الا الله تفلحوا » .. فلم يجعل الفلاح بالمعرفة دون القول ..

وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « يخرج من النار من قال : لا اله الا الله ، وكان فى قلبه كذا .. ! » ولم يقل : يخرج من النار من عرف الله وكان فى قلبه كذا ..

ولو كان القول لا يحتاج اليه ، ويكتفى بالمعرفة ، لكان من رد الله بلسانه وأنكره بلسانه اذا عرفه بقلبه مؤمنا ، ولكان ابليس مؤمنا لأنه عارف بربه ، يعرف أنه خالقه ومميته وباعثه ومغويه : « قال رب بما أغويتنى » وقال : « أنظرنى الى يوم يبعثون » وقال : « خلقتنى من نار وخلقته من طين » ..

ولكان الكفار مؤمنين بمعرفتهم ربهم ، اذا أنكروا بلسانهم . قال الله تعالى : « وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم » فلم يجعلهم مع استيقانهم بأن الله واحد مؤمنين مع جحدهم بلسانهم ..

وقال عز وجل : « يعرفون نعمة الله ، ثم ينكرونها ، وأكثرهم الكافرون »

وقال تعالى : « قل من يرزقكم من السماء والأرض ، أمّن يملك السمع والأبصار ، ومن يخرج الحى من الميت ، ويخرج الميت من الحى ، ومن يدبر الأمر ، فسيقولون الله ، فقل : أفلا تتقون ؟.. فذلكم الله ربكم الحق » .. فلم تنفعهم معرفتهم مع انكارهم ..

وقال تعالى : « يعرفونه كما يعرفون أبناءهم » .. فلم تنفعهم المعرفة مع كتمانهم أمره وجحودهم به ! ..

وهنا قال « جهم » لأبى حنيفة : قد أوقعت فى خلدى شيئا ، فسأرجع اليك ! ..

***

أرأيت كيف تدفق أبو حنيفة فى استدلاله ؟ .. أرأيت كيف ساق الآيات الكريمة تباعا لتأييد رأيه ؟ .. أرأيت كيف ثنى بعد الآيات بالأحاديث الشريفة ليزيد رأيه تأييدا وتوطيدا ؟ ..

ان هذه المحاورة تدل على باع طويل للامام فى العلم والمناظرة ، ولقد تمنيت لو خلت هذه المحاورة من بعض العبارات الشديدة كما ذكرت !

وليت أبا حنيفة واجه « جهما » بما رواه ابن عبد البر منسوبا الى أبى حنيفة وهو قوله فى تقسيم الايمان : « الايمان هو المعرفة والتصديق والاقرار بالاسلام ، والناس فى التصديق على ثلاثة منازل : فمنهم من صدق الله وما جاء منه بقلبه ولسانه ، ومنهم من صدق بلسانه وهو يكذب بقلبه ، ومنهم من يصدق بقلبه ويكذب بلسانه ..

فأما من صدق الله عز وجل وما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم بقلبه ولسانه فهو عند الله وعند الناس مؤمن ، ومن صدق بلسانه وكذب

بقلبه كان عند الله كافرا وعند الناس مؤمنا ، لأن الناس لا يعلمون ما فى قلبه ، وعليهم أن يسموه مؤمنا بما أظهر لهم من الاقرار بهذه الشهادة ، وليس لهم أن يتكلفوا علم القلوب . ومنهم من يكون عند الله مؤمنا ، وعند الناس كافرا ، وذلك ان يكون المؤمن يظهر الكفر بلسانه فى حال التقية (الخوف) ، فيسميه من لا يعرفه كافرا ، وهو عند الله مؤمن » !

لو أن أبا حنيفة واجه « جهما » بهذا الكلام لما رأى نفسه مضطرا الى أن يسمع « جهما » فى محاورته كلمات : العار ، والنار التى تتلظى ، وكافر من أهل النار .. الخ ..

ولكن لعل أبا حنيفة أراد أن يقسو على « جهم » ليردعه عما كان عليه ! ..

مكانة مذهب أبى حنيفة :

غالى بعض الناس فى تقدير مذهب أبى حنيفة ، فقالوا انه كان جديدا كله ، فريدا فى بابه ، لم يسبق بمثله ..

وغالى بعض آخر فى التهوين من شأن هـذا المذهب ، فقالوا : ان أبا حنيفة لم يبلغ درجة الاجتهاد ، وانما كان مقلدا متبعا غيره ..

والانصـاف هو ان أبا حنيفة جاء فوجـد فى العراق فقها ناشئا ، فأنضجه وزاد فيه ، واذا كان قد استفاد من شيوخه ما استفاد ، فهو قد أضاف الى الفقه وأفاد ، واذا كان قد تابع غيره فى بعض خطواته ، فهو قد عاد فاستقلت شخصيته ، وتميزت جهوده ، وبلغ مرتبة الاجتهاد والامامة فى الفقه بلا مراء ..

ولقد أنكر أحد المستشرقين ــ وهو جوينبل الانجليزى ــ أن يكون لأبى حنيفة أصول فقهية مبتكرة ، أو مذهب أسسه واعتمـد فيه على القياس ، أو طريقة متميزة فى استنباط الأحكام الشرعية ..

وكان هذا غلوا وجدنا بجواره أقوالا لمستشرقين آخرين ، مثـل : ادوارد سخاو ، وجولد تسيهر ، يقررون ان أبا حنيفـة هو امام أهل الرأى ، وانه وضع نظما فقهية كاملة ، وظهر فى عهده عرض منهجى للفقه

الاسلامى المبنى على أساس القياس ..

ومما جعل لمذهب أبى حنيفة مكانة ملحوظة انه كان موصول الأسباب بالحياة والمجتمع ، وقد هيأت التجارة التى احترفها الامام خبرة واسعة عنده بالحياة والمعاملات ، كما انه كان كثير الرحلة ، والرحلة مدرسة واسعة متنقلة ، وقد حج أبو حنيفة مثلا ـ فيما قيل ـ خمسا وخمسين مرة ، وفوق هذا كان عنده ميل فطرى الى المباحثة والمحاورة ، والحقيقة بنت البحث ، وذهب الرأى لا يصفو الا بعرضه على نار المراجعة بين الباحثين والمفكرين

ولم يكتف أبو حنيفة فى فقهه بالأمور التى وقعت أو تقع ، ولا بالأمور الكثيرة التى يستفتيه الناس فيها ، وانما اشتغل الى جوار هذا بالفقه التقديرى ، وهو فقه المسائل التى لم تقع بعد ، ولكن يتصور العقل وقوعها ، أو يظن الانسان حدوثها فى المستقبل

ولذلك كان أبو حنيفة يكثر من فرض الفروض وتقدير الوقائع وتصور الحوادث ، ثم يستنبط لها الأحكام ، ويسوغ عمله هذا بقوله : « انا نستعد للبلاء قبل نزوله ، فاذا ما وقع عرفنا الدخول فيه والخروج منه » ..

واذا كان بعض السابقين لأبى حنيفة قد تعرض لبعض الفروض أو التقديرات فى مجال الفقه ، فان أبا حنيفة قد توسع فى ذلك وزاد ، ولا شك ان التعرض لأحكام الوقائع الفرضية أو التقديرية قد أضاف ثروة ضخمة الى التراث الفقهى الاسلامى

وقد يتصل بالتوسع فى المذهب موضوع « فن الحيل » . والمقصود به هو محاولة التوفيق بين واقع الحياة ونصوص الدين ، وقد ظهر هذا الفن عند فقهاء الكوفة ، وفى مدرسة أبى حنيفة

وقد قيل ان السبب فى ظهور هذا الفن هو اتصال بعض الفقهاء بالخلفاء والسلاطين ، ورغبة هؤلاء الخلفاء والسلاطين فى انتزاع موافقة الفقهاء على أوضاع الحياة القائمة حينئذ . ويقال ان أول من أنشأ هذا

الفن هو أبو يوسف صاحب أبى حنيفة ، والذى تولى القضاء لهارون الرشيد ..

والحيل قد تكون طرقا ملتوية للوصول الى ما هو محرم ، وقد تكون مشروعة مؤدية الى أمر مشروع ، وقد تكون وسيلة للتوصل الى الحق أو دفع الظلم بطرق مباحة لم توضع فى الأصل للتوصل الى ذلك

واذا كان هناك شيء من هذه الحيل فى مذهب أبى حنيفة فهو من النوع الأخير ، والراجح عند الباحثين ان أبا حنيفة لم يضع كتابا فى هذا الفن ، وانما الذى كتب فيه كتابا هو تلميذه محمد بن الحسن ، وبعض الباحثين يشك فى نسبة هذا الكتاب الى محمد ، ويقول انه من عمل الوراقين ..

ومهما يكن من أمر فان دخول باب الحيل مزلق خطير ، ان سلم فيه الانسان مرة ، فهو لا يأمن السلامة منه مرة أخرى

ميول أبى حنيفة السياسية :

عاش أبو حنيفة فى عهد الأمويين ، وفى عهد العباسيين ، ولكن هواه كان مع العلويين ، وكان غير راض عن حكم الأمويين ، وكان يستجيز الخروج عليهم ، ولكنه لم يشارك فى هذا الخروج لبعض ظروفه الخاصة ، وكان يرى أن خروج زيد بن على بن زين العابدين على هشام بن عبد الملك سنة احدى وعشرين ومئة خروج شرعى ينبغى أن يعان فيه ، وكان لزيد هذا مكانة عالية فى نفس أبى حنيفة ، كما كان لأبى حنيفة صلة بجعفر الصادق ومحمد الباقر وغيرهما من العلويين . ولقد حدث فى عهد الأمويين أن يزيد بن عمر بن هبيرة كان عاملا على العراق من قبل مروان فى عهد الدولة الأموية ، وطلب من أبى حنيفة أن يلى له قضاء الكوفة ، فرفض أبو حنيفة لما قد علمنا ، فضربه يزيد مئة وعشرة أسواط ، فى كل يوم عشرة أسواط ، ولم يرجع أبو حنيفة عن رفضه برغم ذلك ، فخلى يزيد سبيله بعد حين ! ..

ويروى أن يزيد فى هذه الواقعة لم يطلب من أبى حنيفة تولى القضاء ،

وانما طلب منه أن يتولى بيت المال فأبى ! ..

ولما خلوا سبيله بعد تعذيبه لم يأمن على نفسه منهم ، ففر هاربا الى مكة ، وعكف بجوار الكعبة يدرس الحديث والفقه ، والتقى بتلاميذه هناك ، ومكث فى مكة قرابة ست سنوات

ولقد أحس أبو جعفر المنصور ــ الخليفة العباسى الأول ــ أن هوى أبى حنيفة ليس معه ، فجعل يستدرجه ليستخرج خبيئة نفسه ، وليصرح عن ذات قلبه ، وكان أبو حنيفة ينفث عن حقيقة رأيه من حين لحين ، بالتعليق خلال دروسه أحيانا ، وبنقده أعمال القضاء أحيانا ، وبرفضه العمل للدولة أحيانا أخرى ، وأوغر هذا كله صدر المنصور ، فتربص لأبى حنيفة وأوقع به بعد أن أحضره من الكوفة الى بغداد ! ..

ولـــكن ، كيف أوقع به ؟.. طلب أبو جعفر من أبى حنيفة أن يلى القضاء فرفض ، فحلف عليه المنصور أن يفعل ، فحلف أبو حنيفة ألا يفعل ! ..

وكان « الربيع » حاجب المنصور حاضرا فقال لأبى حنيفة : ألا ترى أمير المؤمنين يحلف وتحلف ؟ .. فرد أبو حنيفة بقوله : أمير المؤمنين على كفارة أيمانه أقدر منى على كفارة أيمانى ! ..

وأصر أبو حنيفة على الرفض ، فحبسه المنصور الى حين ..

ثم دعاه بعد ذلك وعرض عليه القضاء مرة أخرى ، فقال له أبوحنيفة : أنا لا أصلح للقضاء . فقال له المنصور : كذبت ! .. فتعلق أبو حنيفة بهذه الكلمة وقال : قد حكم علىّ أمير المؤمنين انى لا أصلح للقضاء ، لأنه ينسبنى الى الكذب ، فان كنت كاذبا فلا أصــلح (لأن الكاذب لا يصلح لأن يكون قاضيا وان كنت صادقا فقد أخبرت أمير المؤمنين أنى لا أصلح ! ..

ومع أن هذا الجواب كان مفحما أعاده المنصــــور الى الحبس ، ثم أخرجه من الحبس مرات وتوعده ، وهو يقول للخليفة : يا منصور ، اتق الله ، ولا تول الا من يخاف الله تعالى ، والله ما أنا مأمون فى الرضا ،

فكيف أكون مأمونا فى الغضب ؟ ..

ويروى أنه توفى وهو فى السجن ، ويقال انه تولى القضاء يومين أو ثلاثة ، ثم مرض ستة أيام ، ثم مات ! ..

وكان يرى ان الخلافة لا تورث ، ولا تكون وصاية ، ولا تفرض على الناس ، وانما تتم بالمبايعة الحرة ، ولذلك كان يقول : « الخلافة تكون باجتماع المؤمنين ومشورتهم »

بعض وصايا ابى حنيفة :

لأبى حنيفة طائفة من الوصايا المهمة التى تدل على البصر بالحياة ، والخبرة بالناس ، والاطلاع على دقائق المجتمع ، وهى تضع أمامنا صورا نواطق بطرق التوجيه والارشاد بين الأساتذة والتلاميذ فى عهد أبى حنيفة ، كما تعرض أمامنـــا كثيرا من الأمور التى كانت مدار الحديث فى ذلك التوجيه .. ونختار من هذه الوصايا اثنتين :

الوصية الاولى :

هى وصيته الى أكبر تلاميذه وأصحابه أبى يوسف يعقوب بن ابراهيم القاضى ، وهى وصية نادرة من حقها أن توضع بين أيدى الناس ، وقد صور فيها أبو حنيفة لتلميذه دستورا عجيبا فى معاملة السلطان ومعاملة الناس ، وأرشده الى طرق النجاح والتوفيق فى التعليم والارشاد ، وهو فيها يدله على مكارم الأخلاق ومحامد الشيم ، ويحذره اقتراف السيئات والاقتراب من القبائح ، كما يحذره أمورا قد تجوز لعامة الناس ولا تجوز لمثله ، وسنلاحظ ان الوصية قد جاء فيها ذكر لطائفة من العادات والتقاليد والأخلاق التى يراها أبو حنيفة جديرة بمثل أبى يوسف الذى وجه نفسه ليكون فقيها ومفقها ومفتيا وقاضيا ، وقد يكون منا من يرى فى بعض هذه الأمور حرجا أو تضييقا ، ولكن هكذا أراد أبو حنيفة لتلميذه الأكبر : أن يكون بعيدا عن كل شبهة ، متمسكا بكل ما يبعده عن الريبة ، وأن يأخذ بالقاعدة التى تقول : « حسنات الأبرار سيئات المقربين » ..

وقد تكون فى الوصية أمور لا يميل اليها بعضنا اليوم ، أو لايوافق عليها أبا حنيفة .. فليذكر ذلك البعض تفاوت الزمان ، واختلاف المكان والسكان ، وتغير المجتمعات والمعاملات ..

ومن العجيب ان أبا حنيفة قد حدث تلميذه فى وصيته عن كل شيء : حدثه عن آداب التكلم ، والاستماع ، والمناقشة ، والمشى ، والجلوس ، والالتفات ، والعبادة ، وطلب العلم ، والتدريس ، والمناظرة ، ووعظ الناس ، واللباس ، ودخول الحمام ... الخ ! ..

يقول أبو حنيفة لتلميذه فى هذه الوصية :

« يا يعقوب ..

وقر السلطان وعظم منزلته ، واياك والكذب بين يديه ، ولا تدخل عليه فى كل وقت وفى كل حال ، ما لم يدعك لحاجة علمية ، فانك ان أكثرت الاختلاف اليه تهاون واستخف بك ، وصغرت منزلتك فى عينه ، فكن منه كما أنت من النار ، تنتفع بها وتتباعد عنها ، ولا تدن منها ، فانك تحترق وتتأذى منها ، فان السلطان لايرى لأحد ما يرى لنفسه ..

واياك وكثرة الكلام بين يديه ، فانه يأخذ عليك ما تفوه به ليرى من نفسه بين يدى حاشيته أنه أعلم منك ، وأنه يخطئك ، فتصغر بذلك فى أعين قومه ..

ولتكن اذا دخلت عليه تعرف قدرك وقدر غيرك ، ولا تدخل عليه وعنده من أهل العلم من لا تعرفه ، فانك ان كنت أدون حالا منه لعلك تترفع عليه فيضرك ، وان كنت أعلم منه لعلك تنحط عنه فتسقط بذلك من عين السلطان ..

واذا عرض عليك شيئا من أعماله فلا تقبل منه الا بعد أن تعلم أنه يرضاك ويرضى مذهبك فى العلم والقضايا ، كى لا تحتاج الى ارتكاب مذهب غيرك فى الحكومات (١) ..

ولا تواصل أولياء السلطان وحاشيته ، بل تقرب اليه فقط ، وتباعد

---

(١) أى فى أحكام القضايا

عن حاشيته ليكون محلك وجاهك باقيا ..

ولا تتكلم بين يدى العامة الا بما تسأل عنه ، واياك والكلام فى المعاملة والتجارة الا بما يرجع الى العلم ، كى لايوقف منك على رغبة فى المال ، فانهم يسيئون الظن بك ، ويعتقدون ميلك الى أخذ الرشوة منهم ، وبسط اليد اليها ..

ولا تضحك ولا تتبسم فيما بين العامة ، ولاتكثر الخروج الى الأسواق ، ولا تكلم الصبيان المراهقين فانهم فتنة ، ولا بأس أن تكلم الأطفال وتمسح رؤوسهم ، ولا تمش فى قارعة الطريق مع المشايخ من العامة فانك ان قدمتهم أزرى ذلك بعلمك ، وان أخرتهم ازدرى بك من حيث أنهم أسن منك ، فان النبى صلى الله عليه وسلم قال : « من لم يوقر كبيرنا ، ولم يرحم صغيرنا ، فليس منا » ..

ولا تقعد على قوارع الطريق ، واذا دعاك ذلك فاقعد فى المسجد ، ولا تقعد فى الحوانيت ، ولا تأكل فى الأسواق والمساجد ، ولا تشرب من السقايات ومن أيدى السقايين ، ولا تلبس الديباج والحلى وأنواع الابريسم (١) ، فان ذلك يفضى الى الرعونة ..

ولا تكثر الكلام فى بيتك مع أهلك فى الفراش ، الا فى وقت حاجتك اليها بقدر ذلك ، ولا تكثر لمسها ومسها ، ولا تتقرب بها (٢) الا أن تذكر الله تعالى وتستخير فيه ، ولا تتكلم بأمر نساء الغير بين يديها ولا بأمر الجوارى ، فانها تنبسط اليك فى كلامك ، ولعلك اذا تكلمت عن غيرها تكلمت عن الرجال الأجانب ..

ولا تتزوج امرأة كان لها بعل أو أب أو أم أو بنت ان قدرت ، الا بشرط ان لا يدخل عليها احد من اقاربها ، فان المرأة اذا كانت ذات مال يدعى أبوها أن جميع مالها له ، وأنه عارية فى يدها ، ولا تدخل بيت أبويها ما قدرت ..

واياك أن ترضى أن تزف فى بيتهم ، فانهم يأخذون أموالك ، ويطمعون

---

(١) الديباج والابريسم : الحرير
(٢) كأنه يقصد المعاشرة الزوجية بين الزوجين

فيك غاية الطمع ، واياك أن تتزوج بذات البنين والبنات ، فانها تدخر جميع المال لهم ، وتسرق من مالك وتنفق عليهم ، فان الولد أعز عليها منك ، ولا تجمع بين امرأتين فى دار واحدة ..

ولا تتزوج الا بعد أن تعلم أنك تقدر على القيام بجميع حوائجها ، واطلب العلم أولا ، ثم اجمع المال من الحلال ، ثم تزوج ، فانك اذا اشتغلت بطلب المال فى وقت التعلم عجزت عن طلب العلم ، ودعاك المال الى شراء الجوارى والغلمان (١) وتشتغل بالدنيا ، واياك أن تشتغل بالنساء قبل تحصيل العلم ، فيضيع وقتك ، ويجتمع عليك الولد ، ويكثر عيالك فتحتاج الى القيام بحوائجهم وتترك العلم ..

واشتغل بالعلم فى عنفوان شبابك ، ووقت فراغ قلبك وخاطرك ، ثم اشتغل بالمال ليجتمع عندك ، فان كثرة الولد والعيال تشوش البال ، فان جمعت المال فاشتغل بالتزوج ..

وعليك بتقوى الله وأداء الأمانة ، والنصيحة لجميع الخاصة والعامة ، ولا تستخف بالناس ، ووقرهم ، ولا تكثر معاشرتهم الا بعد أن يعاشروك ، وقابل معاشرتهم بذكر المسائل (٢) ، فانه ان كان من تعاشره من أهله اشتغل بالعلم ، وان لم يكن من أهله اجتنبك ..

واياك أن تكلم العامة فى أصول الدين والكلام ، فانهم قوم يقلدونك فيشتغلون بذلك . ومن جاءك يستفتيك فى المسائل فلا تجب الا عن سؤاله ، ولا تضم اليه غيره ، فانه يتشوش عليه جواب سؤاله ..

وان بقيت عشر سنين بلا كسب ولا قوت فلا تعرض عن العلم ، فانك اذا أعرضت عنه كانت معيشتك ضنكا على ما قال الله تعالى : « ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا » ..

وأقبل على متفقهتك (٣) كأنك اتخذت كل واحد منهم ابنا وولدا ، لتزيدهم رغبة فى العلم ، ومن ناقشك من العامة والسوقة فلا تناقشه ،

---

(١) يقصد الاماء والعبيد
(٢) أى حاول شغلهم بذكر المسائل العلمية
(٣) يقصد التلاميذ الذين يتفقهون على يديه

فانه يذهب ماء وجهك ، ولا تحتشم أحدا عند ذكر الحق وان كان سلطانا

ولا ترض لنفسك من العبادات الا بأكثر مما يفعله غيرك ويتعاطاها ، فان العامة اذا لم يروا منك الاقبال عليها بأكثر مما يفعلونها اعتقدوا فيك السوء وقلة الرغبة فيها ، واعتقدوا أن علمك لاينفعك الا ما نفعهم الجهل الذى هم فيه ..

واذا دخلت بلدة فيها أهل العلم فلا تتخذها لنفسك ، بل كن كواحد من أهلها ، ليعلموا أنك لاتقصد جاههم ، والا يخرجون عليك بأجمعهم ، ويطعنون فى مذهبك ، والعامة يخرجون عليك وينظرون اليك بأعينهم ، فتصير مطعونا عندهم بلا فائدة ..

ولا تفت ان استفتوك فى المسائل، ولا تناقشهم فى المناظرات والمطارحات ولا تذكر لهم شيئا الا عن دليل واضح (١) ولا تطعن فى أساتذتهم فانهم يطعنون فيك ، وكن من الناس على حذر ..

وكن لله تعالى فى سرك كما أنت له فى علانيتك ، ولا يصلح أمر العالم الا بأن يجعل سره كعلانيته ..

واذا ولاك السلطان عملا مما يصلح لك فلا تقبل ذلك منه الا بعد أن تعلم انك لو لم تقبل قبله غيرك ، ويتضرر به الناس ، وبعد أن تعلم انه انما يوليك ذلك لعلمك ..

واياك أن تتكلم فى مجلس النظر (٢) على خوف أو وجل ، فان ذلك يورث الخلل فى الألفاظ ، واللكن فى اللسان ..

واياك أن تكثر الضحك فانه يميت القلب ، ولا تكثر محادثة النساء ومجالستهن فانه يميت القلب أيضا .. ولا تمش الا على الطمأنينة والسكون ، ولا تكن عجولا فى الأمور ، ومن دعاك من خلفك فلا تجبه ، فان البهائم تنادى من خلف ! ..

واذا تكلمت فلا تكثر صياحك ولا ترفع صوتك ، واتخذ لنفسك

---

(١) يقصد انه يجب عليه ألا يفتى ولا يناقش ولا يناظر ولا يطارح ولا يذكر شيئا الا ومعه الدليل الواضح

(٢) يقصد البحث والمناظرة

السكون وقلة الحركة عادة ، كى يتحقق عند الناس ثباتك ..

وأكثر ذكر الله تعالى فيما بين النـاس ليتعلموا ذلك منك ، واتخذ لنفسـك وردا خلف الصـلوات تقرأ فيه القرآن ، وتذكر الله تعالى ، وتشكره على ما أودعك من الصبر وما أولاك من النعم ، واتخذ لنفسك أياما معدودة من كل شهر تصوم فيها ، ليقتدى غيرك بك فى ذلك ، ولا ترض لنفسك من العبادات بما ترضى به العامة ..

***

وراقب نفسك ، وحافظ على العلم لتنتفع فى دنياك وأخراك بعلمك ، ولا تشتر بنفسك ولا تبع ، بل اتخذ لك غلاما مصلحا يقوم بأشغالك ، وتعتمد عليه فى أمورك ..

ولا تطمئن الى دنيـاك والى ما أنت فيه ، فان الله تعالى سائلك عن جميع ذلك . ولا تشتر الغلمان المرد ، ولا تظهر من نفسك التقرب الى السـلاطين وان قربوك ، فانهم يرفعون اليك الحوائج ، فان قمت بها أهانوك ، وان لم تقم بها عابوك ..

ولا تتبع الناس فى خطاياهم ، بل اتبعهم فى صـوابهم ، واذا عرفت انسانا بالشر فلا تذكره به ، بل اطلب له خيرا فاذكره به ، الا فى باب الدين ، فانك ان عرفت فى دينـه ذلك فاذكره للنـاس كى لا يتبعوه وليحذروه ، قال عليه الصلاة والسلام : « اذكروا الفاجر بما فيه حتى يحذره الناس » .. وان كان ذا جاه ومنزلة الذى ترى منه الخلل فى الدين فاذكر ذلك ولا تبال من جاهه ، فان الله تعالى معينك وناصرك وناصر الدين ، فاذا فعلت ذلك مرة هابوك ، ولم يتجاسر أحد على اظهار البدعة فى الدين ..

واذا رأيت من سلطانك ما لايوافق العلم فاذكر ذلك مع طاعتك اياه ، فان يده أقوى من يدك ، تقول له : أنا مطيع لك فى الذى أنت مسلطن فيه علىّ ، غير أنى أذكر من سيرتك ما لايوافق العلم ..

فاذا فعلت ذلك مع السلطان مرة كفاك ، لأنك اذا واظبت عليه ودمت

لعلهم يقمعونك فيكون فى ذلك قمع الدين ، وافعل ذلك مرة أو مرتين ليعرف منك الجد فى الدين ، والحرص فى الأمر بالمعروف ، فاذا فعل ذلك مرة أخرى فادخل عليه وحدك فى داره ، وانصحه فى الدين ، وناظره ان كان مبتدعا ، وان كان سلطانا فاذكر له ما يحضرك من كتاب الله تعالى وسنّة رسول الله عليه الصلاة والسلام ، فان قبل ذلك منك ، والا فاسأل الله تعالى أن يحفظك منه ..

واذكر الموت ، واستغفر لأساتذتك ومن أخذت عنهم العلم ، وداوم على تلاوة القرآن ، وأكثر من زيارة القبور والمشايخ والأماكن المباركة ..

واقبل من العامة ما يعرضون عليك من رؤياهم فى النبى صلى الله عليه وسلم وفى رؤيا الصالحين فى المساجد والمنازل المباركة والمقابر ..

ولا تجالس أحدا من أهل الأهواء الا على سبيل الدعوة الى الدين والصراط المستقيم ، ولا تكثر اللعن والشتم ..

واذا أذن المؤذن فتأهب لدخول المسجد كى لايتقدم عليك العامة ، ولا تتخذ دارك فى جوار السلطان ، وما رأيت على جارك فاستره عليه ، فانه أمانة عندك ، ولا تظهر أسرار الناس ، ومن استشارك فى شيء فأشر عليه بما تعلم انه يقربك الى الله تعالى ..

واقبل وصيتى هذه ، فانك تنتفع بها فى أولاك وأخراك ان شاء الله تعالى ..

واياك والبخل فانه يفتضح به المرء ، ولا تك طماعا ولا كذابا ولا صاحب تخاليط ، بل احفظ مروءتك فى الأمور كلها ..

والبس من الثياب البيض فى الأحوال كلها ..

وكن غنى القلب ، مظهرا من نفسك قلة الحرص والرغبة فى الدنيا ، وأظهر من نفسك الغنى ، ولا تظهر الفقر وان كنت فقيرا ، وكن ذا همة فان من ضعفت همته ضعفت منزلته ..

واذا مشيت فى الطريق فلا تلتفت يمينا وشمالا ، بل داوم النظر الى الأرض ، واذا دخلت الحمام فلا تساو الناس فى أجرة الحمام والمجلس ،

بل أرجح على ما تعطى العامة ، لتظهر مروءتك بينهم فيعظموك (١) ..

ولا تسلم الأمتعة الى الحائك وسائر الصناع ، بل اتخذ لنفسك ثقة يفعل ذلك ، ولا تماكس بالحبات والدوانق ، ولا تزن الدراهم ، بل اعتمد على غيرك ..

وحقر الدنيا المحقرة عند أهل العلم ، فان ما عندك خير منها ، وولِّ أمورك غيرك ليمكنك الاقبال على العلم ، فذلك أحفظ لجاهك ..

واياك أن تكلم المجانين ، ومن لا يعرف المناظرة والحجة من أهل العلم ، والذين يطلبون الجاه ويتسوقون بذكر المسائل فيما بين الناس ، فانهم يقصدون تخجيلك ، ولا يبالون منك وان عرفوك على الحق ..

واذا دخلت على قوم كبار فلا تترفع عليهم ما لم يرفعوك ، لئلا يلحق بك منهم أذية ، واذا كنت فى قوم فلا تتقدم عليهم فى الصلاة ، ما لم يقدموك على وجه التعظيم ..

ولا تدخل الحمام الا وقت الظهيرة أو بالغدوات ، ولا تخرج الى النظارات ، ولا تحضر مظالم السلاطين ، الا اذا عرفت أنك اذا قلت شيئا ينزلون على قولك فى الحق ، فانهم ان فعلوا ما لايحل وأنت عندهم ربما لا تملك منعهم ويظن الناس أن ذلك حق لسكوتك فيما بينهم وقت الاقدام عليه ..

واياك والغضب فى مجلس العلم ..

ولا تقص على العامة ، فان القاص لابد أن يكذب ..

واذا أردت اتخاذ مجلس العلم لأحد من أهل العلم ، فان كان مجلس فقه فاحضر بنفسك ، واذكر فيه ما تعلمه ، كى لا يغتر الناس بحضورك ، فيظنوا أنه على صفة من العلم (٢) ، وليس هو على تلك الصفة ، فان كان يصلح للفتوى فاذكر منه ذلك ، والا فلا تقعد أنت ليدرس بين يديك ، بل اترك عنده من أصحابك ليخبرك بكيفية كلامه وكمية علمه ..

ولا تحضر مجالس الذكر ، أو من يتخذ مجلس عظة بجاهك وتزكيتك

---

(١) أى كن سمحا فى اعطاء الاجر مفضلا بشىء يزيد عليه

(٢) اى اذا حضرت مجلس أحد يقول علما فلا تترك أخطاءه دون تصحيح

له ، بل وجه أهل محلتك وعامتك الذين تعتمـد عليهم مع واحـد من أصحابك ، وفوض أمر الخطبة فى المناكح (١) الى خطيب ناحيتك ، وكذا صلاة الجنائز والعيدين ..

ولا تنسنى من صالح دعائك ، واقبل هذه الموعظة منى ، وانما أوصيتك لمصلحتك ومصلحة المسلمين » .. اهـ ..

***

ويلوح لى أن هذه الوصية لم تقل من أبى حنيفة لتلميذه دفعة واحدة ، ولعلها أكثر من وصية ، فمنها ما قيل لأبى يوسف وهو فى صدر حياته ، ومنها ماقيل له وهو فقيه أو قاض ، بدليل أننا نجد أبا حنيفة فى موطن من الوصية ينصح تلميـذه بطلب العلم أولا ، ثم جمع المـال ثانيا ، ثم التزوج ثالثا ، وفى مواطن أخرى ينصحه بما ينبغى له فى معاملة السلطان والاتصال به ، وفى مراقبة الموظفين والمدرسين ، وفى تفويض أمر الخطبة فى عقود الزواج وكذلك صلاة الجنائز والعيدين الى خطيب الناحية ! ..

كما نلاحظ على الوصية انها ــ فى طائفة من مواطنها ــ تبـدو كأنها خواطر متناثرة ، يشرق بعضها ويغرب البعض الآخر ، بحيث يعوزها أحيانا التسلسل والترابط ، وأسلوبها لا يمضى على وتيرة واحدة ، وكأنه لأكثر من قائل ..

ولا شك أن فى الوصية أشياء رائعة مليئة ، ولكن يوجـد بجوارها أشياء عادية أو واهية أو تحتاج الى نظر ..

ومهما يكن من أمر هذه الوصية فانها جديرة بالتأمل والدراسـة ، وأعتقد أنها من النصوص المهمة التى يجب أن تتناول بالتحليل والتفصيل فى دروس التربية والأخلاق ..

الوصية الثانية

وجهها أبو حنيفة الى تلميـذه يوسف بن خالد السمتى حينما فارق

(١) المراد بالمناكح هنا عقود الزواج

أبا حنيفة ، ورحل عنه من الكوفة الى البصرة ، ليعلم أهلها فقه الكوفة وأقوال شيوخها ..

وفى هذه الوصية نلمح من أبى حنيفة روح المربى الحريص على اصلاح تلاميذه ، وتوجيههم الى كل ما يعتقد انه الخير ، كما نلمح منها خبرة أبى حنيفة الاجتماعية ، فهو رجل قد اختلط بالناس ، ودرس المجتمع ، وعرف ما فيه ، وهو من أجل هذا يحذر تلميذه من المعاطب ، ويحثه على أسباب الرشاد والفلاح ، ويبصره بأساليب سياسة الناس ومداراتهم ..

وبين هذه الوصية والوصية التى سبقتها أمور مشتركة تحدث عنها أبو حنيفة هنا وهناك ، ولذلك يكفينا أن نستعرض جوانب من هـذه الوصية فيما يلى :

« اعلم أنك متى أسأت عشرة الناس صاروا لك أعداء ، ولو كانوا لك أمهات وآباء ، وانك متى أحسنت عشرة قوم ليسوا لك بأقرباء صاروا لك أمهات وآباء ..

كأنى بك وقـد دخلت البصرة ، وأقبلت على المخالفة بها ، ورفعت نفسك عليهم ، وتطاولت بعلمك لديهم ، وانقبضت عن معاشرتهم ومخالطتهم ، وهجرتهم وهجروك ، وشتمتهم وشتموك ، وضللتهم وضللوك ، وبدعتهم وبدعوك [١] ، واتصل ذلك الشين بنا وبك ، واحتجت الى الهرب والانتقال عنهم ، وليس هذا برأى ، انه ليس بعاقل من لم يدار من ليس له من مداراته بد ، حتى يجعل الله له مخرجا ..

اذا دخلت البصرة واستقبلك الناس وزاروك وعرفوا حقك ، فأنزل كل رجل منزلته ، وأكرم أهل الشرف ، وعظم أهل العلم ، ووقر الشيوخ ، ولاطف الأحداث ، وتقرب من العامة ، ودار الفجار ، واصحب الأخيار ، ولا تتهاون بسلطان ، ولا تحقرن أحدا ، ولا تقصرن فى مروءتك ، ولا تخرجن سرك الى أحد ، ولا تثق بصحبة أحد حتى تمتحنه ، ولا تخادن خسيسا ولا وضيعا ، ولا تألف ماينكر عليك فى ظاهره ، واياك والانبساط

---

(١) أى نسبتهم الى البدعة ونسبوك

الى السفهاء ..

وعليك بالمداراة والصبر والاحتمال وحسن الخلق وسعة الصـدر ، واستجد ثياب كسوتك ، واستفره دابتك (١) ، وأكثر استعمال الطيب ..

وابذل طعامك فانه ما ساد بخيل قط ، ولتكن لك بطانة تعرفك أخبار النـاس ، فمتى عرفت بفساد بادرت الى صلاح ، ومتى عرفت بصلاح ازددت فيه رغبة وعناية ..

واعمل فى زيارة من يزورك ومن لايزورك ، والاحسان الى من يحسن اليك أو يسيء ، وخذ العفو وأمر بالعرف ، وتغافل عما لا يعنيك ، واترك كل ما يؤذيك ، وبادر فى اقامة الحقوق ، ومن مرض من اخوانك فعده بنفسك ، وتعاهده برسلك ، ومن غاب منهم افتقدت أحواله ، ومن قعد منهم عنك فلا تقعد أنت عنه ..

وأظهر توددا للناس ما استطعت ، وأفش السلام ولو على قوم لئام .. ومتى جمع بينك وبين غيرك مجلس ، أو ضمك واياهم مسجد ، وجرت المسائل ، وخاضوا فيها بخلاف ما عندك ، لم تبد لهم ، فان سئلت عنها أخبرت بما يعرفه القوم ، ثم تقول : فيها قول آخر ، هو كذا وكذا ، والحجة له كذا ، فان سمعوه منك عرفوا مقدار ذلك ومقدارك ..

فان قالوا : هذا قول من ؟ .. قل : بعض الفقهاء ، واذا استمروا على ذلك وألفوك عرفوا مقدارك ، وعظموا محلك ..

وأعط كل من يختلف اليك نوعا من العلم ينظرون فيه ، ويأخذ كل واحد منهم بحفظ شيء منه ، وخذهم بجلى العلم دون دقيقه ، وآنسهم ومازحهم أحيانا ، وحادثهم فان المودة تستديم مواظبة العلم ، وأطعمهم أحيانا ، واقض حوائجهم ، واعرف مقدارهم ، وتغافل عن زلاتهم ، وارفق بهم وسامحهم ، ولا تبد لأحد منهم ضيق صدر أو ضجرا ، وكن كواحد منهم ..

واستعن على نفسك بالصيانة لها ، والمراقبة لأحوالها ..

---

(١) اى اجعل ثيابك جديدة نظيفة وتخير الدابة الكريمة القوية لركوبك

ولا تكلف الناس ما لايطيقونه ، وارض لهم ما رضوا لأنفسهم ، وقدم اليهم حسن النيّة ، واستعمل الصــدق ، واطرح الكبر جانبا ، وإياك والغدر وان غدروا بك ، وأد الأمانة وان خانوك ، وتمسك بالوفاء ، واعتصم بالتقوى ، وعاشر أهل الأديان وأحسن معاشرتهم » . اهـ ..

***

وعلى الرغم من القدر المشترك من الأمور التى أشار اليها أبو حنيفة فى الوصيتين ، نجد فى هــذه الوصية أشياء تخالف ما جاء فى الوصية الأولى ، فأبو حنيفة مثلا يقول لتلميــذه هنا : « ودار الفجار » وهــذه العبارة لا تلتئم مع قوله فى الوصية الأولى : « ولا تحتشم أحدا عند ذكر الحق وان كان سلطانا »

وأبو حنيفة هنا يقول لتلميذه : « واعمل فى زيارة من يزورك ومن لا يزورك » ، وهذا لا يلتئم مع دعوته تلميذه فى الوصية الأولى الى التصون وعدم الانبساط الى الناس

ويظهر أن حال تلميذه الثانى كانت غير حال تلميذه الأول ، ولذلك اختلفت وصيته لهذا عن وصيته لذاك فى بعض الأمور ..

أبو حنيفة وقواعد العربية :

روى ان أبا عمرو بن العلاء سأل أبا حنيفة عن القتل بالمثقل : أيوجب القود (القصاص) أم لا ؟ .. فأجاب أبو حنيفة : لا .. فقال له أبو عمرو : ولو قتله بحجر المنجنيق ؟ .. فقال : ولو قتلتــه بأبا قبيس « يعنى الجبل المجاور لمكة »

وقد استدل بعض الناقدين لأبى حنيفة بهذه الحادثة على أنه كان ضعيفا فى العربية ، والحادثة لا تعطى هذا ، فلعل أبا حنيفة قد سار فى قوله : « بأبا قبيس » على طريقة الكوفيين ــ وهو منهم ــ وهم يلزمون الأسماء الستة الألف فى أحوال الرفع والجر والنصب ، ويستأنس لذلك بقول الشاعر :

ان أباهــا وأبا أباهــا   قد بلغا فى المجد غايتاها

ومع أننا نستبعد أن يقع أبو حنيفة فى مثل هــذا الخطأ ، نرى أن وقوعه ــ ان كان قد وقع ــ لا يصح دليلا على ضعفه فى العربية ، فربما كان ذلك سهوا أو سبق لسان ، وكلام أبى حنيفة الذى رأيناه يدل على رجل يحسن القول ويتقن التعبير ، ومثل هذا لا يقع فى خطأ كهذا ..

أقوال السلف فى ابى حنيفة :

تناثرت كلمات كبار السلف فى التنويه بأبى حنيفة تناثر اللآلىء ، التى لم ينتظمها عقد ، وقد يكون من وسائل التبيان لشخصية هذا الامام أن نلتقط طائفة من هذه اللآلىء ، وننظمها تباعا لتتعاون على تجلية المكانة الجليلة التى بلغها هذا الامام الأعظم :

١ ــ يقول فيه الشافعى : الناس عيال فى الفقه على أبى حنيفة . وفى رواية أخرى له : من أراد أن يعرف الفقه فليلزم أبا حنيفة وأصحابه ، فان الناس كلهم عيال عليه فى الفقه ..

٢ ــ وقال عبد الله بن المبارك : ان كان الأثر قد عرف واحتيج الى الرأى ، فرأى مالك ، وسفيان ، وأبى حنيفة ، وأبو حنيفة أحسنهم ، وأدقهم فطنة ، وأغوصهم على الفقه ، وهو أفقه الثلاثة . ويقول أيضا : ان كان أحد ينبغى أن يقول برأيه ، فأبو حنيفة ينبغى له أن يقول برأيه

٣ ــ وقال النضر بن شميل : كان الناس نياما عن الفقه حتى أيقظهم أبو حنيفة بما فتقه ، وبينه ، وعلمه ..

٤ ــ وقال خلف بن أيوب : صار العلم من الله تعالى الى محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم صار الى أصحابه ، ثم صار الى التابعين ، ثم صــار الى أبى حنيفة وأصحابه ، فمن شاء فليرض ، ومن شاء فليسخط ..

٥ ــ وقال سفيان بن عيينة : شيئان ما ظننت أنهما يجاوزان قنطرة الكوفة ، وقد بلغا الآفاق : قراءة حمزة ، ورأى أبى حنيفة ..

٦ ــ وقال معمر بن راشد : ما أعرف رجلا يحسن أن يتكلم فى الفقه ، أو يسعه أن يقيس ويشرح لمخلوق طريق النجاة فى الفقه أحسن معرفة

من أبى حنيفة ..

٧ ـ وقال الحكم بن عبد الله : ما رأيت صـاحب حديث أفقه من سفيان الثورى ، وأبو حنيفة أفقه منه ..

٨ ـ وقال يزيد بن هارون : سفيان أحفظ للحديث ، وأبو حنيفة أفقه ..

***

ومما يدل على اجلال السلف لأبى حنيفة انه لما مات أخو سفيـان الثورى جاء الناس يعزونه ، وجاء أبو حنيفة فيمن جاء ، فقام اليه سفيان وأكرمه ، وأقعده مكانه ، وقعد بين يديه ، فلما تفرق الناس قال أصحاب سفيان له : رأيناك فعلت شيئا عجيبا مع هذا الرجل ..

فقال : هذا رجل من العلم بمكان ، فان لم أقم لعلمه قمت لسنه ، وان لم أقم لسنه قمت لفقهه ، وان لم أقم لفقهه قمت لورعه ! ..

ولكن يجب أن نحترس ونحن نتلقى أقوال الثناء فى أبى حنيفة ، فان الغلو فى مدحه قد دفع بعض المفترين الى أن يقولوا ان النبى صلى الله عليه وسلم قد قال :

« ان فى أمتى رجـلا يقال له أبو حنيفة هو سراج الأمة » وقد ذكر الامام النووى ما يفيد ان هذا الحديث موضوع ، وأن جماعة من الأئمة قد قرروا أنه موضوع ..

ويظهر أن هذا الاسراف المنحرف فى مدح أبى حنيفة ، كان له عنـد المغالين فى مدحه « رد فعل » للمغالاة فى ذمه ونقده ، فقد هاجم مهاجمون أبا حنيفة ، واتهموه بأن كان يرفض السنة النبوية ، حتى قال يوسف بن أسباط : « رد أبو حنيفة على رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعمائة حديث أو أكثر » . ويروى ان حماد بن سلمة قال : « ان أبا حنيفة استقل الآثار والسنن فردها برأيه » ..

وقد سبقت مناقشة هذه الدعوى ..

ويخيل الىّ أن أبا حنيفة كان يرى من يغالى بقيمته حتى يتجاوز بها

مرتبة الفقيه المجتهد ، فيكره ذلك ولا يغتر به ، وكان يرى من يغالى فى ذمّه حتى يصفه بالزندقة وعداوة السنة وافساد الدين ، فيعد هـذا من عداوة الصغار للكبار ، ومن غيظ الأقزام لشموخ العمالقة ، ويردد ما قاله حينما دخل عليه وكيع فرآه مطرقا ، ثم رفع رأسه وأنشأ يقول :

ان يحسـدونى فانى غير لائمهم
قبلى من الناس أهل الفضل قد حسدوا
فـدام لى ولهـم ما بى وما بهـم
ومات أكثـرنا غيظـا بمـا يجـد ! ..

ومما يعزى النفس أن أفرادا أخيارا ممن طعنوا على أبى حنيفة بحسن نية ، عادوا فعرفوا قدره ، وصححوا عنه فكرتهم ، ومن هؤلاء الامام الأوزاعى فقيه الشام ، فقد كان معاصرا لأبى حنيفة ، وبلغه عنه مايكره ، فلما التقى الأوزاعى بعبد الله بن المبارك قال له : من هذا المبتدع الذى خرج بالكوفة ويكنى أبا حنيفة ؟ ..

فلم يجب ابن المبارك على سؤاله مباشرة ــ وكان يحب أبا حنيفة ــ بل أخذ يعرض مسائل عويصة فى الفقه ، ويعرض فيها فتـاوى يعجب بها الأوزاعى حتى يسأل قائلا : من صاحب هـذه الفتاوى ؟ .. فيجيبه ابن المبارك : شيخ لقيته بالعراق ..

فيقول الأوزاعى عنه : هذا نبيل من المشايخ ، اذهب فاستكثر منه ..

فقال له ابن المبارك : هذا أبو حنيفة ! ..

وهيأت الأقدار بعـد هـذا اجتماع الأوزاعى بأبى حنيفة ، واطّلع الأوزاعى على فقه الامام وعلمه ، فقال الأوزاعى لابن المبارك فيما بعد : « غبطت الرجل بكثرة علمه ، ووفور عقله ، واستغفر الله تعالى ، لقـد كنت فى غلط ظاهر ، الزم الرجل ، فانه بخلاف ما بلغنى عنه » ! ..

صفات أبى حنيفة

كان أبو حنيفة رجلا ربعة ، ليس بالطويل ولا بالقصير ، وكانت تعلوه سمرة ، وكان من أحسن الناس منطقا ، ومن أحلاهم نغمة ، حسن الهيئة

والثياب ، طيب الريح حتى يعرف بطيبه اذا أقبل واذا خرج من داره ، وكان كثير التعطر ، مبسوط اليد فى النفقة ، وكانت الملابس التى عليه تقوم بثلاثين دينـارا ، وكان يحرص على حسـن مظهره ، حتى قال أبو سيف عن حذائه : « كان يتعهد شسعه ، حتى لم ير منقطع الشسع »

وبلغ من حرصه على اصلاح هيئته وثيابه أنه كان يحث غيره على مثل هذا ، ويبالغ فى حثه وحرصه ، ولقد رأى ذات يوم أحد جلسائه فى ثياب رثة ، فانفرد به وقدم اليه ألف درهم ليصلح بها هيئته ، فقال له الرجل : انى موسر ، وأنا فى نعمة ، ولا أحتاج اليها ..

فقال له أبو حنيفة معاتبا : أما بلغك الحديث : « ان الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده » ؟ .. فينبغى لك أن تغير حالك ، حتى لا يغتم بك صديقك ! ..

***

هذه هى صفاته الحسية ، وأما صفاته المعنوية ، فمنها أنه كان ذكيا فطنا ألمعيا ، يستخدم ذكاءه هذا فى استنباط الأحكام ، وافحام الخصوم ، وازالة الشبهات ، ومن أمثلة ذلك أن بعض الملاحدة الذين ينكرون وجود الخالق جل جلاله التقوا به ، فقال لهم :

ــ ما تقولون فى رجل يقول لكم : انى رأيت سـفينة مشحونة ، مملوءة بالأمتعة والأحمال ، قد احتوشها فى لجة البحر أمواج متلاطمة ، ورياح مختلفة ، وهى من بينها تجرى مستوية ، ليس فيها ملاح يجريها أو يقودها ، ولا متعهد يدفعها أو يسوقها ، هل يجوز ذلك فى العقل ؟ .. فقالوا : لا ، فهذا شىء لا يقبله العقل ، ولا يجيزه الوهم ..

فقال أبو حنيفة : فيا سبحان الله ، اذا لم يجز فى العقل وجود سفينة مستوية من غير متعهد ولا مجر ، فكيف يجوز قيام هـذه الدنيا على اختلاف أحوالها ، وتغير أمورها وأعمالها ، وسـعة أطرافها ، وتبـاين أكنافها (١) ، من غير صانع وحافظ ومحدث لها ؟ ! ..

---

(١) الاكناف : الجوانب والنواحى

وقد هيأ له هذا الذكاء أن يكون بارعا فى الجدال والمناظرة ، ولذلك نراه يجتمع بطائفة من الخوارج الذين يقولون ان مرتكب الذنب كافر ، وتجرى بينهم المحاورة التالية :

قالوا له : هاتان جنازتان على باب المسجد ، أما احداهما فجنازة رجل شرب الخمر حتى كظته (١) وحشرج بها فمات ، والأخرى امرأة زنت حتى اذا أيقنت بالحمل قتلت نفسها ! ..

وطلبوا منه رأيه فيهما ، فسألهم أبو حنيفة : من أى الملل كانا ؟ .. من اليهود ؟ .. قالوا : لا .. قال : أفمن النصارى ؟ .. قالوا : لا .. قال : أفمن المجوس ؟ .. قالوا : لا .. قال : من أى الملل كانا ؟ .. قالوا : من الملة التى تشهد أن لا اله الا الله ، وأن محمدا عبده ورسوله

قال : فأخبرونى عن هذه الشهادة : أهى من الايمان ثلث أو ربع أو خمس ؟ .. قالوا : ان الايمان لا يكون ثلثا ، ولا ربعا ، ولا خمسا . قال : فكم هى من الايمان ؟ .. قالوا : الايمان كله ! ..

قال : فما سؤالكم اياى عن قوم زعمته وأقررتم أنهما كانا مؤمنين ؟..

قالوا : دعنا عنك ، أمن أهل الجنة هما أم من أهل النار ؟ .. قال : أما اذ أبيتم فانى أقول فيهما ما قاله نبى الله ابراهيم فى قوم كانوا أعظم جرما منهما : « فمن تبعنى فانه منى ، ومن عصانى فانك غفور رحيم » . وأقول فيهما ما قاله نبى الله عيسى فى قوم كانوا أعظم جرما منهما : « ان تعذبهم فانهم عبادك ، وان تغفر لهم فانك أنت العزيز الحكيم » . وأقول فيهما ما قاله نبى الله نوح اذ قالوا : « أنؤمن بك واتبعك الأرذلون » ؟ قال : « وما علمى بما كانوا يعملون ، ان حسابهم الا على ربى لو تشعرون ، وما أنا بطارد المؤمنين » ..

وأقول ما قال نوح عليه السلام : « ولا أقول للذين تزدرى أعينكم لن يؤتيهم الله خيرا ، الله أعلم بما فى أنفسهم ، انى اذن لمن الظالمين » !

ولما سمع الخوارج هذا من الامام خضعوا وألقوا السلاح ! ..

---

(١) أى ملأته حتى لا يطيق النفس

ومن شواهد ذكائه وتوقد ذهنه مع سعة معرفته ، أن امرأة معتوهة تعرضت لايذاء رجل فقالت له : يا ابن الزانيين ، وذهبوا بها الى قاضى الكوفة محمد بن عبد الرحمن بن أبى ليلى ، فاعترفت بالقذف ، فأقام عليها حدين فى المسجد (١) وبلغ ذلك أبا حنيفة فقال :

ــ أخطأ فى سبعة مواضع : بنى الحكم على اقرار المعتوهة ، واقرارها هدر (٢) وألزمها الحد ، والمعتوهة ليست من أهل العقوبة ..

وأقام عليها حدين ، ومن قذف جماعة لا يقام عليه الا حد واحد ..

وأقام حدين معا ، ومن اجتمع عليه حدان لا يوالى بينهما ، ولكن يضرب أحدهما ، ثم يترك حتى يبرأ ، ثم يقام الآخر ..

وأقام الحد فى المسجد ، وليس للامام أن يقيم الحد فى المسجد ..

وضربها قائمة ، وانما تضرب المرأة قاعدة ..

وضربها لا بحضرة وليها ، وانما يقام الحد على المرأة بحضرة وليها ، حتى اذا انكشف شىء من بدنها فى اضطرابها ستر الوالى ذلك عليها ..

وكان ذكاء أبى حنيفة ييسر له أن يحسن التخلص من مواقف حرجة يصعب على غيره أن يتخلص منها ، ومن أمثلة ذلك أن رجلا خارجيا ــ من الخوارج ــ جاء الى أبى حنيفة وقال له : تب .. فسأله أبو حنيفة : مم أتوب ؟ .. قال الخارجى : من قولك بتجويز الحكمين (يعنى الحكمين اللذين كانا يحكمان فى الخلاف بين على ومعاوية) ..

فقال له أبو حنيفة : ألا تقبل أن تناظرنى فى هذا الموضوع ؟.. فقبل الخارجى ، وهنا قال له الامام : فان اختلفنا فى شىء مما تناظرنا فيه ، فمن يحكم بينى وبينك ؟ .. فرد عليه الخارجى قائلا : اجعل أنت من شئت ..

وكان مع الخارجى صاحب له ، فالتفت أبو حنيفة الى هذا الصاحب وقال له : اقعد فاحكم بيننا فيما نختلف فيه ان اختلفنا ..

---

(١) فعل ذلك ظنا منه انها تستحق حدين ،لانها قذفت شخصين هما والدا الرجل، لا شخصا واحدا

(٢) أى ليست له قيمة

وسر الخارجى بذلك ، ثم قال أبو حنيفة له : أترضى بهذا حكما بينى وبينك ؟ .. قال : نعم .. فقال أبو حنيفة له : فأنت قد جوزت التحكيم !

فبهت الخارجى ، ولم يحر جوابا .. (١)

ومن الأمثلة الدالة على حسن تخلصه بفرط ذكائه ما يروى أنه كان يسير يوما مع محمد بن عبد الرحمن بن أبى ليلى قاضى الكوفة ، ولعله كان بينهما تنافس المتعاصرين ، ومرا ببستان فيه مغنيات يغنين ، فلما حاذيا المغنيات سكتن ، فقال لهن أبو حنيفة : قد أحسنتن ! ..

وبعد حين شهد أبو حنيفة عند ابن أبى ليلى فى قضية فقال لأبى حنيفة : شهاتك ســاقطة . فقال : لم ؟ .. قال : لقولك للمغنيــات : أحسنتن ، لأن هذا رضى منك بمعاصى الله تعالى ..

فسأله أبو حنيفة : متى قلت لهن : أحسنتن ، حين غنين ، أم حين سكتن ؟ .. فقال ابن أبى ليلى : حين سكتن .. فقال أبو حنيفة : الله أكبر ، انما أردت بقولى : أحسنتن فى السكوت ، لا فى الغناء ! ..

فلم يسع ابن أبى ليلى الا أن يقبل شهادته ، وحينئذ تلا أبو حنيفة قول الله تعالى : « ولا يحيق المكر السيىء الا بأهله » ..

وصار ابن أبى ليلى يحذر أبا حنيفة بعد ذلك ! .. (٢)

***

ومن مواقف حسن تخلصه الرائعة أنه كان يوما عند الخليفة العباسى أبو جعفر المنصور ، وعنده أيضا الربيع حاجبه ، وكان بين الربيع وأبى حنيفة عداوة ، فقال الربيع للخليفة محاولا الايقاع بالامام : يا أمير المؤمنين هذا أبو حنيفة يخالف جدك عبد الله بن عباس ، فقد كان عبد الله بن عباس يقول : اذا حلف الشخص يمينا ثم استثنى منها بعد ذلك بيوم أو يومين جاز الاستثناء ، وأبو حنيفة يقول : لا يجوز الاستثناء الا متصلا باليمين ..

فقال أبو حنيفة : يا أمير المؤمنين ، ان الربيع يزعم أن ليس لك فى

(١) هذا الخارجى اسمه الضحاك الشارى

(٢) فى نفسى شىء من صحة هذه الواقعة

رقاب الناس بيعة . فقال المنصور متعجبا : وكيف ؟ .. فرد أبو حنيفة قائلا : يحلفون لك « على البيعة » ثم يرجعون الى منازلهم فيستثنون ، فتبطل أيمانهم ! ..

فضحك المنصور وقال للربيع : ياربيع لا تعرض لأبى حنيفة ! ..

وحسبنا بعد هذا فى تركيز التصوير لذكاء أبى حنيفة انه دخل ذات يوم على الامام مالك فوقره ، ولما خرج أبو حنيفة قال مالك لمن معه : أتدرون من هذا ؟ .. قالوا : لا .. قال : هذا النعمان ، لو قال هذه الاسطوانة (١) من ذهب لخرجت كما قال ! ..

ومن صفات أبى حنيفة ضبط النفس ، مع الوقار والحلم ، فهو الذى كان يقول : « اللهم من ضاق بنا صدره فان قلوبنا قد اتسعت له » . ولقد سبه أحد الناس بقوله : يا مبتدع يا زنديق ، فرد عليه بقوله : غفر الله لك ، الله يعلم منى خلاف ذلك ، وأنى ما عدلت به (٢) مذ عرفته ، ولا أرجو الا عفوه ، ولا أخاف الا عقابه ..

ولقد روى النووى عن ابن المبـارك قوله : « ما كان أوقر مجلس أبى حنيفة » ! .. ويقص علينا ان أبا حنيفة كان فى مجلسه بالمسجد الجامع ، فوقعت حية ، فسقطت فى حجره ، فخاف الناس وهربوا ، ولكنه ما زاد على أن نفض الحية وجلس مكانه ! ..

وكان برغم ألمعيته ونبوغه وشهرته لا يغتر برأيه ولا يتعصب لفكرته ، ولا يغالى فى عرفانه قدر نفسه ، فهو يقول عن استنباطه : « قولنا هذا رأى ، وهو أحسن ما قدرنا عليه ، فمن جاءنا بأحسن من قولنا فهو أولى بالصواب منا » ..

وقيل له : يا أبا حنيفة ، هذا الذى تفتى به هو الحق الذى لا شك فيه ؟ ..

فأجاب : والله لا أدرى لعله الباطل الذى لا شك فيه ..

وعوّد تلميذه أبا يوسف على التثبت وعدم الاستسلام أو المتابعة له

---

(١) الاسطوانة : السارية وهى العمود فى المسجد
(٢) اى ما أشركت به أحدا

بلا تمحيص ، وقال له : « لا تكتب كل ما تسمعه منى (أى متعجلا فيه مستسلما له) فانى قد أرى الرأى اليوم فأتركه غدا ، وأرى الرأى غدا فأتركه بعد غد » ! ..

وكان أبو حنيفة كريما واسع الكرم ، حسن المواساة لاخوانه ، فهو ينفق ويعاون ويهدى ، ويتفضل بالمعروف على كل من يتصل به قدر طاقته ، ولعل غناه قد عاونه على ذلك الكرم معاونة واسعة ، فهو اذا أنفق على عياله نفقة تصدق بمثلها ، واذا لبس ثوبا جديدا كسا بقدر ثمنه ، وكان يتصدق بأكثر من نصف طعامه ..

وكان أبو حنيفة لا يبقى عنده أكثر من أربعة آلاف درهم ، ويبذل الباقى ، ولقد روى وكيع ان أبا حنيفة قال له : ما ملكت أكثر من أربعة آلاف منذ أربعين سنة الا أخرجته — أى أخرجت الأكثر الزائد على ذلك — وانما بلغ غاية ما يمسك أربعة آلاف لقول على رضى الله عنه : أربعة آلاف ودونها نفقة . وكان أبو حنيفة يضيف الى ذلك قوله : « ولولا انى أخاف أن أحتاج الى هؤلاء لما أمسكت منها درهما واحدا» ..

وحدثنا البغدادى فى « تاريخ بغداد » ان أبا حنيفة كان يجمع ربح التجارة عنده من سنة الى سنة ، ثم يشترى بها حوائج الشيوخ والمحدثين ، من الكسوة والقوت وغيره ، ثم يدفع اليهم باقى الدنانير من الأرباح ويقول : أنفقوا فى حوائجكم ، ولا تحمدوا الا الله تعالى ، فانى ما أعطيتكم من مالى شيئا ، ولكن من فضل الله علىّ ! ..

وكان أمينا صدوقا فى تجارته ، لا يغش ولا يخادع ، ولا يشتط فى الربح ، بل ينتهز فرص البيع ليؤدى ألوانا من الخير الى مستحقيه ، ومن أمثلة ذلك أن امرأة جاءته تشترى منه ثوبا وتقول له : انى ضعيفة ، وانها أمانة ، فبعنى هذا الثوب بما يقوم عليك (أى بأصل ثمنه) ..

فقال لها : خذيه بأربعة دراهم ، وكان واضحا أن الثوب فى تقدير السوق يساوى أكثر من ذلك ، فقالت له : لا تسخر بى وأنا عجوز ، فأكد لها انه لم يسخر بها وقال : انى اشتريت ثوبين معا ، فبعت أحدهما

برأس المال الا أربعة دراهم ، فبقى هذا الثوب على أربعة دراهم ! ..

وكان صلبا فى الحق ثابتا عليه ، ولعل موقفه فى الاصرار على رفض القضاء ، وتعرضه بسبب ذلك للسجن والأذى أقوى شاهد على هـذا الثبات ، ولقد قال وكيع : « كان أبو حنيفة ـ والله ـ عظيم الأمانة ، وكان الله فى قلبه جليلا كبيرا عظيما ، وكان يؤثر رضـا ربه على كل شىء ، ولو أخذته السيوف فى الله لاحتمل » !

وكان أبو حنيفة رجلا صاحب مروءة ، وكانت مروءته تتمثل فى مظاهر كثيرة ، منها حفظه حقوق جيرانه ، والعناية بهم ، حتى ولو كانوا غير متفقين معه فى المشرب أو السلوك ، ولقـد روى لنا التاريخ انه كان يجاور شابا صانعا يعمل نهاره ، حتى اذا جنه الليل رجع الى منزله ، وقد حمل لحما فطبخه ، أو سمكة فشواها ، ثم لايزال يشرب ، حتى اذا دب الشراب فيه رفع صوته بالغناء وقال :

اضاعونى ، وأى فتى أضاعوا ليوم كريهة وسداد ثغر !

ويظـل هكذا حتى يأخـذه النوم ، وكان أبو حنيفة يسمع ضجته ، وأبو حنيفة يعمر أغلب ليله بالتهجد والعبادة ، وبعد مدة انقطع صوت هذا الجار ، فسأل عنه فقيل له انه محبوس ، فصلى الفجر ، وركب دابته ، واستأذن على الأمير ، فأجله وأحسن وفادته ، وقال له : ما حاجتك ؟..

قال : لى جار اسكاف أخـذه العسس (١) منذ ليال ، يأمر الأمير بتخليته ، فسارع الأمير بتحقيق ذلك ، وركب أبو حنيفة ومعه جاره ، وقال له : يافتى ، هل أضعناك ؟.. فتـأثر وقال : لا ، بل حفظت ورعيت ، جزاك الله خيرا عن حرمة الجوار ورعاية الحق ..

وتاب الفتى ولم يعد الى ما كان منه ! ..

وكان أبو حنيفة ورعا شديد الخشية لله تعالى ، أبيا مترفعا ، لا يقبل أن يأكل دنياه بدينه ، ولقد حدث نزاع بين الخليفة المنصور وزوجته ، فاحتكما الى أبى حنـيفة ، وكان الحق فى جانب الزوجـة ، فدافع عنه

(١) الاسكاف : الصانع . والعسس : السرطة

أبو حنيفة ، وخالف رأى الخليفة ، فلما حكم بينهما وانصرف بعثت اليه زوجة المنصور بهدايا ، فردها اليها وقال لرسولها : اقرئها سلامى ، وقل لها انما ناضلت عن دينى ، وقمت ذلك المقام لله .. لم أرد بذلك تقربا الى أحد ، ولا التمست به دنيا ..

ومن رأى أبى حنيفة أن القاضى الذى يقبل رشوة ، أو يأكل شيئا من الدنيا عن طريق قضائه لايصلح أبدا للقضاء ، ويجب أن يبعد عنه ، ولذلك قال : « اذا ارتشى القاضى فهو معزول ، وان لم يعزله الامام » !

***

ويبالغ أبو حنيفة أحيانا فى ورعه الى درجـة مثالية ، وقد يدل على ذلك أن يزيد بن هارون رأى أبا حنيفة جالسا يوما فى الشمس بالقرب من بيت انسان ؛ فقال له : يا أبا حنيفة ، لو تحولت الى الظل ؟ .. وهو يقصد ظل البيت الجالس أمامه

فقال أبو حنيفة : لى على صاحب هـذه الدار دراهم ، ولا أحب أن أجلس فى ظل داره . وفى رواية أنه قال ، لى على صاحب هـذه الدار شىء ، فكرهت أن أستظل بظل حائطه ، فيكون ذلك جر منفعة ، وما أرى ذلك على الناس واجبا ، ولكن العالم يحتاج أن يأخذ لنفسـه من علمه بأكثر مما يدعو الخلق اليه ..

وعلق يزيد على الحادثة بقوله : « ما رأيت أروع من أبى حنيفة ، فأى ورع أكثر من هذا » ؟ ! ..

ومن قبيل ورعه المبالغ فيه ما رواه عبد الله بن المبارك من ان أبا حنيفة أراد شراء أمة « جارية » فمكث عشرين سنة يستخبر ويشاور من أى سبى يشترى ..

ومن ذلك أيضا ما قيل من أنه ترك أكل لحم الغنم ، لما فقدت شـاة من الكوفة الى أن علم موتها ، لأنه سأل عن أكثر ما تعيش ، فقيل له : سبع سنين ، فترك أكل لحم الغنم سبع سنين تورعا منه ، لاحتمال أن تبقى هذه الشاة الحرام ، فيصادف أكل شىء منها ، وان كان الاثم هنا منتفيا

للجهل بعين الشيء الحرام ..
هكذا قيل ، والعهدة على الرواة ! ..

عبادة أبي حنيفة

يقول أحد الشعراء : « ما أحسن الدين والدنيا اذا اجتمعا » .. وأبو حنيفة رجل لم يجمع الدين والدنيا فقط ، بل جمع أمورا ثلاثة زادته رفعة ومكانة : جمع الغنى واليسار ، وجمع العلم والفقه ، وجمع العبادة والتقوى ..

نعم ما أجمل أن يقترن القول بالعمل ، وأن يأخذ العالم نفسه ـ قبل غيره ـ بمقتضى ما يعلم ، وأن يطبق الفقيه ـ قبل سواه ـ أحكام فقهه ، وأن يكون الامام قدوة صالحة يسبق من حوله فى الاستقامة والعبادة ..

وأبو حنيفة من هذا الطراز الذى يأخذ نفسه بمقتضى ما يعلمه من دين وفقه ، ولقد حذر أبو حنيفة الآثام لادراكه سوءها بعقله وقلبه وايمانه ، ولذلك قال : « رأيت المعاصى نذالة ، فتركتها مروءة ، فصارت ديانة » . ثم اتبع أبو حنيفة حذره المعاصى بتمسكه بالقربات والطاعات ، فقد كان كثير العبادة ، لا ينام الليل الا قليلا ، حتى سموه « الوتد » لكثرة صلاته ، وكان يبكى وهو يتهجد ، ويسمع جيرانه بكاءه فيرحمونه لما فيه من حزن وشجا ، وكان يعمر ليله بتلاوة القرآن ، وقيل عنه ما يصعب علينا اليوم تصديقه ، وهو انه يصلى الصبح بوضوء العشاء أربعين سنة ، وأسرف الشعرانى وتوسع كثيرا فيما نظن حين قال : ان أبا حنيفة ختم القرآن الكريم فى الموضع الذى مات فيه سبعة آلاف مرة ، وانه صلى الصلوات الخمس بوضوء واحد أربعين سنة ... الخ

واذا كانت هذه الأخبار قد أسرفت وتزيدت ، فانها تفهمنا على كل حال ان أبا حنيفة كان رجل عبادة وتقوى ، بجوار انه كان رجل علم وفقه

***

وكان أبو حنيفة فى تهجده يطيب له أن يكرر الآية من القرآن الكريم عشرات المرات ، يديرها على لسانه ، ويديرها فى الوقت نفسه على عقله

وقلبه ، فهو يرددها ، وهو يفكر فيهـا ، وهو يتأثر بها ، وكلما كررها تجدد له ادراك ، وتجدد له انفعال . ولقد روى عنه انه كرر فى تهجده ذات ليلة الآية الكريمة : « فمنّ الله علينا ووقانا عذاب السموم » (١) وظل يرددها فى صلاته حتى طلع الفجر ..

وقضى ليلة أخرى يتهجد فيها ويتعبد ، ويردد فى صلاته قول ربه : «بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر» .. وكلما رددها بكى وتفزع !

والواضح من حيـاة أبى حنيفة أنه كان يعظم القرآن الكريم كل التعظيم ، ويوقره كل التوقير ، فهو يعكف عليه تاليا ومتفهما ، وهو يردده فى صلواته متمعنا فيه متأثرا به ، وهو يعتمد عليه أولا وقبل كل شىء فى الاهتداء والاستنباط ، وهو يستمد منه الأدلة والشواهد فى محاوراته ومناظراته ، وهو يحرص الحرص كله على اذاعته وتحفيظه ..

وقد روى أن « حماد » ابن أبى حنيفة كان طفلا صغيرا فحمله والده على حفظ القرآن ، ولما استطاع معلمه أن يجعله يحفظ سورة «الفاتحة» فرح الامام بذلك ، وأرسل الى المعلم خمسمائة درهم ، وعجب المعلم وقال : ماصنعت حتى يرسل الىّ هذا ؟ ..

وعلم أبو حنيفة بذلك فأحضره وقال له : لا تستحقر ما علمت ولدى ، والله لو كان معنا أكثر من ذلك لدفعناه اليك تعظيما للقرآن ! ..

وفاة أبى حنيفة

الموت غاية كل حى ، فكان لابد لأبى حنيفة أن يموت كما مات ويموت سائر النـاس ، ولا بد من امتداد يد الردى الى هـذه الحياة الكبيرة الواسعة الآفاق لتطويها فى الثرى ..

ولقد مات أبو حنيفة سنة خمسين ومئة ، ويؤكد النووى انه مات فى السجن ، وهناك رواية غريبة تقول انه توفى سنة احدى وخمسين ومئة ، ورواية ثالثة تقول انه توفى سنة ثلاث وخمسين ومئة ، والصحيح هو القول الأول ..

---

(١) من عجيب المصادفات آنه جاء فى الجزء الاول من كتاب « خامس الراشـدين عمر بن عبد العزيز » أن هذه الاية نفسها شغلت عمر وأبكته طويلا

ويروى ان أبا حنيفة أوصى قبيل موته بأن يدفن فى أرض طيبة ، لم يحدث فيها غصب ، وألا يدفن فى أرض اتهم الأمير بأنه اغتصبها ، ولقد بلغت هذه الوصية مسمع أبى جعفر المنصــور ، فقلق لها وقال : « من يعذرنى من أبى حنيفة حيا وميتا » ! ؟ ..

وتولى غسله الحسن بن عمارة ، وأثنى على عبادته وصــومه وقيامه وتهجده وترتيله . وشــهد جنــازته خلق كثير ، ويقال انه صلى عليه خمسون ألف شخص . والعجيب انه كان بين المصــلين عليه أبو جعفر المنصور الذى آذاه بالأمس ..

ودفن أبو حنيفة فى الجانب الشرقى من بغداد ، فى مقبرة «الخيزران» ، وقبره هنالك ظاهر معروف ، رضى الله عنه ..

قال عبد الله بن المبارك : كان أبو حنيفة آية ! ..

فسأله أحد الأعداء : فى الخير أم فى الشر ؟ ..

فقال : اسكت ياهذا ، فانه يقال : آية فى الخير ، وغاية فى الشر ، ثم تلا قوله تعالى : « وجعلنا ابن مريم وأمه آية » ..

ولما بلغ ابن جريج موت أبى حنيفة استرجع وتوجع ، وقال : أى علم ذهب ! ..

الباب الثانى

الإمام مالك

ولد سنة ٩٣ هـ

توفى سنة ١٧٩هـ



مـالك بن أنس

مولد مالك :

مالك بن أنس هو ثانى الأئمة الأربعة فى الميلاد ، فقد ولد بعد ميلاد الامام الأول أبى حنيفة بثلاث عشرة سنة ..

والامام مالك هو امام دار الهجرة ، وامام أهل الحجاز وأحد تابعى التابعين ، واليه انتهى فقه المدينة وفقهائها السبعة ، وهو الذى عاش قرابة تسعين عاما ، شاب خلالها شيبة طيبة مباركة فى خدمة الاسلام والمسلمين

وقد ولد مالك فى عهد الوليد بن عبد الملك الأموى ، وتوفى فى عهـد هارون الرشيد العباسى ، فعصره شبيه بعصر أبى حنيفة ، وقد شـهد مالك ما شهد من دولتى الأمويين والعباسيين ، وما كان بينهما من صراع وقتال ، وما ثار فى المجتمع من ثقافات عربية وفارسية وهندية ..

ولقـد مر على مالك فى حياته ما مر ، فرأى الصراع بين العباسيين والعلويين ، وحركة الخوارج بما فيها من عنف ، والجدال بين الشيعة وأهل السنة ، وبين الخوارج وغيرهم ..

ورأى اختلاط الأجنـاس والعناصر فى المجتمع الاسـلامى من عرب وفرس وروم وهنود ، وكيف نشأت أحداث ووقائع فى مجالات الزراعة والتجارة والصناعة ومختلف المعاملات بين الناس مما احتاج الى كلمة الدين وفتوى الفقيه ، وظهر تدوين العلوم كالحديث والفقه والفتاوى والقضايا ..

وقد روى ان مالكا ولد فى مكان يسمى « ذو المروة » شمالى المدينة ، ثم نزل « العقيق » ثم استقر فى المدينة ، وروى أنه ولد فى المدينة سنة ثلاث وتسعين ، وقيل ولد سنة تسعين ، وقيل ولد سنة أربع وتسعين ،

وقيل سنة خمس وتسعين ، وقيل سنة ست وتسعين ، وقيل سنة سبع وتسعين . وما أكثر الاضطراب فى تحديد سنوات الميلاد وسنوات الوفاة خلال العصور المتقدمة . وروى ان أمه حملت به سنتين ، وقيل ثلاث سنوات ..

وهو مالك بن أنس بن مالك بن أبى عامر بن عمرو بن غيمان بن خثيل ابن عمرو بن الحارث .. وهو من حلفاء بنى تيم بن مرة ..

وكان جده الثانى « أبو عامر بن عمرو » من صحابة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وشهد معه الغزوات كلها الا بدرا ..

وكان جده الأول « مالك بن أبى عامر » من كبار التابعين ، وكنيته أبو أنس ، وقد روى عن عمر وطلحة وعائشة وأبى هريرة وحسان بن ثابت رضى الله عنهم ، وهو أحد الأربعة الذين حملوا عثمان رضى الله عنه ليـلا الى قبره وغسـلوه وكفنوه . وروى ان عثمان أغزاه افريقية ففتحها ، وكان ممن يكتب المصـاحف حين جمع عثمـان رضى الله عنه المصاحف ، وكان خامس الراشدين عمر بن عبد العزيز يستشيره ..

ولم يحدثنا التاريخ بشىء ذى بال عن « أنس » والد مالك ، وكل ما نعرفه عنه انه عاش فى « ذى المروة » وهو مكان كالواحة فى الصحراء شمالى المدينة المنورة ، ولم يكن لهذا الأب اشتغال ظاهر بالعلم ، وان كانت لديه رغبة طيبة فيه ، ولعله عرف بعض الأحاديث ، وكان رجلا مقعدا ، يمارس صناعة النبال ليكسب نفقة بيته ..

ووالدة مالك هى الغاليـة بنت شريك بن عبـد الرحمن بن شريك الازدية ، وقيل : اسمها طلحة ، والأول أصح وأشهر ..

وكانت أسرة مالك تشتغل بالحديث والفتيا ..

نشأته

بدأ مالك يحفظ القرآن الكريم ، ثم شرع فى حفظ الحديث ، وكان قوى الذاكرة فى حفظه ، وكان من عادته وهو يسمع الأحاديث أن يعقد عقدا بعددها بخيط فى يده ، ثم يتبين ماتبقى فى ذاكرته منها ، وذات يوم

سمع من ابن شهاب ثلاثين حديثا ، فوعاها كلها الا حديثا واحدا منها ، فسارع الى ابن شهاب يسأله عن هذا الحديث ، فقال له ابن شهاب : ألم تكن فى المجلس ؟ .. أجاب مالك : بلى ..

قال ابن شهاب : فمالك لم تحفظ ؟ .. أجاب : انها ثلاثون ، وانما ذهب عنى واحد . فقال ابن شهاب : لقد ذهب حفظ الناس ، ما استودعت قلبى شيئا قط فنسيته ، هات ما عندك !

فراجع عليه مالك ، وأخبره ابن شهاب بالحديث الذى نسيه ! ..

ويروى ان الامام مالكا أراد فى أول أمره أن يشتغل بالغناء ، فنصحته أمه بترك ذلك وتعلم الفقه ، فانتصح . ويروى انه لما أبدى لأمه رغبته فى الغناء قالت له : يا بنى ان المغنى اذا كان قبيح الوجه لم يلتفت الناس الى غنائه ، فدع الغناء واطلب الفقه ..

والظاهر انها أرادت بذلك صرفه عن الغناء فقط ، اذ اشتهر عن مالك انه كان حسن الوجه ..

وكان فى أول أمره فقيرا ، حتى قال ابن القاسم : أفضى بمالك طلب العلم الى ان نقض سقف بيته ، فباع خشبه ، ثم مالت عليه الدنيا بعد ذلك ..

وأخذ مالك عند بلوغه الحلم راتبا من المال ، كما كانت العادة جارية ..

ولكن يبدو ان الفقر استمر بصاحبنا زمنا ممدودا ، بدليل ما روى أن العسر بلغ به أن ابنته كانت تبكى من الجوع ، ثم أقبلت عليه الدنيا بعد ذلك فأيسر ، وكانت الهدايا تأتيه كثيرة وفيرة ، حتى ان هارون الرشيد أهدى اليه ذات مرة ثلاثة آلاف دينار . وكان عنده أربعمائة دينار فى أول أمره ، فاتجر بها ، فمنها كان قوام عيشه قبل غناه ، ولعله لم يكن يباشر التجارة بنفسه ، بل يباشرها بوساطة شخص يتاجر بماله ، ويقتسم معه الربح ، وهذا اللون من المعاملة يسمى فى الفقه « المضاربة » ثم كفل له يساره أن يلبس الثياب العدنية الجياد والخراسانية والمصرية المترفعة ، وأن يتطيب بطيب جيد ، ويتختم بخاتم

كتب عليه : « حسبى الله ونعم الوكيل » ، ويسكن فى دار كتب على بابها : « ما شاء الله » وهو ينظر فى هذا الى قوله تعالى : « ولولا اذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله » ..

***

وتلقى مالك من العلوم : الأحاديث ، والرد على أهل الأهواء ، وفتاوى الصحابة ، وفقه الرأى . وكان بارعا فى تلقى العلم وتحصيله ، حتى قال ابن عيينة « ما رأيت أحدا أجود أخـذا للعلم من مالك ، وما كان أشد انتقاءه للرجال والعلماء » ..

شيوخ مالك :

أكثر مالك من جلوسه الى الشيوخ ، حتى نقل النووى فى « تهذيب الأسماء واللغات » انه أخذ العلم على تسعمائة شيخ ، منهم ثلاثمائة من التابعين ، وستمائة من تابعيهم ، ممن اختـارهم وارتضى دينهم وفقههم وقيامهم بحق الرواية وشروطها ، وخلصت الثقة بهم ، وترك الرواية عن الذين لايعرفون الرواية ، حتى ولو كانوا أهل صلاح ودين ..

ولقد انقطع مالك الى عبد الرحمن بن هرمز الأعرج سبع سنين أو أكثر ، لم يخلطه بغيره ، وكان يعطى صبيان ابن هرمز هذا تمرا ويقول لهم : ان سألكم أحد عن الشيخ فقولوا انه مشغول . وهو يريد بذلك أن يخلص الشـيخ له ، فيأخـذ عنه أكثر ما يستطيع ، فربما قضى معه النهار كله ..

ومن شيوخه ربيعة بن أبى عبد الرحمن فروخ ، ويظهر ان مالكا جلس اليه حينما كان صغيرا ، بدليل انه قال لأمه : أذهب أكتب العلم ؟ .. فاستمهلته حتى ألبسته ثياب العلم وعممته ، ثم قالت له : اذهب فاكتب الآن ، واذهب الى ربيعة فتعلم من أدبه قبـل علمـه .. وأطاع مالك أمر أمه ..

ومن شيوخ مالك : نافع مولى عبد الله بن عمر ، فكان مالك يتعرض له ويسائله ، ومن شيوخه أيضا : جعفر بن محمد الباقر ، ومحمد بن مسلم

الزهرى ، وعبد الرحمن بن ذكوان ، ويحيى بن سعيد الانصارى ، وأبو حازم سلمة بن دينار ، ومحمد بن المنكدر ، وعبد الله بن دينار ، « وخلائق آخرون من التابعين » ، كما يعبر النووى ..

مالك والحديث النبوى :

عنى مالك عناية شديدة بحديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، حتى صار فيه اماما ، وأصبح سنده أصح الأسانيد عند علماء السنة ، وقرروا انه ثقة عدل ضابط ، مدقق فى اختيار من يروى عنهم ، ولم يستطع أحد أن يطعن على مالك بشىء فى هذه الناحية ، بل قال سفيان : « ما كان أشد انتقاد مالك للرجال » يعنى رواة الحديث ، وقال ابن المدينى : « لا أعلم مالكا ترك انسانا الا من فى حديثه شىء » وقال الشافعى : « كان مالك اذا شك فى شىء من الحديث تركه » ..

ولم يكن بالأمر الهين أن يبلغ مالك هذه المنزلة ، بل قد تعب من أجلها وسهر ، واجتهد وصبر ، وحقق ودقق ، ويكفينا انه قال : « كتبت بيدى مئة ألف حديث » وانه قال : « ان هذا العلم دين ، فانظروا عمن تأخذونه ، لقد أدركت سبعين ممن يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عند هذه الأساطين ــ وأشار الى أعمدة المسجد ــ فما أخذت عنهم شيئا ، وان أحدهم لو ائتمن على بيت مال لكان أمينا ، الا انهم لم يكونوا من أهل هذا الشأن » ! ..

وكان مالك يجل حديث الرسول غاية الاجلال ، فهؤلاء هم الناس يقبلون اليه فى جموعهم ليستزيدوا من علمه فيسألهم عما يريدون ، فاذا كانوا يريدون فقه المسائل خرج اليهم وأفتاهم ، ولكنه اذا وجدهم يطلبون الحديث لايخرج اليهم حتى يغتسل ويتطيب ويلبس ثيابا جديدة ويتعمم ، ثم يخرج وعليه خشوع ، اجلالا منه للحديث ..

ولقد لدغته عقرب وهو يروى حديثا للرسول ، فاحتمل اللدغة ، ولم يقطع الرواية ، ولما سئل فى ذلك قال : صبرت اجلالا لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ..

ومن تعظيمه لحديث النبى أنه كان يعد رفع الصوت فى درس الحديث أمرا مكروها يحرم على المسلم أن يفعله ، ويستدل على ذلك فيقول : « قال الله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى.) ، فمن رفع صوته عند حديث النبى صلى الله عليه وسلم فكأنما رفع صوته فوق صوت الرسول صلى الله عليه وسلم » ..

وكان يهتدى بالسنة النبوية المطهرة ، ويعتبرها المصباح المضىء أمام الانسان ، ويرى انه لا تجوز مخالفتها ولا الخروج عليها ، وكان فى كثير من الأحيان يشير الى قبر الرسول ثم يقول : « كل أحد يؤخذ من قوله أو يترك الا صاحب هـذه الروضة » ! .. ولذلك كان اذا ذكروا عنده أحدا من أهل الأهواء والشكوك يتمثل بعبارة قالها خامس الخلفاء الراشدين عمر بن عبد العزيز ، فيقول : « قال عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه : سن رسول الله صلى الله عليه وسلم وولاة الأمر من بعده (١) سننا الأخذ بها اتباع لكتاب الله تعالى ، واستكمال لطاعة الله ، وقوة على دين الله ، ليس لأحد بعد هؤلاء تبديلها ، ولا النظر فى شىء خالفها ، من اهتدى بها فهو مهتد ، ومن استنصر بها فهو منصور ، ومن تركها اتبع غير سبيل المؤمنين ، وولاه الله ما تولى ، وأصلاه جهنم وساءت مصيرا » ..

وكان مالك اذا ردد هذه العبارة العمرية يهتز لها سرورا ، ونحن نشهد فى سيرة مالك الاعجاب الزائد منه بخامس الخلفاء الراشدين عمر ابن عبد العزيز ، ولعل السر فى ذلك هو اهتداء عمر بالسنة ، وعودته بالحكم الى هدى الخلافة الراشدة ، فلم يكن عجيبا أن يتحدث مالك عن عمر كثيرا ، ويروى جوانب من سيرته للناس ..

بل بلغ من اعجاب مالك بخامس الراشدين أن سائلا سأله عن حكم الله تعالى فى الخارجين على الخلفاء : هل يجوز قتالهم ؟ .. فقال مالك : ان خرجوا على مثل عمر بن عبد العزيز فقاتلهم . فقال السائل : فان لم

(١) يقصد بهم الخلفاء الراشدين ، وهم قد ساروا على ما سار عليه الرسول ، ولذلك جاء فى الحديث : « عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين من بعدى ، عضوا عليها بالنواجذ »

يكونوا مثله ؟ .. فأجاب مالك : دعهم ينتقم الله من ظالم بظالم ، ثم ينتقم من كليهما !

وحب مالك للسنة كان يتضمن من غير شك حبه لصاحبها صلوات الله وسلامه عليه ، ومن أجل حبه لرسول الله أحب المدينة حبا شديدا ، وعاش عمره كله فيها ، ولم يتركها الا للحج الى مكة ، لأنه كان يفضل مجاورة الرسول عليه الصلاة والسلام

ولقد دعاه بعض الخلفاء كى يرحل الى بغداد ، فيحيا فى ظل الخلافة وتحت ألوية النعيم ، فأبى مالك ، وردد قول الرسول عليه الصلاة والسلام : « المدينة خير لهم لو كانوا يعلمون » !

وبلغ به توقيره لمكانة الرسول أنه كان يستحى أن يركب أى دابة فى المدينة ، ويقول : انى لأستحى أن أركب دابة تطأ بحافرها أرضا يضم ترابها جسد الرسول صلى الله عليه وسلم !

جلوسه للتدريس :

وعى مالك من العلم ما وعى ، وحفظ من السنّة ما حفظ ، وتفقه فى الدين ما استطاع ، ولقد استطاع الكثير فى الزمن القصير ، ثم جلس للتدريس وهو فى السابعة عشرة من سنه ــ كما قيل فى بعض الروايات ــ وان كان المعقول انه جلس للتدريس بعد هذه السن ببضع سنوات . وصارت حلقته أكبر من حلقة شيخه نافع

ولكنه لم ينهجم على مجلس التدريس تهجما ، ولم يحتله تطاوُلا أو تطفلا ، بل كان ذلك عن جدارة واستحقاق حتى أخبرنا بأنه لم يجلس هذا المجلس الا بعد أن شهد له سبعون شيخا من أهل العلم بأنه أهل لذلك ..

نعم توسع مالك أولا فى طلب العلم ، ووصل ليله بنهاره حتى نضج عقله المتفتح ، وبدت منه دلائل القدرة على التدريس ، وشهد له الشهود العدول بهذا الاقتدار ، وبلغ الشهود رقما يعد غاية فى الضخامة ، فقد كانوا سبعين ، ومن بينهم شيخاه ربيعة والزهرى ، فجلس مالك فى مسجد

الرسول بالمدينة ، يحدث ويفتى ويدرس

ويا عجبا ، ان اثنين من شيوخه ـ وهما يحيى الانصارى ومحمد بن مسلم الزهرى ـ عادا فسمعا منه ونقلا عنه ، وكذلك فعل غيرهما ..

واختار مالك لمجلسه فى التدريس والافتاء المكان الذى كان يجلس فيه عمر بن الخطاب ، وهو نفسه المكان الذى كان يجلس فيه الرسول عليه الصلاة والسلام من المسجد ، وقد كان مالك حريصا على التشبه بعمر فى كثير من الأمور . وظل مالك يعقد درسه فى المسجد النبوى حتى مرض بسلس البول ، فاضطر الى نقل درسه الى منزله ، وكان يسكن دار عبدالله بن مسعود بالكراء « أى بالأجرة » وصعب عليه أن يواصل خروجه الى الناس بعد ذلك ..

ومن أدبه الاسلامى أنه كتم عن الناس علته ، فلم يشر اليها الا فى آخر حياته حيث قال : « لولا انى فى آخر يوم ما أخبرتكم بسلس بولى ، كرهت أن آتى مسجد رسول الله بغير وضوء ، وكرهت أن أذكر علتى فأشكو ربى » !

ومن توفيق الله الكبير أن أقام مالك بالمدينة ، وان جعل درسه فيها بجوار قبر الرسول ، فقد كان اقبال الوفود من المسلمين كل حين لزيارة الرسول يهيىء له الفرص المتوالية لبثّ ما لديه من علم على نطاق واسع ، وهو فى الوقت نفسه يدرس أحوال الناس ، ويطلع على ما يقع لهم ، ويسمع منهم أحداث حياتهم ، مما يحتاج الى استنباط أحكامه من الدين

وكان المسلمون يهرعون الى دروس مالك ، لمكانته ، وشهرته ، ولأن من يرحل الى المدينة لزيارة الرسول لا تكون من حوله شواغل دنيوية ، بل يكون لديه استعداد قوى للتفقه والتعبد والتقرب الى الله تعالى ، ومن أفضل وسائل التقرب اليه سبحانه الحرص على سماع ما يروى من حديث أو يلقى من درس ، أو يقرر من حكم ، أو يبث من علم ، بجوار قبر الرسول عليه الصلاة والسلام ..

انهم يقبلون على الدرس فى شـوق ، ويستمعون بانصات ، ويَعُون

باهتمام ، ويعودون الى مشارق الأرض ومغاربها وهم يرددون ما سمعوا ويبثونه بين الناس ! ..

وكان من طريقة مالك فى فقهه انه يقدم القرآن أولا وقبل كل شىء ويستعين فى فهمه بالحديث والسنة ، ولكنه كان يدقق فى رواية الحديث ، حتى لا يختلط صحيح بغير صحيح ، وهو يعد عمل أهل المدينة حجة ومصدرا من مصادر الفقه الهامة ، وهو يلتزم السنة ، لا يفارقها فى الافتاء ، ويردد كثيرا هذا البيت :

وخير أمور الدين ما كان سنة   وشر الأمور المحدثات البدائع [1]

ويطيل التفكير فى المسألة قبل أن يفتى فيها ، ويقول : « ربما وردت على المسألة فأسهر فيها عامة ليلتى » واذا جاءه السائل يسأله قال له : « انصرف حتى أنظر » ، ثم يعود اليه السائل بعد حين ليسمع منه الجواب . وحدثه بعض الناس فى ذلك فبكى مالك وقال : « انى أخاف أن يكون لى من هذه المسائل يوم وأى يوم » ! .. وجاءه ذات يوم أحد الناس وسأله سؤالا ، وكان مالك قد استمهله حتى يفكر فى الجواب ، فقال له السائل : هذه مسألة خفيفة ، أى لا تحتاج الى تفكير ولا تأجيل

فغضب مالك من ذلك وقال مستنكرا : « مسألة خفيفة سهلة ! .. ليس فى العلم شىء خفيف ، أما سمعت قول الله تعالى : (انا سنلقى عليك قولا ثقيلا) ؟ .. فالعلم كله ثقيل ، وخاصة ما يسأل عنه يوم القيامة » !

ويؤكد مالك هذا الخوف مرة أخرى فيقول : « ما من شىء أشد على من أن أسأل عن مسألة من الحلال والحرام ، لأن هذا هو القطع فى حكم الله » ..

ولذلك يقول مالك فتواه بعد اجتهاد وتدبر ، وهو مع هذا لا يقطع بأن قوله هو عين الصواب ، بل يحذر من الاستسلام المطلق لرأيه ، ويقول : « ان نظن الا ظنا وما نحن بمستيقنين » !

بل حدث ان مالكا تحير فى بعض المسائل الغامضة أو المبهمة أو المترددة

---

(١) يقصد بالبدائع جمع البدعة ، وهى الامر المستحدث الذى لا أصل له فى الدين

بين وجهتين ، وظل يطيل فيها النظر زمنا بعد زمن ، وهو لا يقطع فيهـا برأى ، ولا يخجل أن يصرح بهذا فيقول : « انى لأفكر فى مسألة منـذ بضع عشرة سنة ما اتفق لى فيها رأى الى الآن » !

والعلم بحر لا ساحل له ، ومحيط بعيد الأعمـاق ، واذا عرف المرء أشياء منه غابت عنه أشياء ، وجل العليم بكل شىء ، ولذلك كان من أدب الفقهاء والعلماء ألا يتجارأوا على الفتوى بغير علم ، وهذا مالك يضرب لنا فى ذلك قدوة ومثلا ، فقد سئل عن ثمان وأربعين مسألة ، فأجاب عن اثنتين وثلاثين منها ــ أى عن ثلثيها ــ بقوله : « لا أدرى » !

وجاء رجل من سفر بعيد الى مالك ، وقال له : جئتك من مسيرة ستة أشهر ، حملنى أهل بلدى مسألة أسألك عنها . قال مالك : فسل . فسأله عما لا يعرفه ، فقال مالك : لا أحسن ، فدهش الرجل ، فقد كان يعتقد انه قد جاء الى من يعلم كل شىء ، وقال لمالك : وأى شىء أقوله لأهل بلدى اذا رجعت اليهم ؟ .. فأجاب مالك : قل لهم : قال لى مالك بن أنس : لا أحسن !

وجاءه آخر فسأله عن مسألة ، فقال مالك له : لا أدرى .. فقال الرجل متعجبا : فأذكر عنك أنك لا تدرى ؟ .. فقال مالك : نعم ، احك عنى أننى لا أدرى !

ولم يكتف بهذا بل وضع دستورا فى هذا المقام فقال : « ينبغى أن يورث العالم جلساءه قول : لا أدرى ، حتى يكون ذلك أصلا فى أيديهم يفزعون اليه ، فاذا سئل أحدهم عما لا يدرى ، قال : لا أدرى » !

هذه القواعد والآداب فى البحث والافتاء يجب أن تكون أمام ناظرى كل من يتعرض للافتاء فى دين الله تعالى ، فلا يسارع بالفتوى لغرض فى نفسه ، أو لمرض عنده ، أو للحصول على مغنم من المغانم ، أو لمجاملة من يحرص على مجاملته ، أو لهيبة من يخشاه ويخافه ، أو للتخلص من تهمة القصور فى العلم والنقص فى المعرفة ، أو للتظاهر بمعرفة كل شىء .. فان الفتوى هنا ليست فى سلعة أو شىء مادى أو أمر هين ، وانما هى نقل

عن الله عز وجل ، وتقرير للتحليل أو التحريم ، وما أثقلها من تبعة ..

فمن واجب الذى يتعرض للافتاء أن يستعد له ، فيتعلم كثيرا ، ويتفقه طويلا ، ويحتاط احتياطا شديدا ، واذا سئل تأنى ولم يتعجل فى الاجابة ، بل يتمهل ويتأمل ، وينظر ويتدبر ، ويراجع — ولو كان حافظا — ليتأكد ويطمئن ويتثبت ، ويقرن الفتوى بالنص والدليل ، واذا قرر الحكم قرره فى حيطة وحذر ، متجنبا الادعاء بأن قوله هو الحق الذى ليس بعـده حق ، أو أنه اليقين الذى ليس بعده الا الشك أو الضلال ، واذا أراد قدوة له أو أسوة فليتطلبها عند أمثال الامام مالك بن أنس رضوان الله تبارك وتعالى عليه ..

وكان مالك يلتزم الاجابة عن الأمور التى وقعت ، ولا يحب الحديث عن الأمور الفرضية ، أو القضايا التصورية ، ويرى هذا لونا من ألوان التصنع والتكلف والتعرض لغير المهم ، ولذلك نراه حينما سأله بعض الناس عن مسألة لم تقع يقول له : سل عما يكون ، ودع ما لم يكن

وسأله آخر سؤالا من هذا الطراز ، فلم يجبه ، فقال له السائل : لم لا تجيبنى ؟ .. فقال له مالك : لو سألت عما ينتفع به لأجبتك !

***

وقد يظن ظان أن مالكا ، بسبب تقيده بالحديث وعدم خروجه عليه فى الافتاء ، كان يحجر واسعا فى مصادر الفقه الاسلامى ، وهذا الظن يقع فى غير موضعه ، لأن مالكا يأخذ فى اعتباره مصادر كثيرة لفقهه ، فهو كما ذكرنا يجعل القرآن فى الطليعة ، ويقدم الاستدلال به على كل دليل آخر، وهو يشترط فى مفسر القرآن ان يكون عليما بلغة العرب ، ويقول :

« لا أوتى برجل يفسر كتاب الله غير عالم بلغة العرب الا جعلته نكالا » ، أى عذبته وعاقبته ، وكان لا يرضى بما أدخل على التفسير من اسرائيليات

ثم هو يعتبر السنة النبوية المصدر الثانى فى التشريع ، لأنها مفسرة للقرآن المجيد ، ومبينة له ، والله تعالى يقول فى شأن الرسول وشأن سنته هذه الآيات البينات :

« وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا »
« من يطع الرسول فقد أطاع الله »
« وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم »
« فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لايجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما »
« لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة »
والرسول يقول : « ألا انى أوتيت القرآن ومثله معه » . ويقول : « ان ما حرم رسول الله كما حرم الله » !

ثم يأخذ مالك بفتوى الصحابة ، لأنهم السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار ، وهم الذين صاحبوا الرسول وشاهدوه وسمعوا منه وتلقوا عنه ..

وكان يأخذ بالاجماع ، ويقصد به ما اجتمع عليه أهل الفقه والعلم

وكان يأخذ بعمل أهل المدينة ، لأن الناس تبع لأهل المدينة الأوائل ، فالمدينة هى التى كانت اليها الهجرة ، وفيها نزل معظم القرآن ، ولكن الامام مالكا لا يلزم أهل الأقطار الأخرى بعمل أهل المدينة على أنه الأمر الذى لا تجوز مخالفته ، بل يجعل الأمر من باب الاختيار

واذا لم يجد الامام مالك نصا أخذ بالقياس والاستحسان والعرف وسد الذرائع والمصالح المرسلة ، ولكنه يشترط فى الأخذ بالمصالح المرسلة عدة شروط ، منها :

١ ـ ألا تنافى المصلحة أصلا من أصول الاسلام ، ولا دليلا قطعيا من أدلته ..

٢ ـ أن تكون المصلحة مقبولة عند ذوى العقول

٣ ـ أن يرتفع بها الحرج ، لقول الله تعالى : « وما جعل عليكم فى الدين من حرج »

ومن أمثلة أخذ مالك بقاعدة المصالح المرسلة أنه يرى أنه اذا خلا بيت المال واحتاج الجنود الى النفقة كان لولى الأمر أن يأخذ من الأغنياء

ما يراه كافيا لذلك ، حتى يتوافر مال فى بيت مال المسلمين.

ولا تحسبن مالكا قد انقطع عن طلب العلم والمعرفة بعد أن تلقى عن الشيوخ الكثيرين ، وبعد أن صار أستاذا يتصدر مجلس التدريس ، فانه بعد أن تتلمذ لمن تتلمذ لهم من الشيوخ ، واستوعب ما يطيق من علمهم ورأيهم ، واصل الدراسة بنفسه ولم ينقطع عنها ، وكان يلاقى الوافدين على المدينة من العلماء والفقهاء ، فيتحدث اليهم ، ويتبادل معهم العلم والفقه ، وهو يجالس علماء المدينة كلما لاحت له فرصة المجالسة ، وهو يكاتب النائين من الفقهاء والعلماء فى مختلف مسائل الدين والعلم ، وهو بعد هذا كلّه يواصل النظر والبحث فيما بينه وبين نفسه ..

وبعبارة أخرى : كان للامام مالك دراســات مستقلة غير تلقيه عن شيوخه ، ونستطيع أن نسمى هذه الدراسات بالدراسات الشخصية أو الخاصة ، فهو كما ذكرنا يحرص على الالتقاء بكل من يستطيع الالتقاء به من العلماء ليباحثهم ويحاورهم ، وهو يبحث عن كل كتاب يبلغه خبره ليقتنيه أو يطالعه ، وهو يعقد مجالس لا يريد منها التدريس بقدر ما يريد منها استطلاع ما عند جلسائه فيها ، مما لا يكون عنده به علم أو معرفة ، وكان أغلب جلسائه فى هذه المجالس الخاصة هم فقهاء المدينة ، وكان يراسل العلماء والفقهاء ويباحثهم كتابة فى مختلف أمور الفقه والعلم

تلاميذ مالك :

كان أكثر الأئمة الذين تألقوا فى عصره تلاميذ له ، وكان تلاميذه من أقطار شتى ، ومن الواضح ــ كما سبق ــ أن أقامته بالمدينة ــ مثوى الحجيج من كل فج بعد مكة ــ يسرت أمامه تلاميذ كثيرين يأخذون عنه ، منهم من يطول به المقام ، ومنهم من يقصر عنده زمن تلقيه ، وقد ساعد على كثرة تلاميذه أيضا أنه كان معمرا ، حيث عاش تسعين عاما أو نحوها

وقد روى عنه من شيوخه التابعين : الزهرى ، وأيوب السختيانى ، وأبو الأسود ، وربيعة بن أبى عبد الرحمن ، ويحيى بن سعيد الأنصارى ، وموسى بن عقبة ، وهشام بن عروة

ومن غير التابعين : نافع بن أبى نعيم ، ومحمد بن عجلان ، وسالم بن أبى أمية ، وأبو النضر مولى عمر بن عبدالله ، وغيرهم

ومن أقرانه : سفيان الثورى ، والليث بن سعد ، وحماد بن سلمة ، وحماد بن زيد ، وسفيان بن عيينة ، وأبو حنيفة ، وأبو يوسف القاضى ، وشريك ، وابن لهيعة ، واسماعيل بن أبى كثير ، وغيرهم

ومن تلاميذه أيضا : عبدالله بن وهب ، وعبد الرحمن بن القاسم ، وأشهب بن عبد العزيز ، وأسد بن الفرات ، وعبد الملك بن الماجشون ، وعبدالله بن عبد الحكم

وقد ذكر النووى أسماء كثيرين ممن سمعوا منه ، ثم قال : « وخلائق آخرون » ! ..

وقال محمد بن الحسن الشيبانى تلميذ أبى حنيفة المشهور : « أقمت بباب مالك ثلاث سنين ، وسمعت نيفا وسبعمائة حديث لفظا »

مالك والحكام :

كان مالك يدعو العلماء الى الدخول على السـلاطين لدعوتهم الى الخير ، ونهيهم عن الشر ، وكان يقول : « انما يدخل العالم على السلطان لذلك » ..

وقد دخل مالك على هارون الرشيد ووعظه ، وذكره بأن الفاروق عمر ابن الخطاب كان ينفخ على النار فى عام المجاعة « عام الرمادة » . ثم يقول له : « وقد رضى الله منكم بدون هذا » ..

ولقد وعظ الخليفة المهـدى حينما طلب منه أن يوصيه فقـال له : « أوصيك بتقوى الله وحده ، والعطف على أهل بلد رسول الله صلى الله عليه وسلم وجيرانه ، فانه بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « المدينة مهاجرى ، وبها قبرى ، وبها مبعثى ، وأهلها جيرانى ، وحقيق على أمتى حفظى فى جيرانى ، فمن حفظهم كنت له شهيدا وشفيعا يوم القيامة » ..

ووعظ أحد الولاة فقال له : « افتقد أمور الرعية فانك مسئول عنهم ،

فان عمر بن الخطاب قال : والذى نفسى بيده لو هلك جمل بشاطىء الفرات ضياعا ، لظننت أن الله يسألنى عنه يوم القيامة »

وأرسل الى أحد الخلفاء يوصيه فقال له : « اعلم أن الله تعالى قد خصك من موعظتى اياك بما نصحتك به قديما ، وأتيت لك فيه ما أرجو أن يكون الله تعالى جعله لك سعادة ، وأمرا جعل سبيلك به الى الجنة . فلتكن ــ رحمنا الله واياك ــ فيما كتبته اليك ، مع القيام بأمر الله ، وما استرعاك الله من رعيته ، فانك المسئول عنهم : صغيرهم وكبيرهم ، وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم : « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » ..

وروى فى بعض الحديث أنه يؤتى بالوالى ويده مغلولة الى عنقه ، فلا يفك عنه الا العدل ، وكان عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه يقول : والله ان هلكت سخلة (١) بشط الفرات ضياعا لكنت أرى الله تعالى سائلا عنها عمر ..

وحج عمر عشر سنين ، وبلغنى أنه ما كان ينفق فى حجه الا اثنى عشر دينارا ، وكان ينزل فى ظل الشجرة ، ويحمل على عنقه الدرة (٢) ، ويدور فى السوق يسأل عن أحوال من حضرها ومن غاب عنها

ولقد بلغنى أنه وقت أصيب حضر أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ، فأثنوا عليه ، فقال : المغرور من غررتموه ، لو أن ما على وجه الأرض ذهب لافتديت به من أهوال المطلع (٣)

فعمر رحمه الله تعالى كان مسددا موفقا ، مع ما قد شهد له النبى صلى الله عليه وسلم بالجنة ، ثم هو مع هذا خائف لما تقلد من أمور المسلمين ، فكيف بمن قد علمت ؟

فعليك بما يقربك الى الله ، وينجيك منه غدا ، واحذر يوما لا ينجيك فيه الا عملك ، وليكن لك أسوة بمن قد مضى من سلفك ، وعليك

---

(١) السحلة : الشاة الصغيرة
(٢) الدرة : شىء كالعصا يضرب بها
(٣) المطلع : يريد به الموقف يوم القيامة أوما يشرف عليه من أمر الاخرة عقيب الموت ، شبهه بالمطلع ، وهو مكان الاطلاع من موضع عال

بتقوى الله ، فقدمه حيث هممت ، وتطلع فيما كتبت به اليك فى أوقاتك كلها ، وخذ نفسك بتعاهدها والأخذ به والتأدب عليه ، واسأل‌الله التوفيق والرشاد ان شاء الله تعالى »

ونلاحظ فى هذه النصائح عدة أمور ، منها ميلها الى الايجاز والتركيز، وهذا تصرف حسن من مالك ، لأن طويل الكلام ينسى بعضه بعضا

ومنها أنه يذكر بعمل السلف الصالح فى صدر الأمة ، وهو يتخذ هنا من عمر بن الخطاب مثلا وقدوة ، ويطالب الخليفة بأن يأتم بهذا الخليفة المصلح ، واذا كان لا يستطيع أن يلحقـه ، فلا أقل من أن يسـير فى اتجاهه ، والأمة تقنع منه بهذا ، وان لم يبلغ مبلغ عمر

ومنها أن عناية مالك بأمور الناس واصلاح شئونهم أوضح من عنايته بالاصلاح الشخصى أو الذاتى للمنصوح ، فهو يدعو الى خدمة الناس ومعاونة المحتاجين ، والاقتداء فى هذا بعمر الذى كان ينفخ على النـار للفقراء الجائعين فى عام الرمادة ، وهو يدعو الى العناية بكل صغير وكبير من شئون الرعية ، فان الله تعالى سيحاسبه على كل شىء ، حتى ولو كانت سخلة ــ أى شاة صغيرة ــ تضيع على شط الفرات كما قال عمر رضى الله عنه ..

وهو يدعو الى العطف على أهل بلد الرسول عليه الصلاة والسلام ، لأنهم جيرانه ، وحق الجار فى الاسلام كبير فكيف بجيران الرسول

وهو يدعو الى اهتمام الحاكم بأمر المحكومين ، لأنه راع ، وكل راع مسئول عن رعيته

وهو يدعو الى العدل والاقتصاد فى النفقات ، حتى تبذل الأموال فى مصالح الأمة ومنافع المجتمع

ومن الأمور التى نلاحظها فى هذه الوصايا أيضا أن مالكا لا يخلط الوصية بغيرها من الثناء على الحاكم ، أو الاطراء للخليفة ، فهو ينزه وصاياه عن المديح والتمجيد .. ولا عجب فقد كان ينهى عن اسماع الخلفاء مدائح فيهم أو ثناء عليهم ، ويحذر الممدوحين أنفسهم من عقابيل هـذا

المديح .. ولقد كان مالك عند الحاكم مرة ، ووجد أحد الحاضرين يثنى عليه فقال للحاكم :

« اياك أن يغرك هؤلاء بثنائهم عليك ، فان من أثنى عليك وقال فيك من الخير ما ليس فيك ، أوشك أن يقول فيك من الشر ما ليس فيك ، فاتق الله فى التزكية منك لنفسك ، ولا ترض بها من أحد يقولها لك فى وجهك ، فانك أنت أعرف بنفسك منهم ، فانى بلغنى أن رجلا مدح عند النبى صلى الله عليه وسلم فقال : قطعتم ظهره أو عنقه ، لو سمعها ما أفلح . وقال النبى صلى الله عليه وسلم : احثوا التراب فى وجوه المداحين » ..

والرائع فى هذه العظة أنه لم يتجه بالمطالبة بالانتهاء عن المدح الى المادحين ، بل طالب الممدوحين بمقاومة هذا المدح وازالته ، وذكرهم بأن الابقاء على هذا فيه ضرر لهم لا للمادحين ، لأن المادحين الذين يقولون فيهم اليوم من الخير ما ليس موجودا ، خليقون بأن يعودوا عما قليل فيقولوا فيهم من الشر ما ليس موجودا كذلك !

واذا كان مالك يدعو الى الدخول على السلاطين لنصحهم وارشادهم ، ويرى عدم الخروج عليهم ولو انحرفوا ، لأن الانحراف المحدود خير من الفتنة الشعواء ، فان ذلك لا يعنى أنه كان يذل نفسه ، أو يهين كرامتها ، أو يخادع فى دينه

لقد كان مالك صادعا بكلمة الحق ، جريئا فى تبليغ ما يؤمن به ، وحدث ذات مرة أن نهاه هارون الرشيد عن التحديث بحديث نبوى معين ، فرفض أن ينصاع لأمره ، وتلا قول الله تبارك وتعالى : « ان الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس فى الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون »

وكان مالك يصون علمه عن الابتذال ، ويحفظ مكانته من التعرض للهوان ، ولقد بعث اليه هارون الرشيد وقال له : يا أبا عبدالله ، ينبغى

أن تختلف الينا « أى تزورنا » حتى يسمع صبياننا الموطأ (١)

فرد عليه مالك يقول : أعز الله أمير المؤمنين ، ان هذا العلم منكم خرج (٢) .. فان أنتم أعززتموه عز ، وان أذللتموه ذل ، والعلم يؤتى ولا يأتى ..

فقال له هارون : صدقت . ثم قال لولديه : اخرجا الى المسجد حتى تسمعا مع الناس . فقال مالك : بشريطة ألا يتخطيا رقاب الناس ، ويجلسا حيث ينتهى بهما المجلس .. فحضرا على هذا الشرط

وكذلك حدث لما حج الرشيد أن أرسل الى مالك يطلب منه أن يحمل اليه كتاب « الموطأ » حتى يسمعه منه ، فرفض مالك أن يسعى به ، وطلب من الرشيد أن يسعى هو الى العلم ، فقال الرشيد له موافقا : « والله لا نسمع الا فى بيتك » !

وما دمنا قد عرضنا لموقف مالك من الحكام ورجال السياسة ، فلنذكر طرفا من آرائه السياسية :

كان مالك يبغض سب أحد من الصحابة رضوان الله عليهم ، ولا يفاضل بينهم ، ويقدم أبا بكر وعمر وعثمان (٣) على هذا الترتيب ، ولا يخص بيتا بالخلافة .. ويرى أن الاستخلاف فى الخلافة جائز ، بدليل أن أبابكر استخلف من بعده عمر ، ولكن يحتاج انعقاد هذا الاستخلاف الى بيعة من المسلمين ، ويجيز خلافة المفضول ــ أى الذى يوجد فى الأمة من هو أفضل منه ــ بشرط أن يعدل المفضول ويستقيم ، وكان يكره الفتن والخروج على الخليفة

محنة مالك :

تعرض مالك فى عهد أبى جعفر المنصور للضرب والتعذيب والاهانة ، واختلف الرواة فى السبب الذى دعا الى هذه المحنة ، فهناك من يقول ان السبب هو أن مالكا كان يحدث بالحديث النبوى الذى يقول :

(١) هو الكتاب الذى جمع فيه مالك الاحاديث والفقه
(٢) كأنه يشير بهذا الى أن هارون ينتسب الى آل الرسول
(٣) ولا ندرى لماذا ينسى على بن أبى طالب رابع الخلفاء رضى الله عنهم أجمعين

« ليس على مستكره طلاق » . وكان المنصور لا يريد التحديث بهذا الحديث ، كيلا يتخذه أعداؤه مستندا لتخلص الناس من بيعة المنصور ما داموا مكرهين عليها

فنهى المنصور مالكا عن التحديث بهذا الحديث فأبى ، فكان اباؤه سببا لايذائه ..

وهناك من يورد سببا قريبا من السبب السابق ، وهو أن بعض الناس استفتوا مالكا فى حكم الخروج مع محمد بن أبى عبدالله الحسن ضد العباسيين ، مع وجود بيعة من هؤلاء لأبى جعفر المنصور ..

فقال لهم مالك : انما بايعتم مكرهين ، وليس على مكره يمين . فسارعوا الى مناصرة محمد ، وسعى بعض الساعين فقالوا للمنصور : ان مالكا لا يرى ايمان بيعتكم هذه بشيء ، وغضب أبو جعفر من ذلك وأحضره وجرده ، وضربه بالسياط حتى انخلعت كتفه ، وذلك سنة سبع وأربعين ومئة ..

وهناك من يقول ان سبب المحنة هو أن مالكا كان يقول بحرمة زواج « المتعة » مع القول بأن ابن عباس قد أجازها وابن عباس هو رأس أسرة الخلفاء العباسيين ، فغضب العباسيون عليه وآذوه

وهناك من يقول ان سببها هو أن مالكا كان يقدم عثمان بن عفان على على بن أبى طالب ، رضى الله عن عثمان ، ورضى الله عن على !

هذه طائفة من الأقوال والروايات فى سبب المحنة ، وأصحها وأشهرها هو أن مالكا كان يحدث فى المدينة بحديث : « ليس على مستكره طلاق » . وكان الوالى على المدينة حينئذ هو « جعفر » ابن عم الخليفة المنصور ، فسعى اليه الوشاة سنة ست وأربعين ومئة يقولون له : ان مالكا يفتى بأنه لا يمين على مستكره ، وهذا معناه أن ما أبرمتموه من بيعة الناس بالاستكراه ينقضه مالك بفتواه !

وأراد جعفر أن يبادر بالبطش بمالك ، وليس بيده بينة الا ما نقله السعاة ، فنهاه بعض ناصحيه عن التسرع وقال له عن مالك : « انه أكرم

الناس على الخليفة » . فدس اليه جعفر من يسألونه عن رأيه فى الموضوع . فأبدى رأيه بصراحة ، وشهد عليه من دسهم جعفر ، فأمر باحضاره ، وضربه سبعين سوطا أرهقته وأضجعته

وثار الناس فى المدينة وهاجوا ، وبلغ بهم الغضب مبلغه لانتهاك حرمة الامام مالك ، وبلغ الخبر مسمع المنصور فقلق منه ، وأعظمه اعظاما شديدا ، وأنكره وأكد أنه لم يأمر به ولم يعلم عنه ، وأصدر قرارا بعزل ابن عمه « جعفر » من ولاية المدينة ، وأمر باحضاره من المدينـة الى بغداد على قتب « أى برذعة صغيرة على قدر سنام الجمل » .. ولعله فعل ذلك اطفاء للفتنة ، وتسكينا لثورة أهل المدينة

وأرسل الى الامام مالك يستقدمه اليه فاعتذر ، فكتب اليه بأن يقابله فى موسم الحج المقبل ، والتقى الامام بالخليفة فى « منى » ، فلما دخل عليه مالك نزل المنصور عن مجلسه الذى يقعد فيه الى البساط الموضوع دونه ، وكان قد لبس ثيابا قصيرة لا تشبه ثياب مثله (١) ، وكأنه فعل هذا تواضعا لدخول مالك عليه ، ولم يكن معه فى القبة الا حارس بيده سيف ..

ولما دنا مالك رحب به المنصور وقربه ، وقال له يستدنيه : ها هنا الى . فأراد مالك أن يجلس حيث انتهى فقال له المنصور يستدنيه أيضـا : ها هنا . ولم يزل يدنيه منه حتى أجلسه وقد لصقت ركبتا مالك بركبتى الخليفة ..

وبدأ المنصور كلامه ، فقال يعتذر الى مالك عن ضربه وايذائه :

ـ والله الذى لا اله الا هو ـ يا أبا عبدالله (٢) ـ ما أمرت بالذى كان ، ولا علمته قبل أن يكون ، ولا رضيته اذ بلغنى . وهنا حمد مالك ربه تعالى على كل حال ، وصلى على الرسول صلى الله عليه وسلم ، ونزه الخليفة عن الأمر بذلك أو الرضا به

وواصل الخليفة اعتذاره وتقديره لمالك ، فقال : يا أبا عبدالله ، لا يزال

---

(١) القصة ذكرها كتاب « الامامة والسياسة »
(٢) هذه كنية الامام مالك

أهل الحرمين بخير ما كنت بين أظهرهم ، وانى أخالك أمانا لهم من عذاب الله وسطوته ، ولقد رفع الله بك عنهم وقعة عظيمة ، فانهم أسرع الناس الى الفتن وأضعفهم عنها ، قاتلهم الله أنى يؤفكون ، وقد أمرت أن يؤتى بجعفر عدو الله من المدينة على قتب ، وأمرت بضيق محبسه والمبالغة فى امتهانه ، ولا بد أن أنزل به من العقوبة أضعاف ما ناله منك

فرد مالك قائلا : عافى الله أمير المؤمنين وأكرم مثواه ، قد عفوت عنه لقرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقرابته منك

فقال المنصور : وأنت عفا الله عنك ووصلك

ثم يصف الامام مالك ما كان عقب هذا فيقول عن المنصور : « ثم فاتحنى فيمن مضى من السلف والعلماء فوجدته أعلم الناس بالناس ، ثم فاتحنى فى العلم والفقه فوجدته أعلم الناس بما اجتمعوا عليه ، وأعرفهم بما اختلفوا فيه ، حافظا لما روى ، واعيا لما سمع »

ثم قال المنصور لمالك : يا أبا عبدالله ، ضع هذا العلم ودونه ، ودون منه كتبا ، وتجنب فيه شدائد عبدالله بن عمر ، ورخص عبدالله بن عباس ، وشواذ عبدالله بن مسعود ، واقصد الى أوسط الأمور ، وما اجتمع عليه الأئمة والصحابة رضى الله عنهم ، لنحمل الناس ان شاء الله على علمك وكتبك ، ونبثها فى الأمصار ، ونعهد اليهم الا يخالفوها ، ولا يقضوا بسواها ..

فقال مالك : أصلح الله الامير ، ان أهل العراق لا يرضون علمنا ، ولا يرون فى علمهم رأينا

فرد المنصور قائلا : يحملون عليه ، وتضرب عليه هاماتهم بالسيف ، وتقطع عليه ظهورهم بالسياط ، فتعجل بذلك وضعها ، فسيأتيك محمد ابنى المهدى العام القابل ان شاء الله الى المدينة ليسمعها منك ، فيجدك وقد فرغت من ذلك ان شاء الله

وكأن مالكا قد هم بالحديث لولا أن ولدا صغيرا للمنصور طلع من قبة مجاورة ، وأقبل عليهما .. ولكن الصبى حينما رأى مالكا فزع ولم

يتقدم ، بل تقهقر ، فقال له أبوه المنصور : تقدم يا حبيبى ، انما هو أبو عبدالله فقيه أهل الحجاز

ثم التفت المنصور الى مالك وقال له : أتدرى لم فزع الصبى ولم يتقدم ؟ قال مالك : لا .. قال المنصور : والله استنكر قرب مجلسك منى ، اذ لم ير به أحدا غيرك قط ، فلذلك تقهقر

ثم أمر المنصور لمالك بألف دينار ، ولابنه محمد بألف دينار ، وقام فودعه ، وأرسل اليه بكسوة ، وفى رواية أنه أمر لمالك بستة آلاف ، وفى رواية أنه أمر له بخمسة آلاف ، ولعل فى هاتين الروايتين لونا من المبالغة ، وينبغى أن نتذكر أن المنصور كان بخيلا ، وكانوا يسمونه من بخله « الدوانيقى » ! ..

ويروى أن المهدى قدم على مالك بعد ذلك وسأله عما صنع ، فقدم اليه ما دونه من كتب ، وهى كتب « الموطأ » ، فأمر المهدى بنسخها ، وقرئت على مالك ، ولما تمت القراءة أمر لمالك بأربعة آلاف دينار ، ولابنه بألف دينار ..

هذه قصة المحنة التى أصابت الامام مالكا ، فكانت مصدر ابتلاء له فى أول أمرها ، ثم عادت عليه بالخير فى عاقبتها ، فقد زادته اجلالا ومحبة عند الناس ، وزادته مكانة وترضية عند الخليفة المنصور الذى كان يأمر بالمناداة على الناس فى موسم الحج : لا يفتى الناس الا مالك وابن أبى ذئب ! ..

وابن أبى ذئب هذا هو أبو الحارث محمد بن عبد الرحمن بن المغيرة المدنى ، من تابعى التابعين ، روى عنه جماعات من الأئمة الكبار تابعى التابعين ، وكان ثقة صدوقا ورعا ، يسمونه « فقيه المدينة » .. ولد سنة ثمانين ، وتوفى بالكوفة سنة تسع وخمسين ومئة ، وكان يفتى بالمدينة

ولما دخل الخليفة المهدى مسجد الرسول قام الناس كلهم له ، الا ابن أبى ذئب ، فقال له المسيب بن زهير : قم ، هذا أمير المؤمنين . فأجاب : انما يقوم الناس لرب العالمين . فقال المهدى للمسيب : دعه ، فلقد قامت كل شعرة فى رأسى !

كتاب الموطأ :

كتاب الموطأ هو أول الكتب الاسلامية الكاملة تأليفا ــ بعد كتاب المجموع لزيد ــ وكلمة « الموطأ (١) » معناها الطريق السهل الممهد المعبد ، وهو أعظم ما كتب الامام مالك ، وقد دعاه الى تأليفه ظهور الأقوال المدونة لأهل الفرق والأهواء ، كما أن قوة الحفظ والرواية ضعفت ، فظهرت الحاجة الى التقييد والتسجيل حتى لا يضيع العلم أو ينسى ، وقد جمع فيه الأحاديث وأقوال الصحابة والتابعين

ويروى كما سبق أن أبا جعفر المنصور هو الذى حرضه على تأليفه ، اذ قال له : ضع للناس كتابا أحملهم عليه . فراجعه فى ذلك ، فقال المنصور : ضعه فما أحد اليوم أعلم منك . فوضع الامام مالك كتابه « الموطأ » (٢)

وفى رواية أخرى أن المنصور قال له فيما قال : اجعل العلم يا أبا عبدالله علما واحدا . فقال له مالك : ان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم تفرقوا فى البلاد فأفتى كل فى مصره بما رأى ، وان لأهل هذا البلد « مكة » قولا ، ولأهل المدينة قولا ، ولأهل العراق قولا قد تعدوا فيه طورهم ..

فقال أبو جعفر : أما أهل العراق فلست أقبل منهم صرفا ولا عدلا (٣). وانما العلم علم أهل المدينة ، فضع للناس العلم

فقال مالك : ان أهل العراق لا يرضون علمنا ، فرد أبو جعفر قائلا : يضرب عليه عامتهم بالسيف ، وتقطع عليه ظهورهم بالسياط

وكان أبو جعفر يقصد من وراء ذلك توحيد الأقضية والأحكام فى مختلف الأقطار الاسلامية يومئذ ، وكان ذلك سنة ثمان وأربعين ومئة ، فأقبل مالك يجمع فى كتابه الحديث والسنة وأقوال أهل المدينة وآراءه أيضا . واستمر يشتغل فيه الى سنة تسع وخمسين ومئة ، وروى أنه

---

(١) سمى بذلك لان المنصور طلب منه أن يكون الكتاب وسطا معدلا

(٢) لا مانع من أن يكون السبب فى تأليف « الموطأ » هو هذا مع ما تقدم قبله من أسباب.

(٣) أى لا أقبل منهم توبة ولا فديه

استمر يراجع فيه ويمحصه ويحققه حتى استغرق فى ذلك أربعين سنة (١) ومات المنصور قبل أن يتم الكتاب.

وكان مالك يختار المجمع عليه ، وينقد الرجال نقدا دقيقا عميقا ، فهو مثلا يقول : « لا يؤخذ العلم من أربعة ويؤخذ ممن سواهم : لا يؤخذ من سفيه ، ولا يؤخذ من صاحب هوى يدعو الى بدعة ، ولا من كذاب يكذب فى أحاديث الناس ، وان كان لا يتهم على حديث رسول الله صلى عليه وسلم ، ولا من شيخ له فضل وصلاح وعبادة ، اذا كان لا يعرف ما يحمل ويحدث به »

ويقول أيضا : « أدركت بهذه البلدة أقواما لو استقى بهم المطر لسقوا ، قد سمعوا العلم والحديث كثيرا ، ما حدثت عن أحد منهم شيئا ، لأنهم كانوا ألزموا أنفسهم خوف الله ، وهذا الشأن (أى رواية الحديث والفتوى) يحتاج الى رجل معه تقى وورع وصيانة ، واتقان وعلم وفهم ، فيعلم ما يخرج من رأسه ، ويصل اليه ، فاما رجل بلا اتقان ولا معرفة ، فلا ينتفع به ، ولا هو حجة ، ولا يؤخذ عنه » !

وقد عرض هارون الرشيد على مالك أن يعلق كتابه « الموطأ » على الكعبة تنويها به وجمعا للناس عليه ، فأبى مالك وقال : « يا أمير المؤمنين ، أما تعليق الموطأ فى الكعبة فان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم اختلفوا فى الفروع ، وافترقوا فى البلدان ، وكل عند نفسه مصيب » ..

وأكد مالك هذا حين أبان أن اختلاف الفقهاء رحمة ، فقال للرشيد : « يا أمير المؤمنين ، ان اختلاف العلماء رحمة من الله على هذه الأمة ، كل يتبع ما صح عنده ، وكل على هدى ، وكل يريد الله » !

وينبغى أن نلاحظ أن كتاب « الموطأ » ليس كتاب حديث بالمعنى المألوف لكتب الأحاديث ، بل هو كتاب فقه ، فقد كان هم مالك فيه أن يبين اجماع أهل المدينة ، أو الفقه المدنى بتعبير آخر ، وكثيرا ما يذكر فيه

---

(١) قال صفوان بن عمر : « عرضنا على مالك الموطأ فى أربعين يوما . فقال : كتاب الفته فى أربعين سنة أخذتموه فى أربعين يوما . قل ما تفقهون فيه ».

فتاوى لأئمة فى مسألة موجودة أو مفروضة ، وقد جمع فيه أدلة السنة المدنية ، وسرد مسائل الفقه على أساسها ، لأن عمل أهل المدينة له قيمة كبيرة عند الامام مالك كما عرفنا

ويعد مالك فى موطأه شارحا للأحاديث من وجهة النظر العملية ، ولم يخل الموطأ من استخدام مالك للرأى عندما لا يجد الحديث

ولعل الأحسن أن نستمع الى الامام مالك يصور طريقته فى كتابه ببيانه ، فيقول :

« أما أكثر ما فى الكتاب فرأى لعمرى ما هو برأى ، ولكن سماع من غير واحد من أهل العلم والفضل والأئمة المهتدى بهم الذين أخذت عنهم ، وهم الذين كانوا يتقون الله تعالى ، فكثر على فقلت رأيى ، اذ كان رأيهم رأى الصحابة الذين أدركوهم عليه ، وأدركتهم أنا على ذلك ، فهذا وراثة توارثوها قرنا عن قرون الى زماننا ، وما كان رأيا ، فهو رأى جماعة ممن تقدم من الأئمة

وما كان فيه الأمر المجتمع عليه فهو ما اجتمع عليه من قول أهل الفقه والعلم لم يختلفوا فيه ، وما قلت : الأمر عندنا ، فهو ما عمل الناس به عندنا ، وجرت به الأحكام وعرفه العام والخاص ، وكذلك ما قلت فيه : ببلدنا ، وما قلت فيه : بعض أهلها ، فهو شىء استحسنته من قول العلماء (١) ..

واما ما لم أسمعه منهم فاجتهدت ونظرت على مذهب من لقيته ، حتى وقع ذلك موقع الحق أو قريبا منه ، حتى لا يخرج عن مذهب أهل المدينة وآرائهم ، وان لم أسمع ذلك بعينه ، فنسبت الرأى الى بعد الاجتهاد مع السنة ، وما مضى عليه عمل أهل العلم المقتدى بهم ، والأمر المعمول به عندنا منذ لدن رسول الله صلى الله عليه وسلم والأئمة الراشدين مع من لقيت ، فذلك رأيهم ما خرجت الى غيره »

ولقد قال الامام الشافعى عن كتاب الموطأ : « ما فى الأرض كتاب من

---

(١) قال هذا الكلام حينما قيل له : ماذا تقصد بقولك فى الموطأ : الامر المجتمع عليه – الامر عندنا وببلدنا – أدركت أهل العلم – سمعت أهل العلم .. الخ ؟

العلم أكثر صوابا من موطأ مالك » . وقد روى النووى ذلك القول ثم أضاف اليه قوله : « قال العلماء : انما قال الشافعى هـذا قبل وجود صحيحى البخارى ومسلم ، وهما أصح من الموطأ باتفاق العلماء »

ولقد عنى بالكلام على « الموطأ » وأحاديثه ورجاله ، والتأليف فى ذلك ، عدد كثير من المالكية وغيرهم ، حتى بلغوا تسعين رجلا

ومما قيل شعرا فى مدح « الموطأ » هذه الأبيات لسعدون الوارجينى :

اذا أحببت أن تدعى لدى النـاس عالما
فلا تعد ما تحوى من العلم « يثرب »
أتتـــرك دارا كان بين بيوتهـــا
يروح ويغـدو جبرئيـــل المقرب ؟
ومات رســول الله فيهـا ، وبعـــده
بســـنته أصـــحابه قـــد تأدبوا
وفرق شـــمل العـــلم فى تابعيهم
فكل امرىء منهم له فيـــه مذهب.
فخلصــه بالســـبك للناس « مالك »
ومنـــه صحيح فى المجس وأجرب
فبـــادر موطا مالك قبـــل فوته
فمـــا بعـــده ان فات للحق مطلب.
ودع للمـــوطا كل عـــلم تريده
فان الموطا الشمس ، والغـير كوكب.
ومن لم يكن كتب الموطا ببيتــــه
فـــذاك من التوفيـــق بيت مخيب.
جـــزى الله عنـــا فى موطاه مالكا
بأفضـــل ما يجزى اللبيب المهـــذب
لقد فاق أهل العـــلم حيا وميتـــا
فصارت به الأمثـال فى الناس تضرب.

وللامام مالك كتب أخرى غير الموطأ منها : تفسير غريب القرآن ، رسالة فى الرد على القدرية ، رسالة فى الأقضية ، رسالة فى الفتوى الى أبى غسان ، كتاب السرور ، رسالته الى الرشيد فى الآداب والمواعظ ، (والبعض ينكر هذه الرسالة) .. كتاب فى النجوم وحساب مدار الزمان ومنازل القمر ، كتاب السير ، رسالته الى الليث بن سعد .

شهادات السابقين لمالك :

١ ــ يقول محمد بن عبد الحكم : اذا انفرد مالك بقول لم يقله غيره فقوله حجة ..

٢ ــ وقال ابن مهدى : ما بقى على وجه الأرض آمن على حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم من مالك .

٣ ــ وقال الشافعى : اذا جاء الأثر فمالك النجم

٤ ــ وقال أيوب بن سويد : ما رأيت أحدا قط أجود حديثا من مالك ابن أنس ..

٥ ــ وقال أبو حاتم الرازى : مالك ثقة ، امام أهل الحجاز ، وهو أثبت أصحاب الزهرى ، واذا اختلفوا فالحكم لمالك ، ومالك تقى الرجال، نقى الحديث ، وهو أتقن حديثا من الثورى والاوزاعى .

٦ ــ وقال أبو مصعب : كانوا يزدحمون على باب مالك بن أنس ، فيقتتلون على الباب من الزحام ، وكنا نكون عند مالك فلا يكلم هذا هذا ، ولا يلتفت ذا الى ذا ، والناس قائلون برءوسهم هكذا (أى يمدونها للمبالغة فى الانصات) وكانت السلاطين تهابه وهم قائلون ومستمعون ، وكان يقول فى المسألة : لا أو نعم ، فلا يقال له : من أين قلت هذا ؟

٧ ــ وقال النووى عنه : أجمعت طوائف العلماء على امامته وجلالته وعظم سيادته ، وتبجيله وتوقيره ، والاذعان له فى الحفظ والتثبيت ، وتعظيم حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم .

كلمات مالك :

للامام مالك طائفة من الكلمات الوجيزة البليغة التى تصلح أن تكون حكما واعظة مهذبة ، ونذكر من هذه الكلمات ما يلى :

١ ــ ان هذا العلم دين ، فانظروا عمن تأخذونه منه

٢ ــ لا خير فيمن يرى نفسه فى حال لا يراه الناس لها أهلا

٣ ــ العلم نور لا يأنس الا بقلب تقى خاشع

٤ ــ ما زهد أحد فى الدنيا الا أنطقه الله بالحكمة

٥ ــ خير الأمور ما كان منها ضاحيا بينا ، وان كنت فى أمرين أنت منهما فى شك فخذ بالذى أوثق

٦ ــ من أحب أن يجيب عن مسألة فليعرض نفسه على الجنة والنار ، وكيف يكون خلاصه فى الآخرة

٧ ــ مثل المنافقين فى المسجد كمثل العصافير فى القفص اذا فتح بابه القفص طارت العصافير

٨ ــ بلغنى ان العلماء يسألون يوم القيامة عما يسأل عنه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام

٩ ــ اذا مدح الرجل نفسه ذهب بهاؤه

١٠ ــ ليس العلم بكثرة الرواية ، انما هو نور يضعه الله فى القلب

١١ ــ طلب العلم حسن جميل ، ولكن انظر ما يلزمك من حين تصبح الى أن تمسى فالزمه

١٢ ــ حق على من طلب العلم أن يكون له وقار وسكينة وخشية

١٣ ــ لا ينبغى للعالم أن يتكلم بالعلم عند من لا يطيقه ، فانه ذل واهانة للعلم ..

١٤ ــ ينبغى للقاضى ألا يترك مجالسة العلماء ، وكلما نزلت به نازلة ردها اليهم وشاورهم

١٥ ــ اذا عرض لك أمر فاتئد ، وعاير على نظرك بنظر غيرك ، فان العيار يذهب عيب الرأى ، كما تذهب النار عيب الذهب

١٦ ــ مازال الناس هكذا : لهم عدو وصديق ، ولكن نعوذ بالله من تتابع الالسنة كلها

١٧ ــ ما أحب لاحد أنعم الله عليه الا أن يرى أثر نعمته عليه ، وخصوصا أهل العلم ينبغى لهم أن يظهروا مروءاتهم فى ثيابهم اجلالا للعلم ..

١٨ ــ التواضع فى التقى والدين ، لافى اللباس .. انا كنا تتواضع فى التقى والدين لا فى اللباس

١٩ ــ من علم أن قوله من عمله قل كلامه

٢٠ ــ الزهد فى الدنيا طلب التكسب وقصر الأمل

٢١ ــ اذا لم يكن للانسان فى نفسه خير لم يكن للناس فيه خير ..

٢٢ ــ لا يصلح المرء حتى يترك ما لا يعنيه ، ويشتغل بما يعنيه ، فاذا كان كذلك أوشك أن يفتح الله تعالى قلبه له

بين مالك والليث بن سعد:

الليث بن سعد هو الامام البارع أبو الحارث الليث بن سعد ابن عبد الرحمن المصرى ، من تابعى التابعين ، روى عن الكثير وروى عنه الكثير ، وأجمع العلماء ــ كما يذكر النووى ــ على جلالته وامامته ، وعلو مرتبته فى الفقه والحديث ، وهو امام أهل مصر فى زمانه ..

وقال عنه الشافعى : « كان الليث بن سعد أفقه من مالك ، الا أنه ضيعه أصحابه » . وقال ابن حنبل فيه : « الليث كثير العلم صحيح الحديث ، ليس فى هؤلاء المصريين أثبت منه ، ما أصح حديثه » !

وقد ولد الليث سنة ثلاث وتسعين ــ أى فى السنة التى ولد فيها الامام مالك ــ وكان ثقة كثير الحديث الصحيح ، واستقل بالفتوى فى زمانه ، وكان سريا نبيلا سخيا ، يجيد النحو والعربية ، ويحفظ الحديث والشعر ، وكان حسن الذاكرة

ولما قدم الليث المدينة أهدى اليه مالك من طرف المدينة ، فبعث اليه الليث ألف دينار ، وكان الليث غنيا كبير الثروة ، حيث بلغ دخله فى السنة ثمانين ألف دينار . ويقال ان الليث كان يبعث الى مالك كل سنة بمئة دينار ..

وتوفى الليث سنة خمس وسبعين ومئة ــ أى قبل وفاة مالك بأربع سنوات ــ وقيل ان الليث توفى سنة ست وسبعين ومئة ، وقيل سنة سبع وسبعين ومئة

ونفهم من هذا أن الليث ومالكا كانا متعاصرين ، وكانا ممن عكفا على الحديث والفقه ، وكانا فى المكانة متقاربين ، وبينهما من مسافة البعد المكانى ما بين المدينة ومصر ، ومع ذلك كانت بينهما مكاتبات ومراسلات تدور حول الحديث والفقه والفتوى ، وكان مالك يجعل هذه المراسلات احدى وسائل الاستزادة من العلم والمعرفة

وقد اشتهرت فى التاريخ رسالة فقهية بعث بها مالك الى الليث ، ورد عليها الليث بأطول منها . وفى رسالة مالك نراه يعتب على الليث ، ويأخذ عليه فى رفق أنه أفتى بأشياء تخالف عمل أهل المدينة ، مع أن الناس ــ كما يعبر مالك ــ تبع لأهلها ، اذ أنها دار الهجرة ، وفيها نزل معظم القرآن ، ويشير مالك الى أن الخلفاء والصحابة والتابعين سلكوا سبيل السنن ولم يبتدعوا ، وكأنه يطلب بهذا من الليث أن يلتزم طريقهم ويتبع منهجهم ، ويرجوه أن يراجع نفسه فيما كتب وفيما أفتى

وهذه هى رسالة مالك :

« من مالك بن أنس الى الليث بن سعد :

سلام عليكم ، فانى أحمد الله اليك الذى لا اله الا هو . أما بعد : فعصمنا الله واياك بطاعته فى السر والعلانية ، وعافانا واياكم من كل مكروه

واعلم ــ رحمك الله ــ أنه بلغنى أنك تفتى الناس بأشياء مختلفة مخالفة لما عليه جماعة الناس عندنا ، وببلدنا الذى نحن فيه ، وأنت ــ فى أمانتك وفضلك ومنزلتك من أهل بلدك ، وحاجة من قبلك اليك ، واعتمادهم

على ماجاءهم منك ــ حقيق بأن تخاف على نفسك ، وتتبع ما ترجو النجاة باتباعه ، فان الله تعالى يقول فى كتابه : « والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم باحسان ، رضى الله عنهم ورضوا عنه ، وأعد لهم جنات تجرى تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم »

وقال تعالى : « فبشر عبادى الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب »

فانما الناس تبع لأهل المدينة ، اليها كانت الهجرة ، وبها تنزل القرآن ، وأحل الحلال وحرم الحرام اذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أظهرهم يحضرون الوحى والتنزيل ، ويأمرهم فيطيعونه ، ويسن لهم فيتبعونه ، حتى توفاه الله ، واختار له ما عنده ، صلوات الله وسلامه عليه ورحمته وبركاته ..

ثم قام من بعده أتبع الناس له من أمته ، من ولى الأمر من بعده بما نزل بهم ، فما عملوا أنفذوه ، وما لم يكن عندهم فيه علم سألوا عنه ، ثم أخذوا بأقوى ما وجدوا فى ذلك ، فى اجتهادهم وحداثة عهدهم ، وان خالفهم مخالف أو قال أمرا غيره أقوى منه وأولى ، ترك قوله وعمل بغيره

ثم كان التابعون من بعدهم يسلــكون تلك السبيل ، ويتبعون تلك السنن ، فاذا كان الأمر بالمدينة ظاهرا ومعمولا به لم أر لأحد خلافه ، للذى فى أيديهم من تلك الوراثة التى لايجوز انتحالها ولا ادعاؤها ..

ولو ذهب أهل الأمصار يقولون : هــذا العمل ببلدنا ، وهذا الذى مضى عليه من مضى منا ، لم يكونوا من ذلك على ثقة ، ولم يكن لهم من ذلك الذى جاز لهم ..

فانظر رحمك الله فيما كتبت اليك فيه لنفسك ، واعلم أنى أرجو ألا يكون دعانى الى ما كتبت به اليك الا النصيحة لله وحده ، والنظر لك والضن بك ، فأنزل كتابى منزلته ، فانك ان فعلت تعلم أنى لم آلك نصحا

وفقنى الله واياك لطاعته وطاعة رسوله فى كل أمر وعلى كل حال .. والسلام عليك ورحمة الله » ..

وكانت المسائل التى أشار الى بعضها مالك فى رسالته وأثبت الليث فى رده وجود الاختلاف فيها هى :

الأولى : الجمع بين الصلاتين ، أى أداء صلاتين متعاقبتين فى وقت واحد ، وهو جمع تقديم وجمع تأخير ، ولا جدال فى أن الجمع بين الظهر والعصر فى عرفة جمع تقديم ، والجمع بين المغرب والعشاء فى المزدلفة جمع تأخير ، سنة . ولكن الخلاف فى الجمع فى غير هذين الموضعين ، فالجمهور يجيزه اذا وجدت مسوغاته ، وأبو حنيفة يمنعه ..

واختلفوا فى الجمع بسبب المطر فى الحضر ، فأجازه الشافعى فى صلاة الليل والنهار ، وأجازه مالك فى صلاة الليل وحدها (المغرب والعشاء) ومنعه الليث مطلقا ..

الثانية : القضاء بشاهد واحد ويمين صاحب الحق ، فذهب مالك والشافعى وأحمد وداود وأبو ثور وفقهاء المدينة السبعة الى جواز ذلك فى الأموال ، ومنع أبو حنيفة والليث والثورى والأوزاعى وجمهور أهل العراق جواز ذلك فى شىء ..

الثالثة : متى يحق للمرأة أن تطالب بمؤخر الصداق (المهر) ؟ .. فأصحاب الرسول صلوات الله وسلامه عليه يقولون : انه لا يحل أجل المؤخر الا بالطلاق أو بالوفاة ، وهناك من يقول : انه ان اشترطت المرأة تقديم المهر كله وجب التقديم ، وان اشترط الزوج تأخيره كله كان له حق التأخير ..

الرابعة : الايلاء ، وهو أن يحلف الرجل ألا يقرب زوجته مدة أربعة أشهر أو أكثر أو يطلق ، وأشار القرآن الكريم اليه بقوله : « للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر فان فاءوا فان الله غفور رحيم ، وان عزموا الطلاق فان الله سميع عليم » . والفقهاء متفقون على أنه ان مضت المدة المذكورة دون أن يقربها يكون التفريق بينهما ، ولكن قال أبوحنيفة وأصحابه والثورى ان الطلاق يقع بانتهاء المدة ، وأما مالك والليث والشافعى وأحمد وأبو ثور وداود فقالوا : للزوج أن يفىء ويرجع الى زوجته ، وله أن يطلق

الخامسة : الزوجة اذا ملكها زوجها حق طلاقها وفوضه اليها ، فقال مالك وأبو حنيفة والشافعى والأوزاعى وجماعة هى بالخيار : ان شاءت اختارت زوجها فبقيت ، وان اختارت الطـلاق فى المجلس طلقت ، وقال ابن حزم : لا تملك شيئا ، لأن ما جعله الشارع بيد الرجل لايجوز أن نجعله بيد المرأة ..

السادسة : مسألة الرجل الذى تزوج أمة لغـيره ثم اشتراها ، أو الحرة التى تزوجت عبدا ثم اشترته ، فان الفقهـاء متفقون على وقوع الفسخ فى الحالتين ..

السابعة : الصلاة والخطبة فى الاستسقاء أيهما تقدم على الأخرى ، فمالك والشافعى يريان أن التقديم أو التأخير جائز ، والليث وأبو داود يقولان بتقديم الخطبة على الصلاة ..

الثامنة : متى يكون على الشريكين زكاة ؟ .. قال مالك وأبو حنيفة انه لا يجب عليهما زكاة حتى يكون لكل واحد منهما نصاب يملكه (أى يكون نصيبه وحده بالغا القدر الذى تجب فيه الزكاة) . وقال الليث والشافعى ان المال المشترك حكمه حكم مال رجل واحد ..

التاسعة : اذا حكم على رجل بالتفليس ، وكان قد اشترى عينا لم يقبض البائع له ثمنها كاملا ، بل قبض بعضه ، فقال مالك : ان شـاء رد البائع ما قبض وأخذ السلعة ، وان شاء حاص الغرماء فيها ، وقال الليث وجماعة ان قبض من الثمن شيئا فهو أسوة بالغرماء ..

العاشرة : سهم الفرس فى الغنيمة . قال أبو حنيفة يأخذ الفـارس سهمين ، سهما لنفسـه وسهما لفرسه ، وقال مالك والليث والأوزاعى وغيرهم يأخذ الفارس ثلاثة أسهم ، سهما لنفسه وسهمين لفرسه ، وقال أبو حنيفة : لا أجعل لبهيمة أكثر مما للانسان ! ..

***

هذه هى المسائل التى أشارت اليها رسالة مالك ، وفصل الحديث عنها رد الليث على مالك ، وقد ذكر الليث فى أول رده ما يفهمنا أنه كان قد

أرسل الى مالك كتبا لينظر فيها ويعتمدها ، ولم نقف عليها اذ لم تذكر فى رسالة مالك ؛ وقد أظهر الليث فى رده ارتياحه لملاحظة مالك عليه ، ووافقه على رأيه فى مكانة أهل المدينة ، ولكنه أشار الى أن الاجتهاد كان أيضا سنة السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم باحسان ، وذلك اذا لم يكن هناك نص ، وأشار الى أن أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم قد اختلفوا فى عدة مسائل ، وكذلك التابعون ، ثم يعرض الليث الأمور المختلف عليها بينه وبين مالك ويدافع عن رأيه فيها ، وفى ضوء ما عرفناه باختصار عن هذه المسائل نستطيع أن نستعرض رد الليث .. قال :

« سلام عليكم ، فانى أحمد الله اليك الذى لا اله الا هو . أما بعد : فعافانا الله واياك ، وأحسن لنا العاقبة فى الدنيا والآخرة ..

قد بلغنى كتابك تذكر فيه من صلاح حالكم الذى يسرنى ، فأدام الله ذلك لكم ، وأتمه بالعون على شكره ، والزيادة من احسانه ، وذكرت نظرك فى الكتب التى بعثت بها اليك ، واقامتك اياها وختمك عليها بخاتمك ، وقد أتتنا ، فجزاك الله عما قدمت منها خيرا ، فانها كتب انتهت الينا عنك ، فأحببت أن أبلغ حقيقتها بنظرك فيها ..

وذكرت أنه قد أنشطك ما كتبت اليك فيه من تقويم ما آتانى عنك الى ابتدائى بالنصيحة ، ورجوت أن يكون لها عندى موضع ، وأنه لم يمنعك من ذلك فيما خلا الا أن يكون رأيك فينا جميلا ، والا لأنى لم أذاكرك مثل هذا ..

وانه بلغك أنى أفتى بأشياء مخالفة لما عليه جماعة الناس عندكم ، وانى يحق على الخوف على نفسى لاعتماد من قبلى على ما أفتيتهم به ، وان الناس تبع لأهل المدينة التى بها كانت الهجرة ، وبها نزل القرآن

وقد أصبت بالذى كتبت به من ذلك ان شاء الله تعالى ، ووقع منى بالموقع الذى تحب ، وما أجد أحدا ينسب اليه العلم أكره لشواذ الفتيا ، ولا أشد تفضيلا لعلماء أهل المدينة الذين مضوا ، ولا آخذ

بفتياهم فيما اتفقوا عليه منى ، والحمد لله رب العالمين لا شريك له ..

وأما ما ذكرت من مقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، ونزول القرآن بها عليه بين ظهرانى أصحابه ، وما علمهم الله منه ، وأن الناس صاروا به تبعا لهم فيه ، فكما ذكرت ..

وأما ما ذكرت من قوله تعالى : « والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم باحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه ، وأعد لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ، ذلك الفوز العظيم » فان كثيرا من أولئك السابقين خرجوا الى الجهاد فى سبيل الله ابتغاء مرضاة الله ، فجندوا الأجناد ، واجتمع اليهم الناس ، فأظهروا بينهم كتاب الله وسنة نبيه ، ويجتهدون برأيهم فيما لم يفسره القرآن والسنة ..

وتقدمهم عليه أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، الذين اختارهم المسلمون لأنفسهم ، ولم يكن أولئك الثلاثة مضيعين لأجناد المسلمين ولا غافلين عنهم ، بل كانوا يكتبون فى الأمر اليسير لاقامة الدين ، والحذر من الاختلاف بكتاب الله وسنة نبيه ، فلم يتركوا أمرا فسره القرآن ، أو عمل به النبى صلى الله عليه وسلم ، أو ائتمروا فيه بعده الا علموهموه

فاذا جاء أمر عمل فيه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بمصر والشام والعراق على عهد أبى بكر ، وعمر ، وعثمان ، ولم يزالوا عليه حتى قبضوا ، لم يأمروا بغيره ، فلا نراه يجوز لأجناد المسلمين أن يحدثوا اليوم أمرا لم يعمل به سلفهم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والتابعين لهم ..

مع أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قد اختلفوا بعد فى الفتيا فى أشياء كثيرة ، ولولا أنى قد عرفت أن قد علمتها ما كتبت بها اليك . ثم اختلف التابعون فى أشياء بعد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ سعيد بن المسيب ونظراؤه ــ أشد الاختلاف ، ثم اختلف الذين كانوا من بعدهم ، فحضرتهم بالمدينة وغيرها ، ورأسهم يومئذ

ابن شهاب ، وربيعة بن أبى عبد الرحمن ..

وكان من خلاف ربيعة لبعض من قد مضى ما قد عرفت وحضرت ، وسمعت قولك فيه ، وقول ذوى الرأى من أهل المدينة : يحيى بن سعيد ، وعبيدالله بن عمر ، وكثير بن فرقد ، وغير كثير ممن هو أسن منه ، حتى اضطرك ما كرهت من ذلك الى فراق مجلسه ..

وذاكرتك أنت وعبد العزيز بن عبد الله بعض ما تعيب على ربيعة من ذلك ، فكنتما من الموافقين فيما أنكرت ، تكرهان ما أكرهه ، ومع ذلك ــ بحمد الله ــ عند ربيعة خير كثير ، وعقل أصيل ، ولسان بليغ ، وفضل مستبين ، وطريقة حسنة فى الاسلام ، ومودة صادقة لاخوانه عامة ولنا خاصة ، رحمه الله وغفر له ، وجزاه بأحسن من عمله ..

وكان يكون من ابن شهاب اختلاف كثير اذا لقيناه ، واذا كاتبه بعضنا ، فربما كتب اليه فى الشىء الواحد ــ على فضل رأيه وعلمه ــ بثلاثة أنواع ، ينقض بعضها بعضا ، ولا يشعر بالذى مضى من رأيه فى ذلك ..

فهذا الذى يدعونى الى ترك ما أنكرت تركى عليه ..

وقد عرفت أيضا سبب انكارى أن يجمع أحد من أجناد المسلمين بين الصلاتين ليلة المطر ، ومطر الشام أكثر من مطر المدينة بما لا يعلمه الا الله ، ولم يجمع منهم امام قط فى ليلة مطر ، وفيهم أبو عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد ، ويزيد بن أبى سفيان ، وعمرو بن العاص ، ومعاذ بن جبل ــ وقد بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أعلمكم بالحلال والحرام معاذ بن جبل » . ويقال : « يأتى معاذ يوم القيامة بين يدى العلماء برتوة » [1] ــ وشرحبيل بن حسنة ، وأبو الدرداء ، وبلال ابن رباح ..

وكان أبو ذر بمصر والزبير بن العوام ، وسعد بن أبى وقاص ، وبحمص سبعون من أهل بدر ، وبأجناد المسلمين كلها ، وبالعراق ابن

(١) الرتوة : الخطوة ، أى يتقدم عليهم بخطوة لفضله

مسعود ، وحذيفة بن اليمان ، وعمران بن الحصين ، ونزلها أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله وجهه فى الجنة سنين ، وكان معه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يجمعوا بين المغرب والعشاء قط ..

ومن ذلك القضاء بشهادة شاهد ويمين صاحب الحق (١) . وقد عرفت أنه لم يزل يقضى بالمدينة به ، ولم يقض به أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بالشام ولا بحمص ولا بمصر ولا بالعراق ، ولم يكتب به اليهم الخلفاء الراشدون : أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلى ..

ثم لما ولى عمر بن عبد العزيز ــ وكان كما قد علمت فى احياء السنن ، والجد فى اقامة الدين ، والاصــابة فى الرأى والعلم بما مضى من أمر الناس ــ فكتب اليه زريق بن الحكم : انك كنت تقضى بالمدينة بشهادة الشاهد الواحد ويمين صاحب الحق . فكتب اليه عمر بن عبد العزيز : انا كنا نقضى بذلك فى المدينة ، فوجدنا أهل الشام على غير ذلك ، فلا تقض الا بشهادة رجلين عدلين ، أو رجل وامرأتين ..

ولم يجمع بين المغرب والعشاء قط ليلة المطر ، والمطر يسكب عليه فى منزله الذى كان فيه بخناصرة (٢) ساكنا ..

ومن ذلك أن أهل المدينة يقضون فى صدقات النساء أنها متى شاءت أن تتكلم فى مؤخر صداقها تكلمت فدفع اليهــا (٣) ، وقد وافق أهل العراق أهل المدينة على ذلك ، وأهل الشام وأهل مصر ، ولم يقض أحد من أصحاب رســول الله صلى الله عليه وســلم ولا من بعدهم لامرأة بصداقها المؤخر ، الا أن يفرق بينهما موت أو طلاق فتقوم على حقها ..

ومن ذلك قولهم فى الايلاء انه لا يكون عليه طلاق حتى يوقف (٤) ، وان مرت الأربعة الأشهر ، وقد حدثنى نافع عن عبد الله بن عمر ــ وهو الذى كان يروى عنه ذلك التوقيف بعــد الأشهر ــ أنه كان يقول فى

---

(١) هذه هى المسألة الثانية

(٢) خناصرة : بلد بالشام من عمل حلب ، كان سكنها خامس الراشدين عمر بن عبد العزيز

(٣) هذه هى المسألة الثالثة

(٤) هذه هى المسألة الرابعة ، والمراد من قوله : « يوقف » ان الزوج هنا اما أن يفىء الى زوجته ، واما أن يطلق

الايلاء الذى ذكر الله فى كتابه : « لا يحل للمولى اذا بلغ الأجل الا أن يفىء كما أمر الله ، أو يعزم الطلاق » ..

وأنتم تقولون : ان لبث بعد الأربعة الأشهر التى سمى الله فى كتابه ، ولم يوقف ، لم يكن عليه طلاق . وقد بلغنا أن عثمان بن عفان ، وزيد بن ثابت ، وقبيصة بن دويب ، وأبا سلمة بن عبد الرحمن بن عوف ، قالوا فى الايلاء : اذا مضت الأربعة الأشهر فهى تطليقة بائنة ، وقال سعيد بن المسيب ، وأبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، وابن شهاب ، اذا مضت الأربعه الأشهر فهى تطليقة ، وله الرجعة فى العدة ..

ومن ذلك أن زيد بن ثابت كان يقول : اذا ملك الرجل زوجته فاختارت زوجها فهى تطليقة ، وان طلقت نفسها ثلاثا فهى تطليقة (١) ، وقضى بذلك عبد الملك بن مروان ، وكان ربيعة بن أبى عبد الرحمن يقوله ، وقد كاد الناس يجتمعون على أنها ان اختارت زوجها لم يكن فيه طلاق ، وان اختارت نفسها واحدة أو اثنتين كانت له عليها الرجعة ، وان طلقت نفسها ثلاثا بانت منه ، ولم تحل له حتى تنكح زوجا غيره ، فيدخل بها ثم يموت أو يطلقها ، الا أن يرد عليها فى مجلسه فيقول : انما ملكتك واحدة ، فيستحلف ، ويخلى بينه وبين امرأته ..

ومن ذلك أن عبدالله بن مسعود كان يقول : أيما رجل تزوج أمة ثم اشتراها زوجها فاشتراؤه اياها ثلاث تطليقات (٢) ، وكان ربيعة يقول ذلك ، وان تزوجت المرأة الحرة عبدا فاشترته فمثل ذلك ..

وقد بلغنا عنكم شيئا من الفتوى مستكرها ، وقد كنت كتبت اليك فى بعضها ، فلم تجبنى فى كتابى ، فتخوفت أن تكون قد استثقلت ذلك ، فتركت الكتابة اليك فى شىء مما أنكرت وفيما أوردت فيه على رأيك ..

ومن ذلك أنه بلغنى أنك أمرت زفير بن عاصم الهلالى حين أراد أن يستسقى أن يقدم الصلاة قبل الخطبة ، فأعظمت ذلك ، لأن الخطبة والاستسقاء كهيئة يوم الجمعة ، الا أن الامام اذا دنا من فراغه من

(١) هذه هى المسألة الخامسة
(٢) هذه هى المسألة السادسة

الخطبة فدعا حول رداءه ، ثم نزل فصلى (١) ..

وقد استسقى عمر بن عبد العزيز ، وأبو بكر بن محمد بن حزم ، وغيرهما ، فكلهم يقدم الخطبة والدعاء قبل الصلاة ، فاستهتر الناس كلهم فعل زفر بن عاصم واستنكروه ..

ومن ذلك أنه بلغنى أنك تقول فى الخليطين (٢) فى المال أنه لا تجب عليهما الصدقة ، حتى يكون لكل واحد منهما ما تجب فيه الصدقة (٣) . وفى كتاب عمر بن الخطاب انه تجب عليهما الصدقة ويترادان بالسوية ، وقد كان ذلك يعمل به فى زمن عمر بن عبد العزيز قبلكم وغيره ، والذى حدثنا به يحيى بن سعيد ، ولم يكن بدون أفاضل العلماء فى زمانه ، فرحمه الله وغفر له وجعل الجنة مصيره ..

ومن ذلك أنه بلغنى أنك تقول (٤) : اذا أفلس الرجل وقد باعه رجل سلعة ، فتقاضى طائفة من ثمنها ، أو أنفق المشترى طائفة منها ، أنه يأخذ ما وجد من متاعه ، وكان الناس على أن البائع اذا تقاضى من ثمنها شيئا ، أو أنفق المشترى منها شيئا ، فليست بعينها ..

ومن ذلك أنك تذكر أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يعط الزبير بن العوام الا لفرس واحد (٥) ، والناس كلهم يحدثون أنه أعطاه أربعة أسهم لفرسين ، ومنعه الفرس الثالث ، والأمة كلهم على هذا الحديث : أهل الشام وأهل مصر وأهل العراق وأهل افريقية ، لا يختلف فيه اثنان ، فلم يكن ينبغى لك — وان كنت سمعته من رجل مرضى — أن تخالف الأمة أجمعين ..

وقد تركت أشياء كثيرة أشباه هذا ، وأنا أحب توفيق الله اياك وطول بقائك ، لما أرجو للناس فى ذلك من المنفعة ، وما أخاف من الضيعة اذا ذهب مثلك ، مع استئناس بمكانك وان نأت الديار ..

فهذه منزلتك عندى ، ورأيى فيك ، فاستيقنه ولا تترك الكتابة الىّ

---

(١) هذه هى المسألة السابعة
(٢) المراد بالخليطين هنا الشريكان
(٣) هذه هى المسألة الثامنة
(٤) هذه هى المسألة التاسعة
(٥) هذه هى المسألة العاشرة

بخبرك وحالك وحال ولدك وأهلك ، وحاجة ان كنت اليها ، أو لأحد يوصل بك ، فانى أسر بذلك ..

كتبت اليك ونحن صالحون معافون والحمد لله ، نسأل الله أن يرزقنا واياكم شكر ما أولينا ، وتمام ما أنعم به علينا ، والسلام عليك ورحمة الله » ..

***

هذه الرسالة تعد نموذجا رائعا من نماذج الحوار العلمى الذى يدور بين قطبين من أقطاب الفقه والعلم فى الأمة الاسلامية ، وفيها مع زميلتها المالكية قدوة طيبة للذين يريدون أن يتأدبوا بأدب المناقشة والمناظرة ، وأن يبحثوا عن الحق والحقيقة ، وأن يمحصوا المسائل ويستقيموا على الطريق ..

أنت قد رأيت الامام مالكا يبدأ الحديث مع صاحبه لينا هينا ، كريما قويما ، فهو يشرع أولا فى الدعاء لنفسه وصاحبه ، ثم يذكر له فى رفق ما يلاحظه عنده من مخالفات ، ثم يقرن هذا بقوله ممجدا الليث : « وأنت فى أمانتك وفضلك ومنزلتك من أهل بلدك ، وحاجة من قبلك اليك ، واعتمادهم على ما جاء منك حقيق أن تخاف على نفسك ، وتتبع ما ترجو النجاة باتباعه » ..

ثم يعرض مالك ما يستدل به من آيات القرآن الكريم ، وهدى السنة المطهرة ، وعمل الصحابة والتابعين ، ثم يرجو صاحبه أن « يعيد النظر » فيما كتب اليه عنه . ثم يعود الى الدعاء ، والى تأكيد أنه لم يكتب الا ابتغاء النصيحة الخالصة لله وحده ، ولا يطيل مالك لأنه ناصح ومذكر ، ولأنه البادىء فى الحوار ، وكل ما يبتغيه من رسالته أن يوجه أخاه الليث الى مراجعة ما صدر عنه من أقوال أو آراء ..

ويرد الليث فيطيل ، ومن طبيعة الموقف أن يطيل ، لأنه يدافع عن نفسه ، ولأنه يستدل على ما ذهب اليه ، ولأنه يحاول اقناع مالك بأن موقف أخيه سليم وقويم ..

ومع الطول والتفصيـل لم يخرج الليث عما التزمه مالك من أدب ورقة وصيانة لحرمة الزميل ، فهو يلتزم الأسلوب الهادىء المتزن الرزين ، وهو يبادل صاحبه التحية والاحترام والدعاء ، وهو يتقبـل منه النقد بصدر رحب ، ويسلم ببعضه فى تقدير وعرفان ، ثم يذكر الليث مالكا بعد هذا بوقائع وقعت وأحداث جرت ، كان مالك نفسه أحد المشتركين فيها أو المشاهدين لها أو الواقفين عليها ..

ويبرع الليث فى الحوار حين يحاول الزام مالك الحجة ، بأن يستشهد له بما فعله شيوخ مالك وهم : يحيى بن سعيد ، وربيعة بن أبى عبـد الرحمن ، وابن شهاب الزهرى ، وكأنه يريد أن يقول لمالك : هؤلاء هم شيوخك بأعمالهم يؤيدون موقفى ..

ثم يشير الليث من طرف رقيق الى تبادل الرسائل بينهما سابقا ، وأن مالكا لم يرد على ملاحظات كان الليث قد أبداها ، ويخشى الليث أن يكون مالك قد استثقل هذه الملاحظات ، ولو كان الأمر كذلك لمنع الليث نفسه أن يعاود الحديث فيها ..

ويعود الليث فى ختام رده الى الدعاء لمالك والتنويه بشأنه . كأن يقول له فيما يقول : « وأنا أحب توفيق الله اياك ، وطول بقائك ، لما أرجو للناس فى ذلك من المنفعة ، وما أخاف من الضـيعة اذا ذهب مثلك .. » الخ ..

ان هاتين الرسالتين الجليلتين لون جميـل من أدب العلمـاء وحوار الفقهاء ..

صفات مالك وعاداته :

كان مالك رجلا طويل القامة كبير الهامة ، أبيض اللون أصلع ، أشم الأنف ، حسن الصورة . وكان يرتدى الثياب العدنية الجياد ، ويلبس الملابس الجميلة ويعنى بها ، ويحرص على اسـتعمال العطور والطيب ، وكان يكره حلق الشارب ويعيبه ويراه من المثلة ، ولا يكتم شيبه ، ويأكل الطعام الجيد ، وينال كل يوم قدرا لا بأس به من اللحم ، وقيل : انه

كان يحرص على ذلك بشكل لافت للنظر مثير للعجب ، ويحب أكل الموز أكثر من غيره ويقول : « لا شىء أشبه بثمر الجنة منه ، لا تطلبه فى شتاء ولا صيف الا وجدته ، قال الله تعالى : « أكلها دائم وظلها » . وكان يهتم بتأثيث منزله حتى يبدو الأثاث جميلا فخما ، وهو يستخدم فى الأثاث النمارق والوسائد والبسط والحشايا من ريش ، وينفق عن سعة بعد أن مرت به فى حياته فترات ضيق وحاجة ..

وكان مالك يرى هذا التوسع فى النفقة تمتعا بالطيبات التى أحلها الله تعالى ، والتى لا ينبغى للمسلم أن يحرمها على نفسه ما دام يجدها ويقدر عليها ، ولقد حاول يحيى بن يزيد النوفلى أن يعترض على الامام مالك فى ذلك ، فكتب اليه ، ورد مالك عليه ، ويحسن أن نرى الاعتراض والجواب عنه ..

كتب يحيى الى مالك يقول :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلى الله على رسوله محمد فى الأولين والآخرين . من يحيى بن يزيد بن عبد الملك الى مالك بن أنس . أما بعد . فقد بلغنى أنك تلبس الدقاق ، وتأكل الرقاق ، وتجلس على الوطىء ، وتجعل على بابك حاجبا ، وقد جلست مجلس العلم ، وقد ضربت اليك المطى ، وارتحل الناس ، واتخذوك اماما ، ورضوا بقولك ..

فاتق الله تعالى يا مالك ، وعليك بالتواضع ، كتبت اليك بالنصيحة منى كتابا ما اطلع عليه غير الله سبحانه وتعالى ، والسلام » ..

فرد عليه الامام مالك يقول :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم . من مالك بن أنس الى يحيى بن يزيد . سلام الله عليك . أما بعد : فقد وصل الىّ كتابك ، فوقع منى موقع النصيحة والشفقة والأدب . أمتعك الله بالتقوى ، وجزاك بالنصيحة خيرا ، وأسأل الله تعالى التوفيق ، ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم ..

فأما ما ذكرت لى أنى آكل الرقاق ، وألبس الدقاق ، وأحتجب ،

وأجلس على الوطىء ، فنحن نفعل ذلك ونستغفر الله تعالى ، فقد قال الله تعالى : « قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ، قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا ، خالصة يوم القيامة ، كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون » ، وانى لأعلم أن ترك ذلك خير من الدخول فيه ، ولا تدعنا من كتابك فلسنا ندعك من كتابنا ، والسلام » ..

وقد علق الامام الغزالى فى الجزء الأول من كتابه « احياء علوم الدين » بطريقته الورعة الزاهدة على رد مالك فقال : « فانظر الى انصاف مالك اذ اعترف أن ترك ذلك خير من الدخول فيه ، وأفتى بأنه مباح ، وقد صدق فيهما جميعا ..

ومثل مالك فى منصبه اذا سمحت نفسه بالانصاف والاعتراف فى مثل هذه النصيحة ، فتقوى أيضا نفسه على الوقوف على حدود المباح ، حتى لا يحمله ذلك على المراءاة والمداهنة والتجاوز الى المكروهات ..

وأما غيره فلا يقدر عليه ، فالتعريج على التنعم بالمباح خطر عظيم ، وهو بعيد من الخوف والخشية ، وخاصية علماء الله تعالى الخشية وخاصية الخشية التباعد من مظان الخطر » ..

***

ويتصل بجانب التمتع بطيبات الحياة عند الامام مالك عنايته بالغناء ، وقد عرفنا أنه أراد فى أول أمره أن يتعلم الغناء وأن يتبع المغنين ، وأن أمه صرفته عن ذلك بلباقتها ، ولكن يظهر أن هذا الانصراف فى مجال التعلم لم يقطع صلة مالك نهائيا بالغناء من ناحية الدراية والتذوق والتقدير ، فقد روى أن شخصا سار فى الطريق وهو يغنى ظهرا بقول الشاعر :

ما بال قومك يا رباب ... خزرا كأنهم غضاب

ففتح مالك نافذة وأطل منها وقال للمغنى الذى لم يحسن الغناء : « يا فاسق ، أسأت التأدية ، ومنعت القائلة ، وأذعت الفاحشة » . ثم غنى مالك اللحن بأحسن من غناء السائر ، فدهش من غنائه وقال له : من أين لك هذا الغناء ؟

فذكر له مالك ما كان من اتجاهه الى تعلم الغناء فى أول أمره ، فقال الرجل : أعد جعلت فداءك . فرد عليه مالك بقوله : لا ، ولا كرامة ، تريد أن تقول : أخذته عن مالك بن أنس .. ؟

***

وقيل فى بعض الروايات ان مالكا غنى بقول الشاعر :

سليمى أزمعت بينا   فأين تقولها أينا ؟

***

ويروى أنه مر بمغنية تغنى قول الشاعر :

أنت أختى ، وأنت حرمة جارى   وحقيق على حفظ الجوار
أنا للجار ما تغيب عنى   حافظ للمغيب فى الأسرار
ما أبالى أكان للباب ستر   مسبل ، أم بقى بغير ستار

فأعجب مالك بالغناء معنى ولحنا وقال : « لو غنى بها حول الكعبة لجاز » ثم أضاف : « يا أهل الدار ، علموا قينتكم مثل هذا » ..

***

ويروى أنه سار مع « ابن أبى أويس » فسمعا جارية تغنى وتقول :

ليتنى أرض لسلمى   فتطأنى قدماها
ليتنى درع لسلمى   ترتدينى من وراها
ليتنى خادم سلمى   قاعد حيث أراها

فسأل مالك عن المغنية ، فقيل له : هى « غزال » خادمة بنى عمارة ، فقال : انها لفصيحة اللهجة حسنة التأدية ..

***

ولقد ذكر أبو العلاء فى كتابه « رسالة الغفران » أن خامس الخلفاء الراشدين عمر بن عبد العزيز ، والامام مالك بن أنس يذكران فى طبقات المغنين . وقد استنتج بعض الباحثين رضا الامام مالك عن الغناء من أن كتابه « الموطأ » لم يذكر فيه شىء من الآثار عن تحريم الغناء ، مع أنه تحدث عن حرمة كثير من الأشياء ، ولو أنه أحس بحرج فى الغناء لذكر

فى حظره شيئا من الآثار ..

ومن صفات مالك أنه كان قوى الحافظة شديد الوعى ، يحفظ العشرات من الأحاديث بمجرد سماعها ، ويغلب عليه الصبر والعزم القوى على مغالبة الصعاب وبلوغ ما يريد ، وكانت فيه ألمعية وقوة فراسة ..

ومن طباع مالك أنه كان يتجنب الأغلوطات والبحوث التى لا تجدى أو ليست لها ثمرة عملية ، ولقد سأله سائل عن معنى قول القرآن : « الرحمن على العرش استوى » كيف استوى ؟.. فسكت مالك حتى شمله العرق ، ثم قال : « الاستواء منه معلوم ، والكيف منه مجهول ، والسؤال عن هذا بدعة ، والايمان به واجب » . فقال السائل : والله الذى لا اله الا هو لقد سألت عن هذه المسألة أهل البصرة والكوفة والعراق ، فلم أجد أحدا وفق لما وفقت له ..

وكانت فى مالك هيبة واضحة ، فقد هابه تلاميذه ومعارفه ، وهابه الحكام والخلفاء ، وجاءته هيبته هذه من قوة روحه وحسن سمته ، وجمال تصرفه ، ولقد قال سعيد بن هند الأندلسى : ما هبت أحدا هيبتى عبد الرحمن بن معاوية « عبد الرحمن الداخل » فدخلت على مالك فهبته هيبة شديدة صغرت هيبة ابن معاوية ..

بل قال الشافعى : « ما هبت أحدا قط هيبتى من مالك بن أنس » ..

ولقد يعرض لجلسائه سؤال يريدون توجيهه اليه ، ثم تدركهم هيبته فلا يستطيعون توجيهه ..

ولقد روى لنا الشافعى عن نفسه أنه أراد أن يتلقى عن الامام مالك ، وكان سن الشافعى حينئذ ــ كما يقول الشعرانى ــ ثلاث عشرة سنة ، فأخذ من والى مكة توصية الى والى المدينة لكى ييسر له الالتقاء بمالك ، كما أخذ من والى مكة توصية الى مالك نفسه ، وذهب الشافعى بالتوصية الى والى المدينة ، فقرأها الوالى ثم قال : يا فتى ، ان مشيى من جوف المدينة الى جوف مكة حافيا أهون على من المشى الى باب مالك بن أنس ، فلست أرى الذل حتى أقف على بابه ..

فقال له الشافعى : أصلح الله الأمير ، ان رأى الأمير يوجه اليه ليحضر ورد الأمير يقول : هيهات ، ليت أنى اذا ركبت أنا ومن معى ، وأصابنا من تراب العقيق ، نلنا بعض حاجتنا ..

ثم اتفق الشافعى مع الوالى على الذهاب الى مالك عصرا ، وذهبا ومعهما حاشية الوالى .. ولما قرعوا باب مالك خرجت اليهم جارية سوداء ، فقال لها الوالى : قولى لمولاك انى بالباب ..

وعادت الجارية ، وبعد لأى خرجت فقالت : ان مولاى يقرئك السلام ويقول : ان كانت لديك مسألة فارفعها فى رقعة يخرج اليك الجواب ، وان كان للحديث فقد عرفت الموعد ..

فقال لها : قولى له ان معى كتاب والى مكة فى حاجة مهمة ، فدخلت وعادت وفى يدها كرسى فوضعته ، ثم خرج مالك وعليه الهيبة والوقار بقامته الطويلة ، وطيلسانه عليه ، فقدم اليه الوالى كتاب والى مكة ، فتطلع اليه ووصل فيه موطن التوصيــة بالشافعى ، فرمى الكتاب من يده وقال : سبحان الله ، أصار علم رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤخذ بالوسائل ؟ ! ..

وهابه الوالى فلم يتكلم .. وتقدم الشافعى فشرح لمالك قصته ورحلته فى سبيل العلم ورغبته فى التلقى عنه ، فتأمل فيه مالك بفراسته العميقة وقال له : ما اسمك ؟.. فأجاب الشافعى : محمد . فقال مالك : يا محمد ، اتق الله ، واجتنب المعاصى ، فانه سيكون لك شأن من الشأن ..

ولقد شاهد سفيان الثورى اجلال الناس لمالك وهيبتهم منه فى مجلسه فأنشد :

يأبى الجواب فما يراجع هيبــة والســـــائلون نواكس الأذقان
أدب الوقار ، وعز سلطان التقى فهو المطــاع وليس ذا سلطان !

***

ولكن ينبغى لنا هنا أن تتذكر أن مالكا كانت تعرض له أحيانا حدة لا تليق بمثله ، فتبدر منه ألفاظ قاسية أو كلمات شديدة ــ وجل المنزه

عن النقص ــ ولقد سأله أبو يوسف ذات يوم فى مجلس الرشيد عن مسألة فلم يجبه ، فقال له الرشيد : أجبه . وأدركت مالكا حدته فرد قائلا : اذا رأيتنا جلسنا لأهل الباطل فتعال حتى أجيبك ! ..

ومما لا يبعد كثيرا عن هذا المجال أنه كان يحرص على احترام نفسه واعتزازه بشخصه ، فقد قدم الخليفة المهدى الى المدينة مثلا ، وأقبل الناس عليه وازدحموا لديه ، ثم أقبل مالك فقال بعض الحاضرين : اليوم يجلس مالك آخر الناس ، ولكن مالكا رأى الزحام فقال للمهدى : يا أمير المؤمنين ، أين يجلس شيخك مالك ؟ .. فأجاب المهدى : عندى يا أبا عبد الله . ورفع المهدى ركبته اليمنى ، وأجلس الامام بجواره ..

وكان مالك أعقل أهل زمانه ، ولم يجالس سفيها قط ، وكان أعظم الخلق مروءة ، وأشدهم مداراة للناس ، واستعمالا للانصاف ، كثير الصمت متحفظا بلسانه ، قليل الكلام ، قليل الافتاء ، قليل الاختلاط بالناس ، وكان أحسن الناس خلقا مع أهله وولده ، كثير العبادة ، واذا دخل بيته شغله المصحف وتلاوة القرآن ..

أسرة مالك :

تزوج الامام مالك عن طريق « التسرى » ، أى بأمة من الاماء . ولم يتزوج حرة ، وكان يحب زوجته أم ولده ، ويعتز بها ، وولد له منها ثلاثة أبناء هم : محمد ، وحماد ، ويحيى ، وبنت تسمى « فاطمة » ويقال لها أم البنين ، وكانت تحفظ « الموطأ » ، وكانت اذا عقد أبوها مجلسه فى منزله ، تجلس خلف الباب تسمع قراءة من يقرأ على أبيها الموطأ ، فاذا أخطأ القارىء دقت فاطمة الباب ، فيأمر مالك من يقرأ بأن يعاود القراءة ويصحح الخطأ ..

ومن العجيب أن ابنته نالت هذه المكانة العلمية ، وبقى أبناؤه دونها بمراحل ، وكان مالك يتعجب من هذا التفاوت ويقول : انما الأدب أدب الله ، هذا ابنى .. وهذه ابنتى ! ..

وفاة مالك :

مرض مالك اثنين وعشرين يوما ، ودخل عليه بكر بن سليمان الصواف مع جماعة ليلة وفاته ، فقالوا : يا أبا عبد الله ، كيف نجدك ؟.. فقال : ما أدرى كيف أقول لكم ، الا أنكم ستعاينون غدا من عفو الله ما ليس فى حساب ..

وبعد قليل تشهد وقال : لله الأمر من قبل ومن بعد ..

ثم أسلم روحه الى بارئها .. وكانت وفاته بالمدينة فى اليوم الرابع عشر من ربيع الأول سنة تسع وسبعين ومئة . وقيل فى اليوم الحادى عشر ، أو الثالث عشر ، أو الرابع عشر من رجب ، وذكر النووى أنه توفى فى صفر .. والقول الأول أشهر ..

ودفن مالك بمقبرة البقيع ، وكان قبره بباب البقيع .. رضى الله عنه ..

***

قال الامام الشافعى : « مالك معلمى وأستاذى ، ومنه تعلمنا العلم ، وما أحـد آمن على من مالك ، وجعلت مالكا حجة فيما بينى وبين الله تعالى » ! ..

الباب الثالث

الإمام الشافعي

ولد سنة ١٥٠هـ

توفي سنة ٢٠٤هـ



الشافعى

الشافعى هو ثالث الأئمة الأربعة فى ترتيب الميلاد ، وهو « ناصر الحديث » و « مجدد القرن الثانى » فقد قال الامام أحمد بن حنبل : يروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أن الله عز وجل يبعث لهذه الأمة على رأس كل مئة سنة من يجدد لها أمر دينها ، فكان عمر بن عبد العزيز على رأس المائة ، وأرجو أن يكون الشافعى على رأس المئة الأخرى

واذا كان ابن حنبل قد قصر كلامه على دائرة التوقع والرجاء ، فقد جاء بعده من أصدر الحكم صريحا فى ذلك ، فقد حدث سنة ثلاث وثلاثمائة أن دخل على أحمد بن سريج القاضى شيخ من أهل العلم وقال له :

أبشر أيها القاضى ، فان الله يبعث على رأس كل مئة سنة من يجدد لها أمر دينها ، وانه تعالى بعث على رأس المئة الأولى عمر بن عبد العزيز ، وتوفى سنة ثلاث ومئة [1] ، وبعث على رأس المئتين أبا عبدالله محمد بن ادريس الشافعى ، وتوفى سنة أربع ومئتين ، وبعثك على رأس الثلاثمائة ، ثم أنشأ يقول :

اثنان قد مضيا ، فبورك فيهما ... عمر الخليفة ، ثم خلف السؤدد
الشافعى الألمعى محمد ... ارث النبوة ، وابن عم محمد
أبشر أبا العباس ، انك ثالث ... من بعدهم ، سقيا لتربة أحمد

فصاح ابن سريج باكيا وقال : ان هذا الرجل قد نعى الى نفسى . ومات ابن سريج فى هذه السنة

---

(١) فى الجزء الاول من كتابى « خامس الراشدين عمر بن عبد العزيز » انه توفى سنة احدى ومئة ، أنظر ص ٢٥

ثم جاء بعد ذلك جلال الدين السيوطى ، وأنشأ منظومة سماها « تحفة المهتدين بأخبار المجددين » ، وذكر فيها أن المجدد الأول على رأس المئة الأولى هو خامس الراشدين عمر بن عبد العزيز ، وأن الشافعى هو المجدد على رأس المئة الثانية ، فقال :

فكان عند المئة الأولى عمر　　خليفة العدل باجماع وقر
والشافعى كان عند الثانيه　　لما له من العلوم الساريه

ولقد عاش الشافعى عمره فى العصر العباسى ، وهو عصر ازدهرت فيه الثقافة — كما عرفنا — واتسعت الترجمة ، ونقلت الفلسفة ، ودونت العلوم ، وتعددت العناصر داخل المجتمع الاسلامى ، وكثرت الحوادث الاجتماعية ، وظهرت الاتجاهات الفكرية المختلفة ، ونجم بلاء الزندقة ، وحاول محاولون اشاعة الفساد والتحلل بين الأمة ، ونشأت جماعات المتكلمين والمفندين لأقوال الخارجين على الملة ، وظهرت ملامح التميز الواضح بين مدرسة الحديث والنقل ، ومدرسة الرأى والعقل ، واتسع نطاق الجدل والمناظرة بينهما ، وكان الشافعى أقرب الى المدرسة الأولى منه الى الثانية ..

واتسعت رقعة الدولة الاسلامية ، وتألقت فيها العواصم الكبيرة ذات الشهرة العلمية الواسعة ، فهناك بغداد والكوفة والبصرة ودمشق والفسطاط وقرطبة والقيروان وغيرها

مولده ونسبه :

ولد الشافعى بغزة من أرض فلسطين سنة خمسين ومئة ، وهذا هو المشهور عند الكثيرين .. وهناك رواية تقول انه ولد بعسقلان ، وهى بلدة تبعد نحو ثلاثة فراسخ من غزة ، وعلى مرحلتين من بيت المقدس أو ثلاث ، وهناك رواية أبعد من سابقتها ، وهى انه ولد باليمن . وروى ياقوت عن الشافعى أنه قال : « ولدت باليمن ، فخافت أمى على الضيعة ، فحملتنى الى مكة وأنا ابن عشر أو شبيه بذلك »

وقد قيل للتوفيق بين هذه الأقوال الثلاثة انه ولد بغزة ، ونشأ

بعسقلان ، وعسقلان كلها من قبائل اليمن ، وهذا معنى قول من قال انه ولد باليمن ، أى بين قبائل كلها يمنية . وقد أورد ياقوت الروايات الثلاث فى ميلاد الشافعى ، ثم قال : « لا شك أنه ولد بغزة ، وانتقل الى عسقلان الى أن ترعرع ».

وكذلك قال النووى : « المشهور الذى عليه الجمهور أن الشافعى ولد بغزة » .. ويروى أن الشافعى ولد فى الليلة التى مات فيها أبو حنيفة ، ولئن صح هذا ــ والتأكد منه بعيد ــ انها لمصادفة عجيبة ، أن يموت امام فيولد عند موته امام.

والشافعى هو : أبو عبدالله محمد بن ادريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب بن عبيد بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب بن عبد مناف ، فهو عربى قرشى هاشمى مطلبى ، يلتقى مع الرسول صلى الله عليه وسلم فى جده عبد مناف ، ولذلك يقال عن الشافعى انه « ابن عم الرسول » ..

ويقول ياقوت : « وهاشم هذا الذى فى نسب الشافعى ليس هو هاشما جد النبى صلى الله عليه وسلم .. ذاك هاشم بن عبد مناف ، فهاشم هذا هو ابن أخى ذاك ».

وكان الشافعى بهذه الصلة بالنبى يعد نفسه من ذوى قربى الرسول ، بل من سلالة « ذوى القربى » الذين ناصروا الرسول فى الجاهلية والاسلام ، وانضموا الى نصرة الرسول حين قاطعته قريش ، واحتملوا الأذى معه عليه الصلاة والسلام.

وليس بصحيح اذن ما يزعمه بعض المتعصبين ضد الشافعى من أنه ليس قرشيا بالنسب بل بالولاء فقط.

وأسرة الشافعى أسرة فلسطينية فقيرة مشردة ، كانت تقيم فى الأحياء اليمنية ، ولكن شرف نسبها كان عوضا لها عن فقر ذات يدها ..

وأما أبوه فقد مات والشافعى صغير ، فانتقلت به أمه الى مكة وعمره سنتان ، لتحافظ على شرف نسبه ، وقيل ــ كما سبق ــ ان عمره كان

عشر سنوات ، فنشأ الشافعى يتيما ..

وأم الشافعى امرأة من الأزد ، وليس بصحيح ما قيل انها من قريش ، واسمها فاطمة بنت عبدالله الأزدية ، ولقد روى النووى عند حديثه عن أم الشافعى أن الرسول قال : « الازد أسد الله فى الأرض ، يريد الناس أن يضعوهم ، ويأبى الله الا أن يرفعهم ، وليأتين على الناس زمان يقول الرجل : ياليتنى كنت أزديا ، وياليت أمى كانت أزدية » ! .. كما روى حديثا موقوفا جاء فيه : « الملك فى قريش ، والقضاء فى الأنصار ، والأذان فى الحبشة ، والأمانة فى الأزد »

ولقد شب الشافعى فقيرا رقيق الحال ضيق العيش ، حتى احتاج وهو يطلب العلم الى جمع قطع الخزف (الفخار) وقطع الجلود وسعف النخل وعظام الجمال ليكتب عليها ، وكان يذهب الى الدواوين ويستوهب أهلها أوراقا ليكتب عليها

نشأته العلمية :

حفظ الشافعى القرآن بسرعة وهو صغير ، وأخـذ يحفظ الأحاديث ويكتبها ، وعنى بتعلم قواعد العربية وكلماتها ، ورحل فى سبيل ذلك الى البادية ، وعاشر قبيلة « هذيل » نحو عشر سنين ، ليتعلم من كلامها ، ويأخذ طبعها ، وكانت هذيل أفصح العرب . وحفظ الشافعى أشـعار هذيل وأخبارها ، حتى قال الأصمعى انه صحح أشعار هذيل على فتى من قريش يقال له محمد بن ادريس ، يعنى الشافعى ..

وتعلم الرمى بجوار العلم ، حتى كان يرمى عشرة سهام ، فلا يخطىء فى سهم منها ، وقال : « كانت همتى فى شيئين : فى الرمى والعلم ، فصرت فى الرمى بحيث أصيب من عشرة عشرة » . وسكت فقال له بعض من سمعه : « انت والله فى العلم أكثر منك فى الرمى »

ولقد كان الشافعى منصرفا فى أول أمره ــ كما رأينا ــ الى الشعر والأدب وأيام العرب ، ولكن الله هيأ له من الأسباب ما صرفه الى الفقه والعلم .. وهنا نجد فى المصادر التى تحدثت عن الشافعى أكثر من رواية

فى بيان هذا السبب ، فرواية تقول : انه كان يسير يوما على دابة له وهو ناشىء ، وخلفه كاتب لعبدالله الزبيرى ، فتمثل الشافعى ببيت من الشعر ، فقرعه الكاتب بسوطه كالناصح وقال له مرشدا : مثلك يذهب بمروءته فى مثل هذا ؟ .. أين أنت من الفقه ؟ .. فأثر فيه ذلك وهزه ، وسارع بمجالسة مسلم بن خالد الزنجى مفتى مكة ، وتلقى عنه ..

ورواية ثانية تقول : انه التقى ـ وهو فى طريقه الى طلب النحو والأدب ـ بمسلم هذا ، فقال للشافعى : من أين أنت ؟ .. قال : من أهل مكة .. قال : أين منزلك ؟ .. فقال : بشعب الخيف .. قال : من أى قبيلة أنت ؟ .. فأجاب الشافعى : من عبد مناف . قال مسلم : بخ بخ ، لقد شرفك الله فى الدنيا والآخرة ، ألا جعلت فهمك هذا فى الفقه فكان أحسن لك ؟ ..

ورواية ثالثة تقول : ان الشافعى كان ينظر فى الشعر ، وارتقى عقبة بمنى ، واذا صوت من خلفه يقول له : عليك بالفقه .. فاتجه اليه ، وأغلب الظن أن هذه الرواية أقرب الى التخيل منها الى الواقع

ورواية رابعة تقول : ان مصعب بن عبدالله بن الزبير التقى بالشافعى وهو مجتهد فى طلب الشعر والغريب والنحو ، فقال له : الى كم هذا ؟.. لو طلبت الحديث والفقه كان أمثل بك . وانصرف به مصعب الى مالك ابن أنس وأوصاه به ، فما ترك عند مالك الا الأقل ، ولا ترك شيئا عند مشايخ المدينة الا جمعه ، وشخص الى العراق فانقطع الى محمد بن الحسن وحمل منه ، ثم جاء الى المدينة بعد سنين ، وذهب به مصعب الى مكة ، وحدث ابن داود عنه ، فأمر له بعشرة آلاف درهم

هذه أربع روايات تدور حول انصراف الشافعى من طلب اللغة والأدب الى طلب الفقه والشريعة ، وليس من المستحيل أن تكون الروايات كلها أو أكثرها قد وقعت ، وان كان الظاهر أن احداها هى التى كانت ... ومهما يكن من أمر ، فان هذه الروايات تعطينا فى أصلها شيئا مسلما به ،

وهو أن الله تعالى هيأ للشافعى من نبهه على قيمة الفقه ، وأنه أهم من اللغة والأدب ..

والثابت أن الشافعى طلب العلم فى مكة وبرع فيه ، ولما أذن له مسلم ابن خالد الزنجى فى الافتاء لم يقنع الشافعى بما حصله .. بل واصل طلب العلم ، وهاجر الى المدينة ، وتلقى عن الامام مالك بعد أن استعد للقائه بأن قرأ « الموطأ » وحفظ أكثره ، وأخذ كتاب توصية للامام من والى مكة كما عرفنا ، ولما التقى الامام مالك بالشافعى قال له فيما قال : « ان الله تعالى قد ألقى على قلبك نورا فلا تطفئه بالمعصية » !

وأخذ الشافعى يقرأ عليه ومالك يستزيده فى القراءة ، وظل معه يروى عنه ويتفقه عليه الى أن مات مالك سنة تسع وسبعين ومئة ، وكان الشافعى خلال ذلك يزور أمه بمكة ، أو يقوم برحلات هنا وهناك

توليه العمل :

أحس الشافعى فى شبابه أنه قد نال من العلم قدرا لا بأس به ، فأراد أن يعمل ليكتسب من عمله ، لأنه كان فقيرا .. وكان هذا عقب موت الامام مالك بالمدينة ، وتصادف أن جاء والى اليمن الى الحجاز ، فحادثه بعض القرشيين فى أن يولى الشافعى على عمل فى اليمن فقبل ، ورهن الشافعى دارا ليجهز نفسه للسفر ، ثم تولى عملا فى « نجران» ظهر فيه عدله واستقامته ، وأراد القوم هناك أن يضايقوه أو يخادعوه فلم يفلحوا ، يقول الشافعى : « وكان الوالى اذا أتاهم صانعوه ، فأرادونى على مثل ذلك فلم يجدوا عندى »

وحدث أن خرج تسعة من العلويين فى اليمن على الخلافة ، واتهم الشافعى بأنه معهم ، فأمر هارون الرشيد بارسالهم اليه ، ولما بلغوه أمر بضرب أعناق التسعة ، ثم جاء دور الشافعى ، فقال للخليفة :

« مهلا يا أمير المؤمنين ، فانك الداعى ، وأنا المدعو ، وأنت القادر على ما تريد منى ، ولست القادر على ما أريده منك . يا أمير المؤمنين ، ما تقول

فى رجلين : أحدهما يرانى أخاه ، والآخر يرانى عبده ، أيهما أحب الى ؟
قال الرشيد : الذى يراك أخاه ..
قال الشافعى : فذاك أنت يا أمير المؤمنين ..
قال الرشيد : كيف ذاك ؟ ..
قال الشافعى : يا أمير المؤمنين ، انكم ولد العباس ، وهم ولد على ، ونحن بنو المطلب ، فأنتم ولد العباس تروننا اخوتكم ، وهم يروننا عبيدهم
فانشرح الرشيد لذلك ، وقال للشافعى : يا ابن ادريس ، كيف علمك بالقرآن ؟ ..
فقال الشافعى : عن أى علومه تسألنى ؟ .. عن حفظه ؟ .. فقد حفظته ووعيته بين جنبى ، وعرفت وقفه وابتداءه ، وناسخه ومنسوخه ، وليليه ونهاريه ، ووحشيه وأنسيه ، وما خوطب به العام يراد به الخاص ، وما خوطب به الخاص يراد به العام
فقال هارون : فكيف علمك بالنجوم ؟ .. فقال : انى لأعرف منها البرى ، والبحرى ، والسهلى ، والجبلى ، والفيلق ، والمصبح ، وما تجب معرفته ..
فقال الرشيد : فكيف علمك بأنساب العرب ؟ .. فأجاب الشافعى : انى لأعرف أنساب اللئام ، وأنساب الكرام ، ونسبى ، ونسب أمير المؤمنين ..
قال الرشيد : فهل من موعظة تعظ بها أمير المؤمنين ؟.. فوعظه بموعظة مؤثرة لطاوس اليمانى ، فبكى منها الرشيد ، وأمر للشافعى بمال كبير وهدايا ، ففرقها عند الباب !

وحينما تبلغ هذه القصة مبلغ الصحة واليقين تكون دليلا أى دليل على براعة الشافعى فى التخلص من جهة ، وعلى اتساع ثقافته ومعارفه من جهة أخرى ..
ولقد تكونت ثقافة الشافعى من عدة روافد ، ونهضت على عدة دعائم ، فهناك شيوخه وأساتذته ، وهناك مطالعاته وقراءاته ، وهناك

رحلاته الى اليمن والكوفة والبصرة ومكة وبغداد ومصر . وهناك انتفاعه بالمناظرات والمساجلات والمجادلات التى دارت فى عصره بين علماء الكلام وعلماء الفلسفة وعلماء الفقه وعلماء الحديث وغيرهم ، ثم هناك أخيرا تفكير الشافعى وتدبره .. كل هذه المصادر كونت له تلك الثقافة الواسعة ..

والشافعى نفسه يشعرنا بأنه يؤمن بأن تعدد الروافد لتكوين الثقافة الواسعة أمر ضرورى لا بد منه ، ولذلك نجده يقول : « من تعلم القرآن عظمت قيمته ، ومن كتب الحديث قويت حجته ، ومن نظر فى الفقه نبل قدره ، ومن نظر فى اللغة رق طبعه ، ومن نظر فى الحساب جزل رأيه ، ومن لم يصن نفسه لم ينفعه علمه »

شيوخ الشافعى :

بدأ الشافعى بشيخه مسلم بن خالد الزنجى وغيره من أئمة مكة ، ثم رحل وسنه ثلاث عشرة الى المدينة ، ولازم فيها الامام مالكا حتى مات ، ثم كان له شيوخ فى الحواضر والعواصم الكبرى التى رحل اليها

فمن شيوخ الشافعى فى مكة : مسلم بن خالد الزنجى ، وسفيان بن عيينة ، وسعيد بن سالم القداح ، وداود بن عبد الرحمن العطار ، وعبد الحميد بن عبد العزيز بن أبى دواد

ومن شيوخه فى المدينة : مالك بن أنس ، وابراهيم بن سعد الأنصارى ، وعبد العزيز بن محمد الدراوردى ، وابراهيم بن يحيى الأسامى ، ومحمد ابن سعيد بن أبى فديك ، وعبدالله بن نافع الصائغ

ومن شيوخه فى اليمن : مطرف بن مازن ، وهشام بن يوسف قاضى صنعاء ، وعمر بن أبى مسلمة صاحب الأوزاعى ، ويحيى بن حسان صاحب الليث بن سعد

ومن شيوخه فى العراق : محمد بن الحسن ، ووكيع بن الجراح الكوفى ، وأبو أسامة حماد بن أسامة الكوفى ، واسماعيل بن عطية البصرى ، وعبد الوهاب بن عبد المجيد البصرى

ونلاحظ أن شيوخ الشافعى أنماط وألوان ، فمنهم الذى عنى بالحديث ، ومنهم الذى عنى بالرأى ، ومنهم المعتزلى ، ومنهم الشيعى ، ومنهم أصحاب مذهب غير مذهبه .. الخ . وقد أفاده هذا فى توسيع أفقه ، وتكثير مادته ، وتضخيم ثقافته

ولقد أخذ الشافعى عن محمد بن الحسن الحديث والرأى ببغداد ، وكتب ما أخذه ، حتى حمل عنه وقر بعير ، وكان يجل أستاذه ويثنى عليه ، وكان محمد يكرم تلميذه الشافعى ، ويفضل مجلسه على مجلس السلطان ، وكان الشافعى يلازم حلقته ، ولا يناظره اجلالا له ، ولكن اذا انصرف محمد أخذ الشافعى يدافع عن فقه أهل المدينة .. ويروى أن محمدا ألح على الشافعى فى أن يناظره ، فأطاع أمر أستاذه وانتصر التلميذ ..

وكان الشافعى خلال ذلك يعد نفسه فقيها مدنيا من أصحاب مالك بن أنس ، ثم تميزت شخصية الشافعى فيما بعد ، فصار يقول رأيه سواء أخالف رأى مالك أم وافقه ، دون أن يتعرض لمالك بنقد .. ولكنه بعد ذلك وجد بعض الناس يغالون فى أمر مالك ، ويقدسون آثاره وثيابه ، وكان لمالك قلنسوة يتبركون بها فى الأندلس ، واذا قيل : قال رسول الله ، أجاب هؤلاء : قال مالك !

هنا قال الشافعى ان مالكا بشر يصيب ويخطىء ، وأخذ ينقده ، ووضع فى ذلك كتابا اسمه « خلاف مالك » وقرر فيه أنه لا رأى مع الحديث ، ولكنه طوى الكتاب عنده سنة احتراما منه لمكانة أستاذه ، ثم نشره على الناس ، وكان يقصد بذلك وجه الله تعالى ، ولا يقصد التشهير بأستاذه ، بدليل أنه كان لا يعبر عن مالك الا بقوله : « الاستاذ »

ونقد الشافعى كذلك آراء لأبى حنيفة والأوزاعى ، وناله بسبب نقده هذا متاعب ومشاق ..

ولقد استفاد الشافعى فوائد كثيرة من كتب محمد بن الحسن ، ومن دراسته للفقه العراقى ، ومناظرته لفقهائه ، لأن ذلك قد هيأ له الجمع

بين فقه المدينة وفقه العراق ، أو بين فقه النقل وفقه العقل ، وساعده ذلك فأصل الأصول ، وقعد القواعد ، واشتهر أمره ، وعلا ذكره ، وارتفع قدره ، وصار منه ما صار

تلاميذ الشافعي :

اذا كان الشافعي قد كثرت شيوخه بالصورة التي رأيناها فان تلاميذه قد كثروا كذلك ، فمن تلاميذه في مكة : أبو بكر الحميدي ، وابراهيم ابن محمد بن العباس ، وأبو بكر محمد بن ادريس ، وموسى بن أبي الجارود ..

ومن تلاميذه في بغداد : الحسن الصباح الزعفراني ، والحسين بن علي الكرابيسي ، وأبو ثور الكلبي ، وأحمد بن محمد الأشعري البصري

ومن تلاميذه في مصر : حرملة بن يحيى ، ويوسف بن يحيى البويطي ، واسماعيل بن يحيى المزني ، ومحمد بن عبدالله بن عبد الحكم ، والربيع ابن سليمان الجيزي

ومن أبرز تلاميذ الشافعي أحمد بن حنبل الذي سئل عن الشافعي فقال : لقد منّ الله به علينا ، لقد كنا تعلمنا كلام القوم ، وكتبنا كتبهم ، حتى قدم علينا الشافعي ، فلما سمعنا كلامه علمنا أنه أعلم من غيره ، ولقد جالسناه الأيام والليالي فما رأينا منه الا كل خير ، رحمة الله عليه

وكان ابن‌حنبل كثير التردد على مجلس الشافعي ، حتى قال الزعفراني : « ما ذهبت الى الشافعي قط مجلسا الا وجدت أحمد بن حنبل فيه »

وكان ابن حنبل يجل مقام شيخه الشافعي ويحتفل به ، ولقد ركب الشافعي يوما حماره ، فمشى ابن حنبل الى جانبه وهو يذاكره ، ولما علم يحيى بن معين بذلك عاتب ابن حنبل على ما فعل ، فقال له ابن حنبل : « لو كنت في الجانب الآخر من الحمار لكان خيرا لك ! »

وقال ابن حنبل أيضا : « لما قدم علينا الشافعي من صنعاء سرنا على المحجة البيضاء ! » ..

وكان الشافعي يلقي درسه بمكة في المسجد الحرام حيث استمع اليه

الكثيرون فى موسم الحج وغيره ، وحيث التقى به الامام ابن حنبل وأخذ عنه ، ويدل على هذا أن اسحاق بن راهويه كان عند سفيان بن عيينة يكتب منه أحاديث عمرو بن دينار ، فجاءه أحمد بن حنبل فقال له : « قم يا أبا يعقوب حتى أريك رجلا لم تر عيناك مثله »

فقام معه اسحاق وأتيا فناء زمزم ، فاذا هناك رجل عليه ثياب بيض ، تعلو وجهه السمرة ، حسن السمت ، حسن العقل ، وهو الشافعى الذى أجلس اسحاق بجانبه ، وقال ابن حنبل للشافعى : « يا أبا عبدالله ، هذا اسحاق بن راهويه الحنظلى » .. فرحب الشافعى به وحياه ، وذاكره فانفجر منه لاسحاق علم أعجب اسحاق حفظه

ثم قال ابن حنبل لاسحاق : « يا أبا يعقوب ، اقتبس من الرجل فانه ما رأت عيناى مثله !.. »

وأخذت شخصية الشافعى الفقهية المتميزة تلوح وتتجلى من خلال هذه الدروس ، وأقام فى مكة نحو تسع سنوات استطاع خلالها أن يتبحر فى دراسة ما يتعلق بالقرآن والسنة والاجتهاد وأصول الاستنباط والقواعد الكلية فى الفقه ..

وفى سنة خمس وتسعين ومئة عاد الشافعى من مكة الى بغداد ، بعد أن سطع نجمه فى الفقه ، فأقبل عليه العلماء والمحدثون وأهل الرأى ، وألف كتابه « الرسالة » التى وضع بها الأساس لعلم أصول الفقه ، ويروى أن هذا التأليف كان بتوجيه من عبد الرحمن بن مهدى الذى أعجب بالكتاب وقال : « ما أظن أن الله عز وجل خلق مثل هذا الرجل » .. وقد أعاد الشافعى تأليف هذا الكتاب بعد رحيله الى مصر الذى كان سنة تسع وتسعين ومئة ، وقيل سنة مائتين ، ووفق النووى بين الروايتين بأنه لعله رحل فى آخر سنة تسع وتسعين ومئة ، أى وبلغها فى فاتحة المائتين . وكان سبب رحيله هو تغلب العنصر الفارسى فى بغداد على العنصر العربى ، والشافعى عربى قرشى ، وانتشار الفلسفة التى أيدها المأمون ودافع عنها ، والشافعى فقيه معتز بالشريعة ، ولقد عرض عليه

المأمون القضاء فأباه ، فأصبح مكانه غير مطمئن به

ويقال ان سبب قدومه مصر هو أن العباس بن عبـدالله والى مصر ــ وهو قرشى هاشمى ــ استدعى الشافعى الى مصر فاستجاب ، وقال وهو يهم بالرحيل :

لقد أصبحت نفسى تتوق الىمصر ومن دونها قطع المهـامه والقفر
فوالله ما أدرى أللفـــوز والغنى أساق اليها أم أساق الى القبر !؟

وأقام بمصر أربع سنين ونيفا ، وصنف فيها كتبه وسار ذكره ، وقصده الناس من الشام واليمن والعراق . ووضع مذهبه الجديد الذى ذهب اليه فى مصر بسبب تغير الأوضاع والعادات ، وضمنه كتابه « الأم »

وكانت الدروس والعلوم التى يلقيها الشافعى على تلاميذه كثـيرة متعددة ، تدل على باع طويل من الشافعى فى العلم ، وتدل على تعـدد المشارب التى كان ينزع اليها تلاميذه فى طلب العلم ، ويتضح هذا اذا عرفنا أن الشافعى كان ــ كما يقول الربيع بن سليمان ــ يجلس فىحلقته اذا صلى الفجر ، فيجيئه أهل القرآن ، فاذا طلعت الشمس قاموا وجاء أهل الحديث فيسألونه تفسيره ومعانيـه ، فاذا ارتفعت الشمس قاموا فاستوت الحلقة للمذاكرة والنظر ، فاذا ارتفع الضحى تفرقوا ، وجاء أهل العربية والعروض والنحو والشعر ، فلا يزالون الى قرب انتصاف النهار ! ..

ومعنى هذا أن الشافعى يظل قرابة ست ساعات يوميا يلقى دروسا متصلة ، يتنقل فيها من علم الى علم ، ومن مادة الى مادة ، ويظل ملازما مكانه ، وجموع التلاميذ تتوالى عليه ، يذهب عنه جمع ليقبل عليـه آخر ، ويظل هكذا من بعد صلاة الفجر حتى تدنو صلاة الظهر !

فقه الشافعى :

ان فقه الامام الشافعى يمثل طور الازدهار الفقهى فى تاريخ التشريع الاسلامى ، لأنه يجمع بين فقه أهل العقل والرأى ، وفقه أهـل النقـل والحديث ، وهو أيضا الفقه الذى يتمثل فيه ضبط السنة والقياس والرأى

بموازين ومقاييس ، كما أنه الفقه الذى حدد طرق الفهم للقرآن والسنة ، وقواعد الاستنباط والتخريج ، ولذلك يعتبر الشافعى بحق واضع أصول الفقه ..

ومن الواضح أن الشافعى أخذ يكون مذهبه الفقهى بعد أن درس فقه المدينة وفقه العراق ، وقارن بين الفقهين ، وناظر أهلهما ، وقد بدأ مذهبه فى الظهور بمكة ، ثم انتقل الى بغداد وواصل فيها مذهبه ، ثم ارتحل الى مصر ، وفيها زاد نجمه سطوعا ، وأضاف الى فقهه كثيرا بسبب تغير البيئة والمجتمع ، كما أنه عدل بعض آرائه بسبب هذا التغير أيضا

والشافعى فى فقهه ومذهبه يتخذ القرآن الكريم الامام الأول له فى الحكم والتشريع ، ثم يقول ان السنة بمنزلة القرآن ، لأنها مبينة له ومفسرة ، ولذلك تعد المصدر التالى للقرآن ، واذا ما صح الحديث عند الشافعى خضع له ، ولذلك كان يقول : « هل لأحد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حجة » ؟ ..

ويقول : « اذا صح الحديث فهو مذهبى »

وكان اذا عرضت له مسألة بحث فيها أولا عن الحديث النبوى ليعتمد عليه ، وكان يطلب من تلاميذه أن يتركوا رأيه ويأخذوا بما يثبت لديهم من الحديث اذا خالف رأيه الحديث ..

والشافعى هو الذى قال : « أى أرض تقلنى ، وأى سماء تظلنى ، اذا رويت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم أقل : نعم على الرأس والعينين » !.. وقال : « مهما قلت من قول ، أو أصلت من أصل ، وفيه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم خلاف ما قلت فالقول ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . وهو قولى » ! ..

ولأن الشافعى يعرف للحديث مكانته هذه نراه يعنى بحفظ الحديث حتى يقول ابن فرحون فى « الديباج المذهب » ان الشافعى كان حافظا ، وانه حفظ كتاب « الموطأ » فى تسع ليال ، وقال محمد بن الحسن : « ان تكلم أصحاب الحديث يوما فبلسان الشافعى » . وقال الحسن بن محمد

الزعفرانى : « كان أصحاب الحديث رقودا فأيقظهم الشافعى فتيقظوا »
وقيــل لابن خزيمة : هل سنة صحيحة لم يودعهــا الشافعى كتبه ؟..
فقال : لا . وقال هــلال بن العلاء : « أصحاب الحديث عيــال على
الشافعى ، فتح لهم الأقفال »

وبهذا استحق الشافعى أن يسمى « ناصر الحديث » ، وأن يسمى
أتباعه « أصحاب الحديث » !

ويقول فخر الدين الرازى مصورا المهمة الكبرى التى قام بها الشافعى
فى مجال الجمع بين الخضوع للحديث واستخدام الرأى :

« النــاس كانوا قبــل زمان الشافعى فريقين : أصحاب الحديث ،
وأصحاب الرأى ، أما أصحاب الحديث فكانوا حافظين لأخبار رسول الله
صلى الله عليه وسلم ، الا أنهم كانوا عاجزين عن النظر والجدل ، وكلما
أورد عليهم أحد من أصحاب الرأى سؤالا أو اشكالا ، سقط فى أيديهم
عاجزين متحيرين ..

وأما أصحاب الرأى فكانوا أصحاب النظر والجدل ، الا أنهم كانوا
عاجزين عن الآثار والسنن ..

وأما الشافعى رضى الله عنه فكان عارفا بسنة رسول الله صلى الله عليه
وسلم ، محيطا بقوانينها ، وكان عارفا بآداب النظر والجدل ، قويا فيه ،
وكان فصيح الكلام ، قادرا على قهر الخصوم بالحجة الظاهرة ، وآخذا
فى نصرة أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكل من أورد عليه
سؤالا أو اشكالا أجاب عنه بأجوبة شافية كافية ، فانقطع بسببه استيلاء
أهل الرأى على أصحاب الحديث » ..

وكان الشافعى يعنى بتمحيص ما يرويه الرواة منسوبا الى الرســول
عليه الصلاة والسلام ، ولذلك كان يشترط فى راوى الحديث أن يكون
ثقة صادقا متدينا ، فاهما ما يرويه ، ضابطا له وحافظا ان رواه من كتاب ،
وأن يكون قد سمع الحديث مباشرة ممن يرويه عنه ! ..

وكان الشافعى يأخذ بالاجماع ، ويعتبره حجة بعــد القرآن الكريم

والحديث ، ولكنه وضع للاجماع قيودا وشروطا ، حتى لا ينتقل أمره الى دعوى أو فوضى

وكان الشافعى يكره الابتداع فى الدين ، ولذلك كان يكره علم الكلام وأهله الذين يبتدعون ، ويرى أنهم يستحقون الضرب والتشهير ، ويقول عنهم : « هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأخذ فى الكلام » ..

وآلم الشافعى كثيرا أن رأى أهل الكلام والجدل يكفر بعضهم بعضا ، ومع كراهية الشافعى لعلم الكلام حرص على معرفته والاحاطة بأصوله ، وعبر عن هذه المعرفة بقوله عنه : « أتظنون أننى لا أحسنه ؟.. لقد دخلت فيه حتى بلغت مبلغا عظيما » ..

ويؤيد هذا الكلام من الشافعى أنه رد على بعض علماء الكلام آراء لهم ، وهذا الرد يستلزم اطلاعه على هذا العلم وخبرته به ..

ويرى الشافعى أنه لا يجوز للانسان أن يقول فى الشريعة برأيه ، الا اذا كان أساس هذا الرأى هو القياس ، وهو الحاق أمر غير منصوص على حكمه بأمر منصوص على حكمه ، لاشتراكهما فى علة الحكم ..

وكان يقول : « من استحسن فقد شرع » أى من قال فى الدين برأيه فقد أضاف الى الدين ما ليس منه ! ..

والشافعى لا ينسى أن يضع للقياس حدودا وقيودا حتى لا يخرج عن نطاقه المحدود ..

والميزة البارزة فى فقه الشافعى وعلمه أنه وضع قواعد علم «الأصول» ولذلك يقول الرازى : « اعلم أن نسبة الشافعى الى علم الأصول كنسبة أرسطو الى علم المنطق ، وكنسبة الخليل بن أحمد الى علم العروض » ..

ثم يقول : « الناس قبل الامام الشافعى رضى الله عنه يتكلمون فى مسائل أصول الفقه ، ويستدلون ويعترضون ، ولكن ما كان لهم قانون كلى مرجوع اليه فى معرفة دلائل الشريعة فى كيفية معارضاتها وترجيحاتها .. واستنبط الشافعى رحمه الله تعالى علم أصول الفقه ،

ووضع للخلق قانونا كليا يرجع اليه فى معرفة مراتب أدلة الشرع » ..

ويركز النووى الأصول والقواعد التى قام عليها فقه الامام الشافعى ومذهبه فيقول عنه : « جاء بعد أن مهدت الكتب وصنفت ، وقررت الأحكام ونقحت ، فنظر فى مذاهب المتقدمين ، وأخذ من الأئمة المبرزين ، وناظر الحذاق المتقنين ، فبحث مذاهبهم وسبرها ، وتحققها وخبرها ، فلخص منها طريقة جامعة للكتاب والسنة والاجماع والقياس ، ولم يقتصر على بعض ذلك كما وقع لغيره ..

وتفرغ للاختيار والتكميل والتنقيح ، مع كمال قوته ، وعلو همته ، وبراعته فى جميع أنواع الفنون ، واضطلاعه منها أشد اضطلاع ..

وهو المبرز فى الاستنبـاط من الكتاب والسنة ، البـارع فى معرفة الناسخ والمنسوخ ، والمجمل والمبين ، والخاص والعـام ، وغيرها من تقاسيم الخطاب ، فلم يسبقه أحد الى فتح هذا الباب ، لأنه أول من صنف أصول الفقه بلا اختلاف ولا ارتياب .. وهو الذى لا يساوى — بل لايدانى — فى معرفة كتاب الله تعالى وسنة رسـوله صلى الله عليه وسلم ، وردّ بعضها الى بعض » ..

كتب الشافعى

ألّف الشافعى كثيرا من الكتب ، حتى روى أنه صنف مئة وثلاثة عشر كتابا فى الفقه والتفسير والأصول والأدب وغيره ، وقد ذكر ياقوت فى الجزء السابع عشر من « معجم الأدباء » عشرات وعشرات من أسماء الكتب للشافعى ، وبالنظر فيها يلوح أنها ليست كتبا بالمعنى المفهوم لنا من الكتاب اليوم ، وانما هى أبواب فقهية ، وأغلب هذه الأبواب قد اشتمل عليها كتاب « الأم » للشافعى ..

ومن كتب الشافعى كتاب « الرسالة » الذى تحدث فيه عن أصـول الفقه ، وكان تأليف الشافعى لهذا الكتاب — كما سبق — بطلب من عبد الرحمن بن مهدى امام أهل الحديث فى عصره ، فهو الذى طلب من الشافعى أن يصنف كتابا فى أصول الفقه ..

وقد أجمع الناس على استحسان هذه الرسالة ، وأقوال السلف فى ذلك مشهورة بأسانيدها ، وكأن عبد الرحمن بن مهدى المشار اليه ويحيى ابن سعيد القطان يعجبان بها ، وكذلك أهل عصرهما ومن بعدهما . وقال المزنى وكأنه يبالغ : « قرأت الرسالة خمسمائة مرة ، ما من مرة الا استفدت منها فائدة جديدة » . وقال أيضا : « أنا أنظر فى الرسالة من خمسين سنة ما أعلم أنى نظرت فيها مرة الا استفدت منها شيئا لم أكن عرفته » ! ..

ومن كتب الشافعى كتاب « الأم » ، وهو كتاب جليل ضخم فى فقه الشافعى ، وبعض الباحثين ينكر أن يكون كتاب « الأم » للشافعى ، ويقول انه تأليف أبى يعقوب البويطى ، ويستدل على ذلك بأن أبا طالب المكى ذكر فى كتابه « قوت القلوب » عبارة تقول عن البويطى : « وصنف كتاب « الأم » الذى ينسب الآن الى الربيع بن سليمان ويعرف به ، وانما هو جمع البويطى ، ولم يذكر نفسه فيه ، وأخرجه الى الربيع ، فزاد فيه وأظهره ، وسمعه الناس منه ! » (١)

ولكن كتاب « قوت القلوب » لايوثق به فى رواية الأحاديث فضلا عن الأخبار ، وقد تكاثرت الروايات التى تنص على نسبة كتاب «الأم» الى الشافعى ..

ولعل المراد من كلمة « صنف » فى عبارة « قوت القلوب » أنه جمع أجزاء الكتاب ، لا أنه ألّفه ..

وقد صنف الشافعى ، وهو فى العراق ، كتابه القديم المسمى «الحجة» ، ورواه عنه أربعة من الكبار هم : أحمد بن حنبل ، وابن ثور ، والزعفرانى ، والكرابيسى ..

ومن كتب الشافعى : الوصايا الكبيرة ــ اختلاف أهل العراق ــ وصية الشافعى ــ جماع العلم ــ ابطال الاستحسان ــ جامع المزنى

---

(١) وقد نقل الغزالى رأى المالكى فى الجزء الثانى من كتاب « احياء علوم الدين » فقال : « وآثر البويطى الزهد والخمول ولم يعجبه الجمع والجلوس فى الحلقة ، واشتغل بالعبادة، وصنف كتاب الام الذى ينسب الآن الى الربيع بن سليمان ويعرف به ، وانما صنفه البويطى، ولكن لم يذكر نفسه فيه ولم ينسبه الى نفسه فزاد الربيع فيه وتصرف واظهره » . ص ١٦٦ .

الكبير ــ جامع المزنى الصغير ــ الأمالى ــ مختصر الربيع والبويطى ــ الاملاء .. الخ ..

وقــد دون الشافعى بعض كتبه ، أى كتبها بنفســه ، وأملى البعض الآخر منها ..

كلمات للشافعى :

كان الشافعى عالما لغويا أديبا ، وكان بحكم عروبته وثقافته وتطلبه اللغة والأدب والشعر صاحب بيان فخم وتعبير جزل ، وقــد أثرت عنه مجموعة ضخمة من الكلمات البليغة الوجيزة المركزة ، وتناثرت فى الكتب التى كتبها ، أو التى كتبت عنه ، وفيما يلى نذكر طائفة من هذه الكلمات :

١ ــ تفقه قبل أن ترأس ، فاذا رأست فلا سبيل الى التفقه ..
٢ ــ ليس بأخيك من احتجت الى مداراته ..
٣ ــ العلم أفضل من صلاة النافلة ..
٤ ــ رضا الناس غاية لا تدرك ، ما أقوله لك الا نصحا ، ليس الى السلامة من الناس سبيل ، فانظر مافيه صلاح نفسك فالزمه ، ودع الناس وما هم فيه ..
٥ ــ من صدق فى أخوة أخيه قبل علله ، وسد خلله ، وغفر زلله ..
٦ ــ من أراد الدنيا فعليه بالعلم ، ومن أراد الآخرة فعليه بالعلم ..
٧ ــ ما أفلح فى العلم الا من طلبه فى القلة « الفقر » ، ولقد كنت أطلب القرطاس فيعسر على ..
٨ ــ من طلب علما فليدقق ، والا ضاع دقيق العلم ..
٩ ــ زينــة العلماء التوفيق ، وحليتهم حسن الخلق ، وجمالهم كرم النفس ..
١٠ ــ فقر العلماء فقر اختيار ، وفقر الجهال فقر اضطرار ..
١١ ــ من لم تعزه التقوى فلا عز له ..
١٢ ــ من غلبته شدة الشهوة للدنيا لزمته العبودية لأهلها ..
١٣ ــ سياسة الناس أشد من سياسة الدواب ..

١٤ ـ لو علمت أن شرب الماء البارد يثلم مروءتى ما شربته ..
١٥ ـ أصحاب المروءات فى جهد ..
١٦ ـ من برّك فقد أوثقك ، ومن جفاك فقد أطلقك ..
١٧ ـ من نمّ لك نمّ بك ، ومن اذا أرضيته قال فيك ما ليس فيك ، اذا أغضبته قال فيك ما ليس فيك ..
١٨ ـ من وعظ أخاه سرا فقد نصحه وزانه ، ومن وعظه علانيــة فقد فضحه وشانه ..
١٩ ـ من تزين بباطل هتك ستره ..
٢٠ ـ أرفع الناس قدرا من لايرى قدره ، وأكثرهم فضلا من لايرى فضله ..
٢١ ـ الشفاعات زكاة المروءات ..
٢٢ ـ الانبساط الى النــاس مجلبة لقرناء السوء ، والانقبــاض عنهم مكسبة للعداوة ، فكن بين المنقبض والمنبسط ..
٢٣ ـ صحبة من لا يخاف العار عار يوم القيامة ..
٢٤ ـ ان الله تعالى خلقك حرا ، فكن حرا كما خلقك ...
٢٥ ـ ما أكرمت أحدا فوق مقداره الا اتضع من قدرى عنده بمقدار ما زدت فى اكرامه ..
٢٦ ـ من سمع بأذنه صار حاكيا ، ومن أصغى بقلبه كان واعيا ، ومن وعظ بفعله كان هاديا ..
٢٧ ـ من ولى القضاء ولم يفتقر فهو لص ..
٢٨ ـ اذا أخطأتك الصنيعة الى من يتقى الله عز وجل فاصطنعها الى من يتقى العار ! ..

الشافعى والعربية :

كان الشافعى عربى اللسان والدار والعصر ، وهو من ســلالة عربية قرشية ، وهو البليغ الفصيح منذ نشأته ، ومع ذلك ظل يشتغل بالعربية عشرين عاما ، حتى صار اماما حجة فى لغة العرب ، وهذا ابن هشام امام

أهل مصر فى عصره فى اللغة والنحو يقرر أن الشافعى حجة فى اللغة ، وذكر أبو عبيد ، وأيوب بن سويد ، وأبو عثمان المازنى مثل هذا ، وكان ابن هشام يرجع فيما يشك فيه الى الشافعى ليستوضحه ..

ويقول يونس بن عبد الأعلى : « كان الشافعى اذا أخذ فى العربية قلت : هو بهذا أعلم ، واذا تكلم فى الشعر وانشاده قلت : هو بهذا أعلم ، واذا تكلم فى الفقه قلت : هو بهذا أعلم » ..

وقد عرفنا أن الشافعى كان له درس يومى فى علوم العربية ، يبدأ من ارتفاع الضحى ، ويمتد الى قرب انتصاف النهار . ولم يكن تلاميذه فى هذا الدرس بالصغار أو العامة من الناس ، بل نجد الكرابيسى يقول : « كان يأتيه كبار أهل اللغة والشعر » ..

ولكن بعض الناس قد يشتغل بعلوم العربية ، ويحصل منها مايحصل ، ويحفظ من قواعدها ما يحفظ ، ويلقى على تلاميذه من مفرداتها أو أصولها ما يلقى ، ثم يبقى بعد هذا لايحسن التعبير ولا يجيد البيان ، بل قد يخطىء فى استعمال القواعد ، ويلحن فى الأداء ، ويعسر عليه التطبيق بعد أن مهر فى التحصيل ، ونستطيع أن نفرق بسهولة بين عالم اللغة والمقتدر على استعمال اللغة ، وأن نفرق بين عالم الأدب والأديب ، وأن نفرق بين عالم البلاغة والبليغ ..

فهل كان الشافعى من ذلك الصنف الذى يحصل الكثير من علوم العربية ، ثم يحرم الانتفاع بها فى بيانه ولسانه ؟.. الجواب : لا ، فقد كان الشافعى عالما باللغة ، ومقتدرا على استعمال اللغة ، وكان عالما بالأدب وأديبا ، ولقد جالس ابن هشام الشافعى ، وطالت مجالسته له ، فما سمعه ابن هشام يتكلم بكلمة الا اعتبرها المعتبر ، ولا يجد كلمة فى العربية أحسن منها ..

واذا كان ابن هشام قد قرر فيما عرفنا أن الشافعى حجة فى اللغة ، فانه عاد فقرر أن كلام الشافعى لغة يحتج بها ، فهو حجة فى علمه باللغة ، وهو قدوة فى تعبيره باللغة ..

ولقد حكى الحسن بن محمد الزعفرانيأن قوما من أهل العربية كانوا يختلفون معه الى مجلس الشافعى ، ويجلسون ناحية ، فقال الزعفرانى لرجل منهم : انكم لا تتعاطون العلم ، فلم تختلفون معنا ؟.. فأجابوا : نسمع لغة الشافعى ! ..

« نسمع لغة الشافعى » ! .. انها لكلمة فيها من التقدير لبيان الشافعى ما فيها ، فهؤلاء قوم ليسوا بطلاب للفقه ولا للاصول ولا لبقية العلوم التى يبثها الشافعى ، ففيم جاءوا الى مجلسه ، وحبسوا أنفسهم عليه ، وظلوا الساعات الطوال فيه ؟ .. لقد جاءوا من أجل شىء واحد ، هو أن يستمعوا الى لغة الشافعى وبيان الشافعى !

وكان الشافعى صاحب سليقة فى العربية وبيانها ، فهو لا يخطىء ولا يلحن ، ولقد يتابعه متابعون يتسقطون له لحنة فلا يجدونها ، ويحاولون التقاط هفوة فلا يقعون عليها ، ولذلك قال ابن هشام النحوى : « طالت مجالستنا للشافعى فما سمعت منه لحنة قط ، ولا كلمة غيرها أحسن منها » ..

ولقد تكرر الاستشهاد هنا بابن هشام ، وهو أولى الناس بأن يتكرر الاستشهاد من كلامه هنا ، فانه نحوى وامام فى العربية ، فهو صاحب اختصاص ، وهو القاضى الخبير بالقضية ، فالقول ما قالت حزام !

وفوق هذا نجد غيره يؤيد حكمه ، فهذا هو الزعفرانى راوى كتب الشافعى القديمة يقول عنه : « ما رأيته لحن قط ، وكان يقرأ عليه من كل شعر فيعرفه ، وما حمل أحد محبرة الا وللشافعى عليه منة ، ما كان الشافعى الا بحرا »

ولقد قال الربيع كلمة رائعة فى تصوير بلاغة الشافعى وبيانه ، وان روعة كلمة الربيع لجديرة بأن تقترن بروعة بيان الشافعى فى مجال الحكم والتقدير .. يقول الربيع « كان لسان الشافعى أكبر من كتبه » !

ويأتى مؤرخو الشافعى ، وذاكرو مناقبه ، فيحاولون أن يربطوا بين كلمة الربيع وبين قصة يريدون بها تفسير هذه الكلمة ، والله تعالى أعلم.

بمبلغ هذه القصة من الحق والواقع ، فقد رووا أن الشافعى ذكر أنه رأى النبى صلى الله عليه وسلم فى النوم ، فمس النبى بريقه لسان الشافعى وفمه وشفتيه ، وقال له : امض بارك الله فيك .. فما لحن بعدها أبدا ..

واذا كان الشافعى قد قص القصة فعلا فهو صادق ، والقصة وقعت ، ولكن المهم هو أن يكون الشافعى قد قالها !

ومع هذا فالشافعى قد أشار الى سلامة بيانه وقوة لسانه فى موطن آخر ، اذ روى ياقوت أن الشافعى سئل عن مسألة فأجاب عنها ، ثم أنشأ يقول :

اذا المشكلات تصدين لى — كشفت حقائقها بالنظر
لسان كشقشقة الارحبى — أو كالحسام اليمانى الذكر
ولست بامعة فى الرجا — ل أسائل هذا وذا ما الخبر
ولكننى مدره الأصغري — ن جلاب خير ، وفراج شر

والمفهوم من عبارة ياقوت أن الأبيات للامام الشافعى ، ولكنى فى كتاب « سلاح الشعر » نقلت عن « جامع بيان العلم وفضله » أن هذه الأبيات جاءت منسوبة الى الامام على بن أبى طالب ، وهى فى كتاب « سلاح الشعر » ستة أبيات لا أربعة ، ويمكن أن تراجع القصة والأبيات هناك (١)

ومن لطائف الشافعى فى باب اللغة العربية أنه يرى أن تعلمها واجب على كل مسلم — عربيا كان أو غير عربى — وقد ذكر ذلك فى كتابه « الرسالة » ، وقال ان لسان العربية يجب أن يكون مقدما على كل لسان ، لأنه لسان القرآن ولسان الرسول ، ولا يجوز أن يكون لسان المسلمين تابعا لأى لسان ، بل يجب أن يكون كل لسان تبعا للسانهم العربى القرآنى المبين ، ويقول : « فعلى كل مسلم أن يتعلم من لسان العرب ما بلغه جهده » !

ويرى الشافعى أن عقد الزواج لا يجوز بغير العربية للقادر على التكلم بها (٢) ، ويوجب على من يتعرض لتفسير القرآن الكريم أن يكون عالما

---

(١) سلاح الشعر ، ص ١٠ و ١١

(٢) ذكرنى هذا بكلمة للبيرونى يقول فيها : « الهجو بالعربية احب الى من المدح بالفارسية » !

باللغة العربية ..

وما دام الحديث هنا عن اللغة ، فيمكن أن نشير الى ما قيل من أن الشافعى تعلم اللغة اليونانية ، وقيل هذا لأن الرازى روى أن الرشيد سأل الشافعى قائلا : فكيف علمك بالطب ؟ .. قال : « أعرف ما قالت الروم ، مثل أرسططاليس وسقراط وجالينوس وفرفوريوس وابوقليس بلغاتها ، وما نقله أطباء العرب ، وقننته فلاسفة الهند ، ونمقته علمـــاء الفرس » ! ..

والواقع أن الشك يحيط بهذه الرواية ، وقد رفض التسليم بها ابن كثير وابن حجر وابن القيم ، وقالوا انها مكذوبة ، والذى تولى كبر وضعها هو محمد بن عبدالله البلوى ، وقد فند ابن القيم هذه الرواية فى كتابه « مفتاح السعادة » ..

وقد يتعلق بعض المتعالمين المعاصرين بهذه الرواية المكذوبة ، ليحاول أن يزعم أن الشافعى قد استفاد شيئا فى علمه أو فقهه من اطلاعه على غير العربية ، ولكننا شاهدنا كما سبق أن الأئمة الذين مضوا منذ مئات السنين قد فندوا الرواية ، وأقاموا الشواهد على كذبها

الشافعى الشاعر :

قد يكون عجبا للناس الذين لم يحيطوا بسيرة الشافعى علما أن يقال لهم انه كان شاعرا ، ولكن هذا هو الذى كان ، فان الشافعى كان شاعرا يجيد قول الشعر ، وان لم ينصرف اليه ولم يتوسع فيه ، اذ كان مقلا منه لاشتغاله بالفقه والعلم .. وهذا هو المبرد يقول : « كان الشافعى من أشعر الناس ، وآدب الناس ، وأعرفهم بالقراءات »

وحق للشافعى العالم الفقيه أن يجيد قول الشعر الحسن بجوار علمه وفقهه ، فقد بدأ أمره بطلب الشعر والأدب وأيام العرب ، وهو قد رحل الى موطن قبيلة « هذيل » وأقام بينها زمنا طويلا يتلقى عن أبنائهـــا اللغة ، ويحفظ منهم أشعارهم ، حتى صار حجة فى أشعار هذيل فيقول الأصمعى : صححت أشعار هذيل على فتى من قريش يقال له محمد بن

ادريس الشافعى .. كما قال الأصمعى : قرأت شعر الشنفرى على الشافعى بمكة ! ..

وظل الشافعى يحفظ هذه الأشعار حتى بعد أن شغله الحديث والفقه ، ويردد هذه الأشعار بنجوة من الذين يضيقون بها .. فقد قال مصعب الزبيرى : كان أبى والشافعى يتناشدان ، فأتى الشافعى على شعر هذيل حفظا ، وقال : لا تعلم بهذا أحدا من أهل الحديث ، فانهم لا يحتملون هذا ! ..

وحفظ الأشعار خطوة واسعة نحو احتذائها فى نظم الشعر عند المستعد لنظمه ، فكيف بحافظها اذا كانت عنده الفطرة الشعرية أو الملكة الدافعة الى قول الشعر ؟

والشافعى كما يلوح لنا ذو فطرة وذو ملكة وذو استعداد وذو اقتدار على الانتفاع فى صياغته الشعرية بالزاد الشعرى الجليل الكبير الذى حفظه ووعاه ..

وقد استطعت أن أجمع للشافعى مقطوعات شعرية من هنا ومن هناك ، وهى مقطوعات تبدو فيها القوة والجزالة وشرف الغرض الذى تقال فيه ، فترى الشافعى يقول الشعر فى التعبير عن بعض آرائه الدينية .. كأن ينظم أبياتا يصور بها حبه لآل الرسول عليه الصلاة والسلام ، فيقول :

يا راكبا قف بالمحصب من منى ... واهتف بقاعد خيفها والناهض
سحرا اذا فاض الحجيج الى منى ... فيضا كملتطم الفرات الفائض
ان كان رفضا[1] حب آل محمد ... فليشهد الثقلان أنى رافضى

ونراه يصوغ مقطوعة يصور فيها بعض التهم التى توجه اليه من الجهلاء أو الأعداء ، فهو اذا أحب عليا وآل بيت النبى اتهموه بأنه رافضى ، واذا اعترف بفضل أبى بكر الصديق اتهموه بأنه ناصبى ، ويقصد بالنصب هنا مناصبة آل بيت النبى العداوة ، فماذا يصنع ؟ .. هل يغير رأيه ويبدل عقيدته ؟ .. كلا ثم كلا ، بل هو مقيم على حبه لعلى

(١) الرافضة فرقة من الشيعة تتبرأ من أبى بكر وعمر

وآله ، وعلى اعترافه بفضل أبى بكر الصديق ، وليفتر المفترون ما يستطيعون ، يقول :

اذا نحن فضلنا عليا فاننا روافض بالتفضيل عند ذوى الجهل
وفضل أبى بكر اذا ما ذكرته رميت بنصب عند ذكرى للفضل
فلا زلت ذا رفض ونصب كلاهما أدين به حتى أوسد فى الرمل !

ونراه وهو على فراش الموت ينفث عن صدره بالشعر ، ويستخدمه فى غرض شريف كريم ، وهو رجاء العفو والمغفرة من الله تعالى صاحب الفضل العظيم والخير العميم . وقد روى الرواة أن اسماعيل بن يحيى المزنى دخل على الشافعى فى مرضه الذى مات فيه وقال له : كيف أصبحت ؟ .. فرد الشافعى قائلا : أصبحت من الدنيا راحلا ، وللاخوان مفارقا ، ولكأس المنية شاربا ، وعلى الله جل ذكره واردا ، ولا والله ما أدرى : روحى تصير الى الجنة ، أو الى النار فأعزيها ، ثم بكى وأنشأ يقول :

فلما قسا قلبى وضاقت مذاهبى جعلت رجائى نحو عفوك سلما
تعاظمنى (١) ذنبى فلما قرنته بعفوك ربى كان عفوك أعظما
فما زلت ذا عفو عن الذنب لم تزل تجود وتعفو منة وتكرما
فلولاك لم يقدر بابليس (٢) عابد فكيف وقد أغوى صفيك آدما

ونراه يقول بيتين يصور بهما حبه للرحلة والاغتراب ، فى سبيل مطامحه العالية ورغائبه السامية ، ولا يبالى أسلم أم مات ، لأنه محمود عند موته ، فائز عند سلامته ، فيقول :

سأضرب فى طول البلاد وعرضها أنال مرادى أو أموت غريبا
فان تلفت نفسى فلله درها وان سلمت كان الرجوع قريبا

وحق للشافعى أن يقول هذا فى السفر والرحلة ، فهو الذى حرض التحريض القوى على الانتقال والارتحال بأبياته المشهورة التى يقول فيها :

---

(١) تعاظمنى : عظم فى نظرى
(٢) لم يقدر بابليس : لم يقس به

سافر تجد عوضا عمن تفارقه ... وانصب فان لذيذ العيش فى النصب
انى رأيت وقوف الماء يفسده ... ان سال طاب ، وان لم يجر لم يطب
والأسد لولا فراق الغاب ما افترست ... والسهم لولا فراق القوس لم يصب
والتبر كالترب ملقى فى أماكنه ... والعود فى أرضه نوع من الحطب

***

ويواصل الشافعى قول مقطوعاته فى أغراضه الشريفة مع استخدامها فى الارشاد والتوجيه ، فيقول فى تعزية بعض الناس :

انى أعزيك لا أنى على طمع ... من الخلود ، ولكن سنة الدين
فما المعزى بباق بعد صاحبه ... ولا المعزى ، وان عاشا الى حين

ويثور الشافعى لكرامته ، اذ هو يحس فى بعض الأحيان أن من حوله لايعرفون قدر ما يبثه فيهم وينثره عليهم ، واذا كان هؤلاء قد ضيعوه ، فلم يحفظوا من حقوقه ما يجب أن يصان ، فهو لن يذل كلامه بينهم ، وكفاه ما أصابه ، وسينتظر حتى يجد من يستحقون كلامه ، ويعرفون قدره فيذيعه عليهم ، وفى هذا يقول :

أأنثر درا بين سارحة البهم (١) ... وأنظم منثورا لراعية الغنم ؟
لعمرى لئن ضيعت فى شر بلدة ... فلست مضيعا فيهم غرر الكلم
لئن سهل الله العزيز بلطفه ... وصادفت أهلا للعلوم وللحكم
بثثت مفيدا ، واستفدت ودادهم ... والا فمكنون لدى ومكتتم
ومن منح الجهال علما أضاعه ... ومن منع المستوجبين (٢) فقد ظلم !

***

واذا اغترب الشافعى ، وصار بين من لا يفهمه ومن لا يشاكله ، فليتجاهل مع الجهلة ، وليتحامق مع الحمقى ، وهو معذور ، فيقول :

وأنزلنى حكم النوى دار غربة ... اذا شئت لاقيت امرأ لا أشاكله
أحامقه (٣) حتى يقال : سجية ... ولو كان ذا عقل لكنت أعاقله

---

(١) البهم : بسكون الهاء وتحرك بالفتح كما هنا : جمع بهمة وهى الشاة أو البقرة .
(٢) المستوجبين : المستحقين لنشر العلم بينهم .
(٣) احامقه : اجاريه فى حمقه

ويظهر أن الشافعى قد امتد بلاؤه بالجاهلين لقدره ، والغافلين عن أمره ، ولذلك يعود ليتحدث عن الفروق بين الأصيل والدخيل ، وبين الكريم واللئيم ، وبين العقلاء والجهلاء فيقول :

أصبحت مطـرحا فى معشر جهلوا حق الأديب ، فباعوا الرأس بالذنب
والناس يجمعهم شـــمل وبينهم فى العقل فرق ، وفى الآداب والحسب
كمثـل ما الذهب الابريز يشركه فى لونه الصفر(١) والتفضيل للذهب
والعود لو لم تطب منــه روائحه لم يفرق الناس بين العود والحطب

ولا يكتفى الشافعى بما قال فى هذا المجال ، بل يعود ليترجم لنا عن عزة نفسه وعلو همته ، على الرغم من فقره وفاقته ، فاذا كانت ثيابه بالية عتيقة ، فان تحت الثياب نفسا عزيزة غالية لا مثيل لها ، والسيف ليس بغمده ، وانما هو بفرنده وحده ، فيقول :

على ثياب لو يباع جميعهـــــا بفلس لكان الفلس منهن أكثـــرا
وفيهن نفس لو يقـــاس ببعضـــها نفوس الورى كانت أجل وأكبرا
وما ضر نصل السيف آخلاق غمده اذا كان عضبا أين وجهته فرى !

ويواصل الشافعى نظم شعره فى نبيل غرضه ، فنراه وقد أتى اليـــه شخص وقال له : أصلحك الله ، صديقك فلان عليل . فيقول له الشافعى : والله لقد أحسنت الى ، وأيقظتنى لمكرمة ، ودفعت عنى اعتذارا يشوبه الكذب ..

ثم قال : ياغلام ، هات السبتية ، ثم قال : للمشى على الحفاء ، على علة الوجاء ، فى حر الرمضاء ، من ذى طوى ، أهون من اعتذار الى صديق يشوبه الكذب (٢)

ثم أنشأ يقول :

أرى راحة للحق عنـــد قضـــائه ويثقل يوما ان تركت على عمـــد
وحسبك حظا أن ترى غير كاذب وقولك لم أعلم : وذاك من الجهد

---

(١) الصفر : النحاس

(٢) السبتية : النعال ، والحفاء : المشى بلا نعل ، والوجاء : الجرح والضرب بالسكين ، والرمضاء : الارض الحارة الحامية من شدة حرارة الشمس ، وذى طوى : أى ذى جوع

ومن يقض حق الجار بعد ابن عمه — وصاحبه الأدنى على القرب والبعد
يعش سيدا ، يستعذب الناس ذكره — وان نابه حق أتوه على قصد !

ولا يجد الشافعى حرجا فى بعض الأحيان أن يستعمل كلمات الحب فى الشعر ، فنراه مثلا يذهب الى عيادة محمد بن عبد الحكم المصرى حين مرض ، وكان الشافعى يحبه ويقربه ، ولذلك قال :

مرض الحبيب فعدته — فمرضت من حذرى عليه
وأتى الحبيب يعودنى — فبرئت من نظرى اليه

بل يتوسع الشافعى فى هذا المجال ، فنراه يحدثنا عن امرأة له يحبها وتعرض عنه ، فقال فيها هذين البيتين :

ومن البلية أن تحب م — ولا يحبك من تحبه
ويصد عنك بوجهه — وتلح أنت فلا تغبه (١)

ثم يحدثنا الشافعى الشاعر عن رأيه فى الحب والعشق والغرام ، ويصدر فى ذلك فتواه (٢) ، فقد روى ياقوت أن رجلا جاء الى الشافعى ، وألقى بين يديه رقعة كتب فيها :

سل المفتى المكى : هل فى تزاور — وضمة مشتاق الفؤاد جناح ؟

فكتب الشافعى تحت البيت السابق قوله :

أقول : معاذ الله أن يذهب التقى — تلاصق أكباد بهن جراح

وجاءه رجل برقعة فيها :

سل المفتى المكى من آل هاشم — اذا اشتد وجد بامرىء كيف يصنع؟

فكتب الشافعى تحته فتواه ، وهى :

يداوى هواه ، ثم يكتم وجده — ويصبر فى كل الأمور ويخشع

وأخذها الرجل ، ثم عاد بها وقد كتب فيها بيتا آخر هو :

فكيف يداوى والهوى قاتل الفتى — وفى كل يوم غصة يتجرع ؟

فكتب الشافعى تحته بقية الفتوى ، وهى :

---

(١) أى وتكثر انت من زيارته ، ولا تجعلها على فترات
(٢) هذا اذا صحت الروايات

فان هو لم يصبر على ما أصـــابه   فليس له شيء سوى الموت أنفع[1]

ويروى أن امرأة جاءت اليه يوم جمعة ، وألقت اليه ورقة فيها :

عفـــا الله عن عبـــــد أعان بدعوة   خليلين كانا دائمــــين على الود
الى أن مشى واشى الهوى بنميمة   الى ذاك من هذا ، فزالا عن العهد

فبكى الشـــافعى وقال لمن حوله : ليس هـــذا يوم نظر (أى درس وبحث) هذا يوم دعاء ، وأخذ يدعو ويقول : اللهم ... اللهم ... حتى تفرق أصحابه ..

***

ولكنى لاحظت فى بعض مقطوعات الشافعى أن صبغته الفقهية غلبت نزعته الشعرية ، فاستعمل ألفاظا اصطلاحية لا تناسب الشعر ، فقد كان الشافعى مثلا يؤاخى رجلا ببغداد ، وتولى هذا الرجل ولاية «السيبين» فتغيرت عاداته عما كانت عليه ، فكتب اليه الشافعى يقول :

اذهب ، فـــودك من فؤادى طالق   أبدا ، وليس طلاق ذات البـــين
فان ارعويت فانهـــا تطليقـــة   ويدوم ودك لى على ثنتـــــين
وان امتنعت شـــفعتها بمثالهـــا   فتكون تطليقين فى حيضـــين
واذا الثلاث أتتك منى بتـــــة   لم تغن عنك ولاية « السيبين »

أين هذا الشعر المصنوع المتكلف من مقطوعات شعرية للشافعى فيها قوة وجزالة وحلاوة ؟ .. كدت أشك فى نسبة هذه الأبيات الى الشافعى !

وكان الشافعى يتمثل بأبيات اشتهرت بين كثير من الناس حتى حسبوا أنها من انشاء الشـــافعى ، لأنها تشبه ما قاله شـــعرا فى العزة وكرامة النفس ، وهى :

أمطرى لؤلؤا جبـــال سرنديب   وفيضى آبار تكـــرور تبرا

---

(١) هذا الموقف يذكر بموقف مشابه ، فقد جاء فى كتاب « الذيل على طبقات الحنابلة » ان أبا الخطاب الكلوذانى الفقيه أحد ائمة المذهب الحنبلى جاءته فتوى فى بيتين من الشعر هما

قل للامام أبى الخطاب مسألة   جاءت اليك وما يرجى سواك لها
ماذا على رجل رام الصلاة فمذ   لاحت لناظره ذات الجمال لها ؟

فكتب عليها الامام :

قل للاديب الذى وافى بمسـألة   سرت فؤاد لما أن أصغت لها
ان الذى فتنتـــه عن عبـــادته   فريدة ذات حسن فانثنى ولهـــا
ان تاب ثم قضى عنـــه عبادته   فرحمة الله تغشى من عصى ولهـــا

أنا ما عشت لست أعـدم قوتا　　　واذا مت لست أعـدم قبـرا
همتى همـة الملوك ، ونفسى　　　نفس حـر ترى المذلة كفرا !

الشافعى والسياسة :

كان الشافعى يرى أن الامامة ــ أى الخلافة ــ لازمة ، وأنهـا فى قريش ، وروى فى كتابه « الأم » كثيرا من الأحاديث فى فضل قريش . ويرى أن الخلافة تكون بالبيعة ، الا اذا دعت الضرورة ، فانها تقوم بغير بيعة ، فلو غلب أحد بالقوة وأجمع عليه الناس جازت امامته

***

وكان الشافعى لايرتضى كثرة الخوض فيما وقع بين الصحابة من خلاف أو حرب ، كالذى حدث بين على ومعاوية ، وكان يستحسن قول خامس الراشدين عمر بن عبد العزيز عندما سألوه عن أهل حرب صفين : « هذه دماء طهر الله منها يدى ، فلا أحب أن أخضب منها لسانى » !

وكان الشافعى يقدم أبا بكر رضى الله عنه على غيره ، ومع ذلك يحب آل بيت الرسول عليه الصلاة والسلام ، ويشيد بعلى بن أبى طالب رضى الله عنه ، ويردد :

ان كان رفضا حب آل محمـد　　　فليشهد الثقـلان أنى رافضى

ويقال انه بايع امام العلويين الخارجين على العباسيين ، وقال فى الامام على : « كان فيه أربع خصال ، لا تكون خصلة واحدة منها للانسان الا يحق له ألا يبالى بأحد [1] : انه كان زاهدا ، والزاهد لا يبالى بالدنيا أو أهلها ، وكان عالما ، والعالم لا يبالى بأحد ، وكان شجاعا ، والشجاع لا يبالى بأحد ، وكان شريفا ، والشريف لا يبالى بأحد » !

أقوال السلف فيه :

تكاثرت أقوال السلف فى التنويه بالشافعى ، وبيان فضله وجهده ، ونذكر هنا جانبا من هذه الأقوال :

١ ــ يقول أبو بكير الحميدى : الشافعى سيد الفقهاء

(١) يقصد انه لايخاف

٢ ــ ويقول أحمد بن حنبل : الشافعى فيلسوف فى أربعة أشياء : فى اللغة ، واختلاف الناس ، والمعانى ، والفقه

٣ ــ ويقول سفيان الثورى : الشافعى أفضل أهل زمانه

٤ ــ ويقول يحيى بن سعيد القطان : ما رأيت أعقل أو أفقه منه

٥ ــ ويقول أيوب بن سويد الرملى : ما ظننت أنى أعيش حتى أرى مثل الشافعى ..

٦ ــ ويقول عبد الرحمن بن مهدى عن رسالة الشافعى : هذا كلام شاب مفهم ..

٧ ــ ويقول محمد بن عبد الحكم : لولا الشافعى ما عرفت كيف أرد على أحد ، وبه عرفت ما عرفت ، وهو الذى علمنى القياس رحمه الله ، فقد كان صاحب سنة وأثر ، وفضل وخير ، مع لسان فصيح طويل ، وعقل صحيح رصين

٨ ــ ويقول داود بن على الظاهرى : للشافعى من الفضائل ما لم يجتمع لغيره من شرف نسبه ، وصحة دينه ، ومعتقده ، وسخاوة نفسه ، ومعرفته بصحة الحديث وسقيمه ، وناسخه ومنسوخه ، وحفظ الكتاب والسنة ، وسيرة الخلفاء ، وحسن التصنيف

٩ ــ وقال أبو يوسف للشافعى : صنف الكتب فأنت أولى من يصنف فى هذا الزمان ..

١٠ ــ وكان ابن عيينة اذا سئل عن التفسير والفتيا قال لهم : سلوا الشافعى ..

***

نقد الشـــافعى :

لا يسلم الرجل العظيم من ناقدين بجوار حامديه ، ولقد تعرض بعض الباحثين لنقد الشافعى ، فقال انه لم يكن مجددا ، لأنه لم يقض على الرجعية التى كانت قائمة فى عصره ، والتى حصرت الامامة فى قريش ،

وأفتى أنها قد تكون بغير بيعة اذا كان ثمت ضرورة ، وروى حرملة عنه أنه قال : كل قرشى غلب على الخلافة بالسيف واجتمع عليه الناس فهو خليفة ..

يقول هذا مع أن الأمة فى الاسلام هى مصدر السلطات ، وهى صاحبة الحق فى التولية ، ومن يأخذ الامامة بالسيف يكون غاصبا وعاصيا ، واجتماع الناس عليه بعد ذلك لا يجوز ، لأنه اجتماع على الرضا بالمعصية ، ولأنه اجتماع ناشىء عن العجز والخوف فى الغالب

ولكن الرد على هذا النقد جاء بعد ذلك وهو : لعل الشافعى يقصد من رأيه تحريم الخروج على الامام اذا كان فيه ضرر أكثر من بقائه

فالشافعى قال ان هـذا يجوز عند الضرورة ، والضرورات تبيح المحظورات ، وهو يريد تجنيب الأمة أكبر الضررين !

***

وقال الناقد ان الرجعية فى عصر الشافعى دفعت الى القول باشتراط الكفاءة بين الزوجين ، حتى قيل إن قريشا بعضهم أكفاء بعض ، والعرب كذلك ، وليس أحد من العرب كفئا لقريش ، كما ليس أحد من غير العرب كفئا للعرب ، مع أن القرآن الكريم يقول : « يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم ان الله عليم خبير » ، فقررت الآية المساواة بين الناس ، ولا يقدم أحد على أحد بالمال أو النسب أو الأصل ، بل بالتقوى !

وتوسط الشافعى بين الرأيين فقال : ليس نكاح غير الأكفاء حراما فأبطله ، وانما هو تقصير بالمرأة والأولياء ، فاذا رضوا صح ويكون حقا لهم تركوه ، واذا اعترضوا فسخوه !

ويأخذ الناقد على الشافعى هذا الموقف الوسط المعتدل ، مع أن من حق الشافعى أن نذكر له هذا الاعتدال فى مسألة كان جمهور الفقهاء يقيم لها اعتبارا كبيرا ، ويزداد تقديرنا للشافعى هنا حين نجده يقول : لم يثبت فى اعتبار الكفاءة بالنسب حديث !

صفات الشافعى :

كان الشافعى حسن الهيئة ، طويل القامة ، طويل العنق ، أسمر اللون ، حسن الصوت والالقاء ، يبكى القوم بقراءة القرآن ، وكان مقتصدا فى ثيابه ، ويتختم بخاتم فى يساره كتب عليه : « كفى بالله ثقة لمحمد بن ادريس » ..

وكان ذا معرفة بالطب ومهارة فى الرمى ، وكان يأخـذ بأذنه وأذن الفرس والفرس يعدو ..

وكان حاضر البديهة قوى الادراك عميق الفكرة واسع العقل ، حتى قال فيه بشر المريسى : « هذا رجل معه نصف عقل أهل الدنيا » . وكان يميل الى البحث فى الأمور الكلية أكثر من الأمور الجزئية ..

وكان فصيح اللسان موفور البيان قوى الجنان وطيد الايمان ، بارعا فى الخطابة ، حتى لقبه ابن راهويه « خطيب العلماء » ..

وكان نافذ البصيرة خبيرا بالنفوس ..

***

ومن أخـلاق الشافعى المروءة ، حتى يقول فى ذلك يحيى بن معين : « لو كان الكذب مباحا لكانت مروءة الشـافعى تمنعه أن يكذب » . والشافعى نفسه يقول : لو علمت أن شرب الماء البارد يثلم مروءتى ما شربته ! ..

ومن أخلاقه السخاء والكرم ، فقد قدم الى مكة من صنعاء ومعه عشرة آلاف دينار ، فما برح حتى فرقها كلها ، وكانت تأتيـه مجموعات من الثياب والوشى ـ وهو فى مصر ـ فيقسمها بين الناس ..

ولقد سقط سوطه وهو راكب ، فناوله له أحد المارة بعد أن مسحه بكفه ، فأمر الشافعى غلامه بأن يعطيه الدنانير التى معه ، وكانت نحو سبعة ، وفعل مثل هذا مع رجل أصلح له نعله ..

وكان يطلب الى أصـدقائه أن يقترحوا عليه ما يحبونه من أطعمـة ليصنعها لهم فى بيته ويأكلوا منها ..

وكان يتبع الحق أينما كان ، ولا يخجل من أن يعود اليه اذا ند عنه ، ولقد يرى الرأى فيصرح به ، فاذا لاحت له أدلة أخرى ، أو انقـدح فى ذهنه رأى آخر ، واعتقـد أنه أصح من الأول ، ترك الرأى الأول وجاهر بالثانى ..

ولذلك رأينا فى فقه الشافعى ما يسمى « القول القديم » وما يسمى « القول الجديد » ..

ومن استمساك الشافعى بالحق ، واخلاصـه للعلم ، انه لا يتأثر فى حكمه بصداقة أو قرابة ، بل يخضع للحق وحده ويقدم رضا الله على رضا غيره ..

ولقد كان الشافعى يحب صديقه محمد بن عبد الحكم حبا شـديدا ، ولكنه يرى أبا يعقوب البويطى أفضل منه ، ولما سـألوه عن خليفته فى الدرس تطلع ابن عبد الحكم الى ذلك ، ولكن الشافعى اختار البويطى ، لأن الحق شىء ، والصداقة شىء آخر ..

***

ويقص الامام الغزالى هذا الموقف فى « احياء علوم الدين » فيقول :

« واعلم أن ليس من الوفاء موافقة الأخ فيما يخالف الحق فى أمر يتعلق بالدين ، بل من الوفاء المخالفة ، فقد كان الشافعى رضى الله عنه آخى محمد بن عبد الحكم ، وكان يقربه ويقبل عليه ، ويقول : ما يقيمنى بمصر غيره ، فاعتل محمد فعاده الشافعى رحمه الله ، فقال :

مرض الحبيب فعـدته ... فمرضت من حذرى عليه
وأتى الحبيب يعـودنى ... فبرئت من نظرى اليـه

وظن الناس لصدق مودتهما أنه يفوض أمر حلقتـه اليه بعد وفاته ، فقيل للشافعى فى علته التى مات فيها رضى الله عنه : الى من نجلس بعدك ؟ ..

فاستشرف له محمد بن عبد الحكم ــ وهو عند رأسه ــ ليومىء اليه ..
فقال الشافعى : سبحان الله ، أيشك فى هذا ؟.. أبو يعقوب البويطى !

فانكسر لها محمد ، ومال أصحابه الى البويطى ، مع أن محمدا كان قد حمل عنه مذهبه كله ، لكن البويطى كان أفضل وأقرب الى الزهد والورع ، فنصح الشافعى لله وللمسلمين ، وترك المداهنة ، ولم يؤثر رضا الخلق على رضا الله تعالى » ! ..

ومن أخلاق الشافعى نفوره من الشهرة والفخر والاعجاب بالذات ، ولذلك يقول : « وددت اذا ناظرت أحدا أن يظهر الله الحق على يديه . وددت أن الخلق تعلموا هذا العلم على ألا ينسب الىّ منه حرف واحد ، وددت أن كل علم يعلمه الناس أوجر عليه ولا يحمدونى قط .. ما ناظرت أحدا على الغلبة » ! ..

ولقد استمسك الشافعى بالاستقامة من أول طريقه ، وحاذر المعاصى والآثام ، ويبدو أنه قد انتفع انتفاعا كبيرا بعظة مالك بن أنس حين قال له :

« يا محمد ، ان الله قد ألقى على قلبك نورا ، فلا تطفئه بالمعصية ، واتق الله فانه سيكون لك شأن » ! ..

كما يبدو أنه انتفع انتفاعا كبيرا بنصيحة أستاذه الامام وكيع بن الجراح التى يروى أن الشافعى تلقاها منه وعبر عنها فى قوله :

شكوت الى وكيع سوء حفظى ... فأرشدنى الى ترك المعاصى
وأفهمنى بأن العلم نور ... ونور الله لا يهدى لعاصى !

ولقد قال شيوخ مكة عن الشافعى : لم نعرف له صبوة ! ..

***

ومن أخلاق الشافعى شعوره القوى بالتبعة ، واحساسه العميق بالمراقبة ، وخوفه الشديد من المحاسبة ، فقد قيل له : كيف أصبحت ؟.. فأجاب : كيف يصبح من يطلبه ثمانية : الله تعالى بالقرآن ، والنبى صلى الله عليه وسلم بالسنة ، والحفظة بما ينطق ، والشيطان بالمعاصى ، والدهر بصروفه ، والنفس بشهواتها ، والعيال بالقوت ، وملك الموت بقبض روحه ؟ ! ..

وكان الشافعي كثير العبادة والتهجد ، وحسبنا آن نعلم عنه أنه كان يقسم ليله ثلاثة أقسام : فثلث للكتابة ، وثلث للصلاة والتهجد ، وثلث للنوم ! (١)

مرض الشافعي ووفاته :

تعرض الشافعي فى حياته لأمراض كثيرة من بينها « البواسير » الذى كان سببا لنزف الدم منه فى أكثر الأحيان ..

ويروى ياقوت فى « معجم الأدباء » سببا عجيبا لوفاة الشافعي فيقول ان رجلا من أصحاب « مالك بن أنس » اسمه « فتيان » تحاور مع الشافعي ، فغلبه الشافعي فى الحوار ، فشتمه « فتيان » ، وعلم بذلك والى مصر « السرى بن الحكم البلخى » فأمر بضرب « فتيان » والتشهير به ، فتعصب بعض سفهاء الناس «لفتيان» ، وذهبوا الى حلقة الشافعي ، وانتظروا حتى ذهب عنه الناس وانفرد ، فهجموا عليه وضربوه ضربا شديدا ، وحمل الى منزله ، فلم يزل فيه عليلا حتى مات ! ..

وهذا سبب غريب ، لأن المشهور أن الشافعي أصيب بمرض البواسير، وعرضه هذا المرض ذات مرة لنزيف شديد فقضى عليه ..

***

ويروى أن الربيع دخل عليه قرب وفاته وقال له : كيف أصبحت ؟ .. فأجاب الشافعي وكأنه أحس دنو أجله : أصبحت من الدنيا راحلا ، ولاخوانى مفارقا ، ولكأس المنية شاربا ، ولسوء أعمالى ملاقيا ، وعلى الكريم سبحانه واردا (٢) ثم بكى ..

وقد توفى الشافعي بمصر ليلة الخميس بعد المغرب ، فى آخر ليلة من شهر رجب سنة أربع ومئتين ، وعمره أربعة وخمسون عاما ، وكانت وفاته عند عبد الله بن الحكم ، واليه أوصى ، ودفن فى يوم الجمعة التالى ليوم

(١) يذكر النووى أن كثيرين من المتقدمين ألفوا كتبا فى الشافعي منهم : داود الظاهرى والساجي وغيرهما ، ومن المتأخرين ، ومنهم الدارقطنى والآجرى والرازى والصاحب بن عباد ونصر المقدسى والبيهقى وغيرهم ، وأن احسن هذه الكتب كتاب البيهقى

(٢) سبقت عبارة للشافعي شبيهة بهذه ، مع اختلاف فى بعض الالفاظ

وفاته ، ودفنه بنو عبد الحكم فى مقابرهم ، وقبره غربى الخندق ، وحوله جماعة من بنى زهرة ، يقول ياقوت : « وقبره مشهور هناك مجمع على صحته » ! ..

بعد وفاة الشافعى :

روى ابن فرحون فى « الديباج المذهب » أن جماعة جلسوا فى حلقة الشافعى عقب موته ، فأقبل عليهم أعرابى فسلم ، وسأل عن الشافعى قائلا : أين قمر هذه الحلقة وشمسها ؟ .. فقالوا له : توفى رحمه الله !

فبكى الرجل بكاء شديدا ثم قال : رحمه الله وغفر له .. كان يفتح ببيانه منغلق الحجة ، ويسد فى وجه خصمه واضح المحجة ، ويغسل من العار وجوها مسودة ، ويوسع بالرأى أبوابا منسدة ! ..

رضى الله تعالى عنه ..

الباب الرابع

الإمام ابن حنبل

ولد سنة ١٦٤هـ

توفي سنة ٢٤١هـ



أحمد بن حنبل

وهذا رابع الأئمة من الفقهاء ، صاحب الصفات والنعوت الباهرة التى أطلقها عليه معاصروه وعارفو قدره ، فهو امام الدنيا ، امام دار السلام ، مفتى العراق ، عالم السنة ، زاهد الوقت ، محدث الدنيا ، عالم العصر ، قدوة أهل السنة ، الصابر فى المحنة ، الرجل الصالح ، الزاهد المحتسب : أحمد بن حنبل رضى الله عنه ..

وهو مجدد القرن الثالث فى رأى السيد محمد رشيد رضا ، وفى رأى بعض الباحثين أن ابن حنبل أولى بهذا اللقب من ابن سريج والشافعى والطحاوى والخلال والنسائى ..

ولقد عاش ابن حنبل فى العصر العباسى ، حيث تغلب العنصر الفارسى على العنصر العربى ، وكثرت المنازعات على ولاية العهد ، كما صار لطائفة المعتزلة سلطان وقوة ، وكانت لهم آراؤهم الخاصة أحيانا ، وذلك بجوار ردودهم على الزنادقة والملاحدة ، واتسع نطاق الفقه ونضج غرسه ، كما وضع الشافعى علم أصول الفقه ، واتسع علم الحديث كذلك ، وجمعت فيه المجموعات ، ودونت فيه الكتب ، وحينما كثرت المناظرات والمساجلات والمراسلات فى الفقه والعقائد ، وجدت علوم وفنون ، كان ابن حنبل منصرفا الى دراسة الحديث ، مستمسكا بالأثر !

مولده ونسبه :

ولد ابن حنبل فى شهر ربيع الأول سنة أربع وستين ومئة ببغداد ، بعد أن خرجت به أمه وهو جنين من مدينة « مرو » التى كان يقيم بها أبوه الى بغداد ..

وهو أبو عبدالله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد بن ادريس

ابن عبدالله بن حيان بن عبدالله بن أنس بن عوف بن قاسط بن مازن ابن شيبان .. المروزى ثم البغدادى . ويلتقى ابن حنبل فى نسبه مع الرسول صلى الله عليه وسلم فى نزار بن معد بن عدنان ..

وقد اشتهرت نسبة ابن حنبل الى جده « حنبل » فصار الناس يقولون : « ابن حنبل » مع أن « حنبل » جده ، وأما أبوه فهو « محمد » والسبب فى ذلك أن جده كان أشهر من أبيه ، لأن أباه كان مجاهدا مغمورا ، على حين كان جده واليا للأمويين على « سرخس » من أعمال خراسان ، وكان مع هذا من الدعاة الى الخلافة العباسية الذين نالهم الأذى بسبب هذه الدعوة ..

ولقد مات والد ابن حنبل وهو طفل صغير ، وابن حنبل لا يتذكر أنه رآه ، ولذلك نشأ يتيما تكفله أمه وترعاه ، وتقوم على تربيته ، واسمها صفية بنت ميمونة بنت عبد الملك الشيبانى من بنى عامر ، وهكذا نجد أمه عربية شيبانية كأبيه ..

وكانت قبيلة شيبان تقيم بالبصرة ، ولذلك يقال لابن حنبل انه بصرى ، وكان اذا زار البصرة صلى فى مسجد مازن من بنى شيبان ، وقال : انه مسجد آبائى ..

ويبدو أن والدة ابن حنبل كان لها مكانة سامية فى نفس ولدها ، وقد نستدل على ذلك بأنه يحدث عن نفسه بأنه لما خرج الى الكوفة أصيب بالحمى ، ويقول : « فرجعت الى أمى رحمها الله ، ولم أكن استأذنتها ».. فالعبارة توحى بأنه ظن أن الحمى أصابته ، لأنه لم يستأذن أمه ..

ولقد عاش ابن حنبل عيشة رقيقة فقيرة ، اذ لم يترك له والده سوى منزل صغير يسكنه ، وعقار ضئيل يغل عليه غلة قليلة . ولذلك مرت على ابن حنبل فترات قاسية فى حياته كانت تضطره الى الحرفة والعمل ، فهو اذا ضاق به الأمر « أجر نفسه من الحاكة » (أى صانعى الثياب) — فسوى لهم — كما يقول ابن رجب الحنبلى ، وهو أحيانا يلتقط بقايا الزروع من الحقول عقب جمع الحصاد بعد استئذان أهليها ،

وفى بعض الأحيـان كان يكتب بالأجرة ، أو ينسج الثيـاب ويبيعها ، واضطر فى بعض الأحيان الى أن يؤجر نفسه للحمل فى الطريق ، ولقد كان مع هذا حريصا على الحلال ، لا يقبل مالا فيه شبهة ، ولا يقبـل الهدايا أو العطايا ..

وحج ابن حنبل خمس مرات ، أدى ثلاثا منها ماشيا ، وأنفق فى احدى هذه الحجات ثلاثين درهما فقط ، ولما رحل الى الكوفة لطلب العلم كان ينام فى بيت وتحت رأسه لبنة ، وكان يتمنى أن يرحل الى مدينة «الرى» ليطلب العلم عند جرير بن عبد الحميد ، ولكنه لم يجد أجرة السفر . وكان يقول : « لو كان عندى تسعون درهما كنت رحلت الى جرير ابن عبد الحميـد فى « الرى » ، وخرج بعض أصـحابنا ولم يمكنى الخروج ، لأنه لم يكن عندى شىء » ..

ولمـا سـافر الى اليمن فى طلب العلم اضطر الى أن يحمل مع بعض الحمالين حتى بلغ « صنعاء » ، ورفض أن يأخذ معونة من أحد ! ..

نشاته العلمية :

حفظ ابن حنبـل القرآن الكريم ، ودرس علم اللغة ، وتعلم الكتابة والتحرير فى الديوان وهو ابن أربع عشرة سنة ، ونشأ محبا لطلب العلم شغوفا به ، حتى كانت أمه تشفق عليه من تعبه الموصول فى طلب العلم ، ولقد حدث عن نفسه بأنه كان أحيانا يريد الخروج الى العلم قبل انبلاج الفجر ، فتأخذ أمه بثيابه وتستمهله حتى يصبح الناس ! ..

وتلقى جانبـا من العلم عن أبى يوسـف ، وكتب أولا كتب الرأى وحفظها ، ثم لم يلتفت اليها ، بل مال الى طلب الحديث ، فجمعه من الأقاليم ، وبدأ ذلك سنة تسع وسبعين ومئة ، ورحل فى سبيل العلم — على الرغم من فقره — الى مكة والمدينـة والشام واليمن والكوفة والبصرة والجزيرة ، ولقد رآه أحد معارفه مكثرا من الرحلة ، فقال له متعجبا : مرة الى الكوفة ، ومرة الى البصرة !.. الى متى ! ؟ .. وأول رحلة قام بها كانت الى الكوفة سنة ثلاث وثمانين ومئة ، وهى السنة

التى مات فيها شيخه هشيم بن بشير ، وذهب الى البصرة لأول مرة سنة ست وثمانين ومئة ، وحج لأول مرة سنة سبع وثمانين ومئة ..

ومن الرقائق التى تذكر عنه فى طلبه الحديث ــ والعهدة على الراوى ــ انه سار مرة من بغداد الى الشام ليسمع من محدث مشهور هناك ، فلما بلغه وجده يطعم كلبا ، وجلس ابن حنبل واستمر المحدث فى اطعامه الكلب زمنا أغضب ابن حنبل وضايقه ، فلما انتهى المحدث من اطعامه الكلب التفت الى ابن حنبل وقال له : لعلك وجدت على فى نفسك ؟ .. فأجابه : نعم .. فقال المحدث :

ــ انه ليس بأرضنا كلاب ، وقد قصدنى هذا الكلب ورجانى أن أطعمه وأسقيه ، فعلمت انه جائع وظمآن فأطعمته وسقيته ، وأجبت رجاءه ، لأنى سمعت من أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من قطع رجاء من ارتجاه قطع الله رجاءه يوم القيامة » ! ..

فابتسم ابن حنبل وقال : يكفينى هذا الحديث ، وعاد الى بغداد ! (١)

ولا عجب فى أن يهتم ابن حنبل كل هذا الاهتمام لرواية الحديث من طرقه المختلفة .. فالحديث هو الأساس والعماد ، ولا تجنى ثمرته كاملة الا اذا أحاط الانسان به ، وعرف طرقه ، ولذلك قال : « من لم يجمع علم الأحاديث وكثرة طرقها واختلافها لا يحل له الحكم على الحديث ، ولا الفتيا به » ..

شيوخ ابن حنبل :

تلقى ابن حنبل العلم ــ أول ما تلقاه ــ من أبى يوسف يعقوب بن ابراهيم القاضى صاحب أبى حنيفة ، فأخذ عنه الفقه والحديث ، ولذلك يعد أبو يوسف الأستاذ الأول لابن حنبل ..

ومن الباحثين من يرى ان تأثير أبى يوسف فى ابن حنبل ليس بالقوى حتى يقال عنه انه الأستاذ الأول له ، وانما الأستاذ الأول هو هشيم بن

(١) ليت ابن حنبل استزاد مما عند هذا المحدث المشهور ــ ان صحت القصة ــ فان المسافة بين الشام وبغداد لا تخلو من امتداد

بشير بن أبى خازم الواسطى ، اذ هو أوضح الأساتذة أثرا فى ابن حنبل ، وقد لازمه ابن حنبل أكثر من أربع سنوات ، وتلقى عنه الحديث ، وكتب عنه أكثر من ثلاثة آلاف حديث ..

وهشيم كان امام الحديث ببغداد ، وكان تقيا ورعا ، وهو من تابعى التابعين ، سمع الكثير من الأئمة ، وروى عنه الامام مالك وخلائق ، وكان قوى الحافظة بصورة مدهشة ، وقد ولد سنة أربع ومئة ، وتوفى سنة ثلاث وثمانين ومئة ..

وفى أثناء جلوس ابن حنبل الى هشيم كان يجلس أيضا الى عمير بن عبد الله بن خالد ، وعبد الرحمن بن مهدى ، وأبى بكر بن عياش ..

وكان الشافعى أحد شيوخ الامام ابن حنبل ، بل هناك من يعد الشافعى الأستاذ الثانى له بعد هشيم ، ولقد التقى ابن حنبل بالشافعى فى الحجاز ، حين ذهابه للحج ، وكان الشافعى يدرس بالمسجد الحرام ، فأخذ عنه ، ثم التقى به مرة أخرى فى بغداد ، وحبب اليه الشافعى أن يرحل معه الى مصر ، وكان ابن حنبل ينوى أن يلحق بالشافعى ، ولكن ذلك لم يتم، وقد تعلم من الشافعى الفهم والاستنباط واستخراج الأحكام ، وقال محمد بن اسحاق بن خزيمة : « هل كان أحمد بن حنبل الا غلاما من غلمان الشافعى » ..

كما سمع من ابراهيم بن سعد ويحيى القطان ووكيع وغيرهم ، وكان ابن حنبل يتمنى أن يسمع من الامام مالك بن أنس ، ولكن مالكا توفى وابن حنبل مبتدىء فى طلب العلم ، فجعل الله له عوضا عن مالك فى سماعه من سفيان بن عيينة بمكة ، حتى قال الامام ابن حنبل : « فاتنى مالك ، فأخلف الله على سفيان بن عيينة » ..

مع المحبرة الى المقبرة :

دأب ابن حنبل على طلب العلم طيلة حياته ، وداوم على طلب الحديث حتى بعد أن صار فيه اماما ، ولقد قال له بعض الناس متعجبا من استمراره فى طلب العلم على الرغم من امامته وجلالته : الى متى وقد

بلغت هذا المبلغ ، وصرت امام المسلمين ؟ .. فأجابه الامام بقوله :
— مع المحبرة الى المقبرة ! ! ..

يالها من كلمة ! .. انها كلمة تبهر الانسان ، وتهز الكيان ، وفيها استمداد كريم من هدى الاسلام الذى علمنا ان العلم يطلب من المهد الى اللحد ، وان طالب العلم منهوم لا يشبع ، فابن حنبل يحمل دواته وقلمه وورقه طيلة حياته مواصلا طلب العلم (١) ..

وكان الامام ابن حنبل يؤكد معنى كلمته السابقة فيقول :
— أنا أطلب العلم الى أن أدخل القبر ..

ليت كل طالب علم يضع أمام ناظريه على الدوام كلمة الامام ابن حنبل الباهرة : « مع المحبرة الى المقبرة » ! ..

وهذه الكلمة يمكن ان تكون اشارة الى ما كان يطلقه أصحاب مدرسة العقل والرأى على أصحاب مدرسة الحديث والنقل ، اذ يظهر أنهم كانوا يسمونهم « أصحاب المحابر » اشارة الى انهم لايعتمدون على عقولهم وتفكيرهم ، بل يعتمدون على نقولهم ومأثوراتهم ، فهم يحملون المحابر والأوراق ، ويتتبعون الأحاديث يتلقونها ويكتبونها .. ويقولون عنهم انهم « حشوية » والحشو هو فضل الكلام ..

ولقد أشار الى ذلك جعفر السراج المقرىء المحدث الأديب الحنبلى المتوفى سنة خمسمائة ، حيث نظم أبياتا يمدح بها الحنابلة أهل الحديث وأصحاب الامام ابن حنبل . ويرد فيها على ناقديهم ومتهميهم ، فيقول :

قل للـــذين بجهلهم ... أضحوا يعيبون المحابر
والحاملين لها من الأ ... يدى بمجتمع الأساور :
لولا المحابر والمقا ... لم ، والصحائف ، والدفاتر
والحافظون شريعة المـ ... ـبعوث من خير العشائر
والناقلون حديثه ... عن كابر ثبت وكابر
لرأيت من شيع الضلا ... ل عساكرا تتلو عساكر

(١) من بين ماتعلمه ابن حنبل اللغة الفارسيه

كل يقـول بجهـلـه : والله للمظلـوم ناصر
سميتم أهـل الحد يث أولى النهى وأولى البصائر
« حشوية » ، فعليكم لعن يزيركم المقـابر
هم حشو جنـات النعيـم على الأسرة والمنابر
رفقاء أحمـد كلهم عن حوضه ريان صادر !

وعاد السراج مرة أخرى يقول عن الحنابلة أهل الحديث :

لله در عصـابة يسعون فى طلب الفوائد
يدعون أصـحاب الحد يث بهم تجملت المشاهد
طورا تراهم بالصـعيـد وتارة فى ثغر آمد
يتتبعون من العـلو م بكل أرض كل شارد
فهم النجوم المهتـدى بهم الى كل المقاصـد

ويبدو أن لفظة « المحبرة » فى عبارة ابن حنبل : « مع المحبرة الى المقبرة » ، لها قيمتها ودلالتها ، فهى ترمز الى مداومة الكتابة ، وابن حنبل كان لا يعتمد على الذاكرة أو الحافظة ، بل هو يقيد كل ما يتلقى ويسمع ، وكان اذا أملى حديثا لا يمليه الا من كتاب وان كان حافظا له ، وربما ذكر الحديث من الأحاديث للجالسين معه من ذاكرته ، فاذا أرادوا كتابته استمهلهم قائلا : « الكتاب أحفظ شىء » ، ثم يسارع باحضار الكتاب ويملى منه . يفعل هذا مع انه كان قوى الحفظ ، حتى قال أبو زرعة : « ما رأيت من المشايخ أحفظ من احمد بن حنبل » !..

كما أوصى الامام ابن حنبل تلميذه على بن المدينى فقال له : لا تحدث الا من كتاب ..

وهذا أمر يدل على التزام ابن حنبل الدقة والأمانة فى العلم ..

وما دمنا بسبيل الكلام عن الحديث فلنذكر ان ابن حنبل غلبت عليه صبغة المحدث أكثر مما ظهرت فيه صبغة الفقيه ، حتى أنكر عليه بعض الباحثين صفة « الامامة » فى الفقه ، وقد عاون على اثارة هذا الانكار ان الامام ابن حنبل لم يدون فقهه ، لأنه كان شديد الكراهية لتصنيف

الكتب فى غير الحديث ، اجلالا منه لشأن السنة النبوية ..

ولكن هذا الانكار غير مسلم ، لأن عنـاية ابن حنبـل بالحديث لم تصرفه عن العنـاية بالفقه ، واذا كان لم يكتب فيه كتابا فان تلاميـذه وأصحابه قد جمعوا أقواله الفقهية وقيدوها ، فتألف منها مجموع كبير(١) وكان له بجوار روايته للسنة استنباط وبحث ..

جلوسه للتدريس :

بعد أن تعلم ابن حنبل ما تعلم ، وتلقى عن الشيوخ الكبار ما تلقى ، جلس للتدريس فى المسجد الجامع ببغداد وهو فى سن الأربعين ، وهى سن الاستواء والاستحصاد ، ويظهر انه امتنع عن التـدريس قبل ذلك لأنه كان يستحى أن يفعل ذلك وهناك من شيوخه الذين علموه ودربوه من لايزال حيا ..

أو لعله فعل ذلك تأسيا بالرسـول صلى الله عليه وسلم ، لأن الله تبارك وتعالى انما كلف نبيه بتبعات الرسالة والتبليغ وهو فى سن الأربعين ، ولقد كان الامام ابن حنبل رضى الله عنه حريصا على اتباع طريقة الرسول فى كل شىء ..

وكان له درس عام ودرس خاص ، فالدرس العام يعقده بعد العصر فى المسجد ، والدرس الخاص يعقده فى منزله . وكان درسه العام مشهودا حافلا بالسامعين ، حتى روى ان عدد حاضريه كان يبلغ خمسة آلاف ، يكتب منهم خمسمائة . ولحاضرى درسه رغبات واتجاهات ، فمنهم من يطلب العلم ، ومنهم من يطلب العظة ، ومنهم من يهتدى بأخلاقه وآدابه ، ومنهم من يلتمس البركة .. وكان الوقار يسود درسه مع السكينة والجد ، فهو لايمزح أبدا ، بل لا يصبر على المزاح من غيره .. واذا كان هناك من تعود المزاح فانه لايمزح اذا كان هناك الامام أحمد بن حنبل ..

---

(١) دون احمد بن محمد الخـلال فقه ابن حنبل فى كتابه « الجامع الكبير » الذى بلغ نحو عشرين سفرا ، كما نقل تلاميذ ابن حنبل اقواله وفتاواه وجمعوها

مصادر فقهه :

كان ابن حنبـــل مقبلا على السنة النبوية حفيا بها ، والسنة هى بيان للقرآن الكريم وتفسير لأحكامه ، فلم يكن غريبا أن يجعل ابن حنبـــل القرآن والسنة فى طليعة المصادر التى يستمد منها فقهه ، وهو لا يتصور وقوع خلاف بين القرآن والسنة ، ولذلك نراه يرد على الذين أخذوا بظاهر القرآن وتركوا السنة ، ويقول فى طليعة رده : « ان الله جل ثناؤه ، وتقدست أسماؤه ، بعث محمدا بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، ولو كره المشركون ، وأنزل عليه كتابه بالهدى والنور لمن اتبعه ، وجعل رسوله الدال على ما أراد من ظاهره وباطنه ، وخاصـــه وعامه ، وناسخه ومنسوخه ، ما قصد له الكتاب ..

فكان رسول الله هو المعبر عن كتاب الله الدال على معانيه ، شاهده فى ذلك أصحابه الذين ارتضاهم الله لنبيه ، واصطفاهم له ، ونقلوا ذلك عنه ، فكانوا أعلم الناس برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبما أراد الله من كتابه بمشاهدتهم ، وما قصد له الكتاب ، فكانوا هم المعبرين عن ذلك بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم » ..

ونفهم من هذه العبارة أن القرآن عند ابن حنبل يأتى أولا ، وتفسيره يطلب من السنة ، فهى تأتى عقبه ، ثم يؤخذ بعد ذلك بأقوال الصحابة وفتاواهم . ولكن ابن حنبل بعد هذا يأخذ أحيانا بالقياس والاجماع ان وقع ، والمصالح المرسلة وسد الذرائع ، وهو ــ اذا لم يجد أثرا فى السنة يقول بالتحريم أو التحليل ــ يبقى الشىء على حله ..

وكان ابن حنبل يأخذ بالحديث الضعيف اذا لم يوجد غيره ، وبشرط ألا يعارض قاعدة من قواعد الدين ، ولا أصلا من أصوله ، ولا حكما ثابتا بسنة صحيحة ..

واذا كان الحديث المنسوب الى الرسول صلى الله عليه وسلم يتعلق بالحكم على شىء بالتحليل أو التحريم ، شـــدد ابن حنبل فى تمحيص الحديث وبحث سنـــده ، واذا كان الحديث يتعلق بالحث على مكارم

الأخلاق أو فضائل الأعمال أو محامد العادات فانه لايشدد ، يقول : « اذا روينا عن رسـول الله صلى الله عليه وسلم فى الحلال والحرام والسنن والأحكام تشددنا فى الأسانيد ، واذا روينا عن النبى صلى الله عليه وسلم فى فضائل الأعمـال ، وفيما لا يضع حكما ولا يرفعه ، تسـاهلنا فى الأسانيد » ! ..

وليت ابن حنبـل سار هو وبقية الأئمة على وتيرة واحدة ، فآثروا التمحيص والتصحيح فى جميع السنن حتى لا يدعوا ثغرة لاضافة شىء الى الرسول لم يقله أو لم يفعله ..

ولابن حنبل فى فقهه بعض التعبيرات الخاصة ، فهو مثلا يقول عن الشىء « لايعجبنى » أو « أكرهه » وهو يريد تحريمه ، وهذا كثير فى فتاويه ، وبعض الناس قد يغتر بكلمة « أكرهه » هنا فيحسب ان الأمر لا يتعدى نطاق الكراهية التى لم تبلغ مرتبة الحرام ، مع ان ابن حنبل يقصد التحريم ! ..

ومما يؤخذ على فقه ابن حنبل انه يأخذ بالتشديد فى طائفة من الأمور ، حتى اشتهر بين النـاس ان مذهب ابن حنبـل يمثل العنف والتضييق ، وصار الناس يقولون للشخص اذا كان متزمتا أو متعنتا : « انت حنبلى »

والسبب فى شدة ابن حنبل فى هذه الأمور انه كان ورعا يشدد على نفسه ، ويفرض عليها ما لايفرض على سواها ، ويتجنب الشبهات بحرص وحذر ، وهو أيضا يلتزم النص الوارد فيتقيد فيه بلا تصرف ..

وقد تشدد مذهب الحنابلة فى أمر الطهارة من النجاسة ، فقال : ان نجاسة الكلب يجب ان تغسل ثمانى مرات ، وهذا المذهب يرى غسل بعض النجاسات الأخرى سبع مرات ، وهو يوجب غسل اليد عند القيام من النوم ، مع ان هذا سنة فى المذاهب الأخرى ، ويوجب المضمضـة والاستنشاق فى الوضوء ، مع انهما سنة فى المذاهب الأخرى ، ويوجب الوضوء ، من أكل لحم الابل ! ..

ولكن ليس معنى هذا ان التشديد يسود المذهب الحنبلى كله كما يتصور كثير من الناس ..

آراء اجتماعية :

وبجوار المسائل التى تشدد فيها المذهب الحنبلى ، وجعلها كثير من الناس موطن مؤاخذة ، نجد فى هذا المذهب كثيرا من الآراء والأقوال الاجتماعية القيمة ، فمن فقه الامام احمد بن حنبـل مثلا انه اذا وقف الواقف أرضا على الفقراء والمساكين لم يجب فى المحصول الخارج منها العشر ، أى لا تؤخذ منها الزكاة ، ولكن اذا وقف الواقف هذه الأرض على غير الفقراء والمساكين فان العشر يؤخذ منها ، ولا شك ان هـذه لفتة اقتصادية اجتماعية طيبة ..

وكذلك نجد فى المذهب الحنبلى توسيعا لدائرة القرابة التى توجب النفقة ، فمذهب الامام مالك يضيق هـذه الدائرة ، ويقول ان القرابة التى توجب النفقـة هى قرابة الأبوين والأولاد المبـاشرين ، ومذهب الشافعى يقول ان القرابة التى توجب النفقة هى قرابة الأصول كالآباء والأمهات والأجداد والجدات ، وقرابة الفروع كالأولاد وأولاد الأولاد ، ومذهب أبو حنيفة يقول ان القرابة الموجبة للنفقة هى القرابة المحرمية ، أى القرابة التى تحرم الزواج بين طرفيها ، فيدخل فيها الأعمام والعمات ، والأخوال والخالات .. الخ ..

وأما مذهب ابن حنبل فيرى ان القرابة كلها توجب النفقة ، فكل من يرث الفقير العاجز عن الكسب تجب عليه نفقته فى حالة عجز هذا الفقير ، والميراث يشمل القرابة الدانية والبعيدة ، فيشمل العصبات والأصـول والفروع وأصحاب الفروض وذوى الأرحام ..

ومن الواضح ان هذا الرأى الحنبلى هو أقرب الآراء السابقة الى روح التكافل الاجتماعى ، ولذلك اقترح المشتركون فى حلقة الدراسات الاجتماعية المنعقدة فى دمشق سنة ١٩٥٢ العمل بمذهب الامام احمد بن

حنبل فى نفقة الأقارب ، لأنه واسع النطاق ، يحقق ما يهدف اليه المجتمع الفاضل من حسن التعاون والتكافل بين الأقارب ..

شروط المفتى :

ويشترط ابن حنبل فيمن ينصب نفسه للفتوى شروطا منها :

١ – أن تكون له نية مخلصة ، فان لم تتحقق عنده هذه النية لم يكن عليه نور ، ولا لكلامه نور ..
٢ – أن يكون ذا علم وحلم ووقار وسكينة ..
٣ – أن يكون قويا على ما يتعرض له ، عارفا به ..
٤ – أن يكون كفؤا تتوافر فيه الكفاية ، والا مضغه الناس ..
٥ – أن يكون على دراية بالناس ومعرفة لأحوالهم ..
٦ – أن يكون عالما بوجوه القرآن الكريم ، عالما بالسنن ، عالما بالأسانيد الصحيحة ..

صاحب حقائق لا تخيلات :

كان ابن حنبل يعنى بالحقائق العلمية يتتبعها ويتقيد بها ، ولذلك كان يكره التزيد أو التبديل فى الرواية كرها شديدا ، ويقاومهما مقاومة عنيفة ، وكان يرى ان السير والأخبار قد دخلها الكثير من المفتريات والاسرائيليات ، ولذلك يجب التوقف فيها والتمحيص لها والتأنى فى قبول ما يقبل منها ، وكان يرى ان القصص قد شاع فيها نصيب كبير من الأوهام والتخيلات ، وان كثيرين من الذين يقصون على الناس هذه القصص لايحتاطون ولا يتحرزون من الكذب ، بل قد تبلغ الجرأة ببعضهم حدا مبكيا أو مضحكا ، وشر المصائب ما يضحك ..

يروى ان الامام احمد بن حنبل دخل مع يحيى بن معين مسجد المنصور ببغداد ، فوجدا فيه رجلا قصاصا من هذا الصنف ، واذا هو يقول وهما يسمعان : « حدثنى احمد بن حنبل ويحيى بن معين بكذا وكذا ..» وذكر أكذوبة من أكاذيبه ..

فقال ابن حنبل ليحيى وهو مغيظ : انت حدثته بهذا ؟
أجاب يحيى قائلا : لا ..
فقال ابن حنبل : قم اليه فانصحه ..
وكأن يحيى فضل أن ينصحه ابن حنبل ، فاتجه الى الرجل وقال له : أنا أحمد بن حنبل ، وهذا يحيى بن معين ، فمتى حدثناك بهذا ؟ ..
وأسعفت الرجل وقاحته فقال بسماجة : « ما زلت أسمع بحماقتكما حتى رأيتكما ! .. ألا يوجد فى الدنيا أحمد بن حنبل ويحيى بن معين غيركما ؟ لقد رويت عن ألف أحمد بن حنبل ويحيى بن معين غيركما » !..
وضحك أحمد ومعه يحيى ، وشر المصائب ما يضحك !

تلاميذ ابن حنبل :

كان لابن حنبل تلاميذ كثيرون سمعوا منه ورووا عنه ، ومن هؤلاء يحيى بن آدم ، وعبد الرحمن بن مهدى ، ويزيد بن هارون ، وعلى بن المدينى ، والبخارى ، ومسلم ، وأبو داود ، وأبو زرعة ، والرازى ، والدمشقى ، وابراهيم الحربى ، وأبو بكر أحمد بن محمد بن هانىء الطائى الأثرم ، ومحمد بن اسحاق الصاغانى ، وأبوحاتم الرازى ، وأحمد ابن أبى الحوارى ، وموسى بن هارون ، وحنبل بن اسحاق ، وعثمان بن سعيد الدارمى ، وحجاج بن الشاعر، وعبد الملك بن عبد الحميد الميمونى ، وبقى بن مخلد الأندلسى ، ويعقوب بن شيبة .. وغيرهم

***

وقد توافر على نقل الفقه الحنبلى أصحاب وأتباع وتلاميذ لابن حنبل، منهم ولده صالح ــ وهو أكبر أولاده ــ وتوفى سنة ست وستين ومائتين ، وولده عبدالله ، وكان صاحب عناية بالحديث مثل أبيه ، وتوفى سنة تسعين ومئتين ، وأحمد بن محمد الأثرم ، المتوفى سنة ثلاث وسبعين ومئتين ، وهو الذى قال : « كنت أحفظ الفقه والاختلاف ، فلما صحبت أحمد بن حنبل تركت كل ذلك » . وأحمد بن محمد المروزى المتوفى سنة خمس وسبعين ومئتين ، وحرب بن اسماعيل الكرمانى المتوفى سنة ثمانين

ومئتين ، وأحمد بن محمد الخلال الذى جمع فقه ابن حنبل ونشره ، وتوفى سنة احدى عشرة وثلاثمائة

صفات اصحابه :

غلب على أصحاب ابن حنبل وأتباعه الجد والخشونة ، والزهد والورع ، والتقيد بالنقل مع عدم التأويل ، وهذه ظاهرة غالبة امتدت بعد ابن حنبل امتدادا طويلا ، وهذا هو أبو الوفاء بن عقيل الفقيه الحنبلى أحد الأعلام وشيخ الاسلام المتوفى سنة ثلاث عشرة وخمسمائة ، يصف أصحاب الامام ابن حنبل فيقول فى صراحة وصرامة وتقدير :

ــ هم قوم خشن ، تقلصت أخلاقهم عن المخالطة ، وغلظت طباعهم عن المداخلة ، وغلب عليهم الجد ، وقل عندهم الهزل ، وغربت نفوسهم عن ذل المراءاة ..

وفزعوا عن الآراء الى الروايات ، وتمسكوا بالظاهر تحرجا من التأويل ، وغلبت عليهم الأعمال الصالحة فلم يدققوا فى العلوم الغامضة ، بل دققوا فى الورع ، وأخذوا ما ظهر من العلوم ، وما وراء ذلك قالوا : الله أعلم بما فيها ، من خشية باريها ..

ولم أحفظ عليهم تشبيها ، انما غلبت عليهم الشناعة ، لايمانهم بظواهر الآى والأخبار ، من غير تأويل ولا انكار ..

والله يعلم أننى لا أعتقد فى الاسلام طائفة محقة خالية من البدع ، سوى من سلك هذا الطريق .. والسلام ..

وعاد ابن عقيل يدافع عن مذهب ابن حنبل فيقول : « هذا المذهب انما ظلمه أصحابه ، لأن أصحاب أبى حنيفة والشافعى اذا برع واحد منهم فى العلم تولى القضاء وغيره من الولايات ، فكانت الولاية سببا لتدريسه واشتغاله بالعلم ..

فأما أصحاب أحمد فانه قل فيهم من تعلق بطرف من العلم الا ويخرجه ذلك الى التعبد والتزهد ، لغلبة الخير على القوم ، فينقطعون عن التشاغل بالعلم ..

واذا كنا نحمد لهؤلاء الأصحاب والأتباع زهدهم وورعهم ، وشيوع الجد بينهم ، وابتعادهم عن المراءاة ، وغلبة التعبد والخير والأعمال الصالحة عليهم ، واذا كنا نحمد لهم تمثيلهم « صخرة المقاومة » أمام جموح العقل أو شطط الرأى أو سفه الابتداع ، واذا كنا نذكر لهم جهودهم الكبيرة فى حفظ الأحاديث والسنن والتراث المأثور ، واذا كنا ننوه بمقاومتهم المنكرات والمآثم .. اذا كنا قد حمدنا لهم هذا كله ، فاننا فى الوقت نفسه تمنينا لو انهم خففوا من خشونتهم وجمودهم على النص، وتمنينا لو انهم فتحوا صدورهم وعقولهم للعلوم والفنون والآراء ، فما وافق الدين منها قبلوه ، وما عارضه منها رفضوه

وتمنينا لو انهم التزموا السهولة والسماحة والرفق فى دعوة الجاهل أو ارشاد الضال، وتمنينا لو أن بعضهم لم يغلظوا فى مقاومة ما لايرضيهم، فيهاجموا الدور المشبوهة ، ويحطموا آلات الغناء ، ويضربوا المغنيات ، وكلما رأوا رجلا يمشىمع امرأة استوقفوهما وسألوهما عما يربط بينهما ، كما يقول ابن الأثير . وتمنينا لو أنهم جمعوا من الآثار ما جمعوا ، ثم خرجوا به على الناس ، يوجهون به المجتمع ، ويتفاعلون مع الحياة والأحياء ، ويدخلون فى اعتبارهم اختلاف الزمان والمكان والانسان ، مع الخضوع الدائم للمقرر الثابت من الأصول والقواعد

ان جعفر السراج الذى مدح أهل هذا المذهب بالكثير من الشعر ، هو الذى عاب انفاق الحياة فى التلقى والحفظ والتقييد ، دون عمل أو تطبيق ، فقال :

اذا كنتم تكتبون الحديث ليلا ، وفى صبحكم تسمعون
وأفنيتم فيه أعماركم فأى زمان به تعملون ؟

ليس معنى هذا اننا نعمم الحكم على الجميع ، فلا شك أن هناك أفرادا من أهل هذا المذهب ساروا على طريق الاعتدال والانصاف . وليس معنى هذا اننا نرتضى السكوت على الاثم أو البدعة أو المنكر ، ولكن بعض وسائل المقاومة يختلف عن البعض الآخر ، وربما كانت هناك وسائل ألين

وألطف تحقق من الثمرات ما لا تحققه وسائل العنف والارهاب ، والله تعالى يقول لرسوله عليه الصلاة والسلام : « ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتى هى أحسن ، ان ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله ، وهو أعلم بالمهتدين » .. ويقول لرسوليه موسى وهارون فى شأن دعوة فرعون الى الهدى : « فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى » !

محنة ابن حنبل :

تعرض الامام أحمد بن‌حنبل لمحنة قاسية أقبلت عليه بالأذى والعذاب ، ولكنها أورثته عزا ومجدا وشهرة ، وتلك المحنة هى التى سببتها فتنة القول بأن القرآن الكريم مخلوق ، وهذا القول لم يجر له ذكر فى الأمة من قبل ، حتى نشأت فرقة المعتزلة ، وكان من آرائها أن القرآن مخلوق ، وكان ذلك فى عهد المأمون الخليفة العباسى الذى يعتنق مذهب المعتزلة الذين كان يحبهم ويقربهم ويستعين بهم

ويظهر ان أحمد بن أبى دؤاد المعتزلى وزير المأمون هو الذى تولى كبر هذه الفتنة ، وانتهز الفرصة المناسبة لاشعال نارها سنة ثمان عشرة ومائتين ، فقد خرج المأمون من بغداد غازيا ، ولكنه مرض وهو فى مدينة « طرطوس » ، فكتب ابن أبى دؤاد كتبا باسم المأمون وجهها الى جهات مختلفة ، لينتزع بها موافقة على القول بخلق القرآن من الفقهاء والعلماء بسلطة الدولة ورهبة الحكم ، واستطاع ابن أبى دؤاد أن يجعل المأمون الذى أنهكه المرض يوقع على هذه الكتب ويأذن بارسالها

وخاف كثيرون فخضعوا لحكم القوة والجبروت ، وأما ابن حنبل فأبى أن يخضع ، لأنه — كما قيل فى تفسير موقفه (١) — يؤمن بأن القرآن كلام الله عز وجل ، وكلام الله صفة من صفاته سبحانه . والله تعالى قديم لا أول له ، فصفاته يجب أن تكون قديمة لا أول لها ، اذ لا انفصال

(١) قلت هذا لان ابن حنبل لم يصرح هنا بأن القرآن قديم ، بل قال هو كلام الله ، ولم يزد ، وان كان الانسان يستطيع ان يدرك من مفهوم هذا ان القرآن قديم ، ويلزم ان يكون مراد الامام هنا الكلام الذى هو صفة الله وليس ما نتلوه من المصحف

للصفة عن الموصوف هنا ، والقول بخلق القرآن الكريم معناه حسب فهم ابن حنبل انه حادث غير قديم ، لأن كل مخلوق حادث ، مع انه يمكن أن يقال ان الحكم بالخلق هنا لا يتجه الى الصفة الالهية القديمة ، وانما يتجه الى ما بين أيدينا فى المصحف الشريف من كلمات وألفاظ ..

ولما رفض ابن حنبل الخضوع حملوه مقيدا الى المأمون ، ولكن المأمون مات فى « طرطوس » وابن حنبل ما زال على الطريق ..

وأوصى المأمون أخاه المعتصم — وهو الخليفة من بعده — بأن يسير سيرته فى القول بخلق القرآن ، ومن يدرى ، لعل هذه الوصية قد كانت بتأثير ابن أبى دؤاد ، واستسلم لها المأمون المريض !

ويظهر أن ابن أبى دؤاد قد اكتسب بسعيه هذا ، وبأفعال أخرى له ، كراهية شديدة من الناس ، حتى اضطروا الى أن يشمتوا فيه حينما أصيب بالفالج ، والشماتة خلة لا يرتضيها الكثيرون من الرجال ، فدخل عليه مثلا عبد العزيز بن يحيى المكى وهو مفلوج وقال له : انى لم آتك عائدا ، ولكن جئت لأحمد الله على أنه سجنك فى جلدك !

وهذا هو ابن شراعة البصرى أيضا يشمت فى ابن أبى دؤاد فيقول له وهو مفلوج :

أفلت نجومك يا ابن أبى دؤاد ... وبدت نحوسك فى جميع أياد
فرحت بمصرعك البرية كلها ... من كان منها موقنا بمعاد
لم يبق منك سوى خيال لامع ... فوق الفراش ممهدا بوساد
وخبت لدى الخلفاء نار بعد ما ... قد كنت تقدحها بكل زناد
لم تخش من رب السماء عقوبة ... فسننت كل ضلالة وفساد
كم من كريمة معشر أرملتها ... ومحدث أوثقت بالأقياد
كم من مساجد قد منعت قضاتها ... من أن يعدل شاهد برشاد
لا زال فالجك الذى بك دائما ... ومحقت قبل الموت بالأولاد !

***

وتولى المعتصم الخلافة ، واستمر ابن أبى دؤاد فى الوزارة ، وكان

ابن حنبل سجينا ينتظر مصيره ، فاستدعاه المعتصم ، وجادله وأغراه وتوعده ، ولكن ابن حنبل أصر على موقفه

يقال له : ما تقول فى القرآن ؟ .. فيجيب : هو كلام الله ! .. فيقال له : أمخلوق هو ؟ .. فيجيب : هو كلام الله .. ولا يزيد على ذلك !

ولما رأوا اصراره على موقفه ضربوه بالسياط حتى أغمى عليه عدة مرات ، وكانوا ينخسونه بالسيف وهو مغمى عليه فلا يحس !! .. يا للشناعة ! ..

ثم ساروا به الى السجن حيث ظل فيه عامين ونصف عام ، ولما يئسوا منه بعد معاودة تعذيبه ، أخرجوه من السجن واهى القوة مريضا مثخنا بالجراح ، ومكث فى منزله حينا حتى برىء ، ثم عاد الى درسه ، وفى جسمه ندوب وآثار للمحنة السوداء ..

ثم تولى « الواثق » بعد المعتصم ، فسار على طريقة سابقيه ولكنه لم يمد يد الايذاء الى ابن حنبل ، وانما منعه من الاجتماع بالناس ، فظل ابن حنبل منطويا فى عزلته حتى مات الواثق ، وتولى « المتوكل » الذى حاول انهاء الفتنة ، وازالة آثارها السيئة ..

وبعد خمس سنوات عاد ابن حنبل ، سنة ثنتين وثلاثين ومئتين ، الى التدريس عزيزا كريما ، بعد أن استمر فى المحنة أربع عشرة سنة ..

وعرض المتوكل المال على ابن حنبل فرفضه مرارا ، ثم قبله تحت الالحاح ، وتصدق به كله ، واستبان للمتوكل اخلاص ابن حنبل ، فرفض قبول الوشاية فيه ، حتى قيل له يوما : ان أحمد لا يأكل طعامك ، ولا يجلس على فراشك ، ويحرم هذا الشراب الذى تشرب ! .. فأيأسهم من اساءته الى أحمد ، وأعلمهم انه لن يقبل فيه وشاية لأى انسان ، فقال : لو نشر المعتصم وقال لى فيه شيئا لم أقبله ..

رسالة ابن حنبل فى القرآن :

أراد المتوكل بعد زوال المحنة أن يعرف رأى أحمد بن حنبل فى القرآن ، فكلف عبيدالله بن يحيى أن يطلب ذلك من الامام ، فكتب عبيدالله الى

الامام يقول : « ان أمير المؤمنين أمرنى ان أكتب اليك أسألك عن أمر القرآن ، لا مسألة امتحان ، ولكن مسألة معرفة وتبصرة »

فكتب اليه ابن حنبل الرسالة التالية :

« بسم الله الرحمن الرحيم .. أحسن الله عاقبتك ــ أبا الحسن ــ فى الأمور كلها ، ودفع عنك مكاره الدنيا والآخرة برحمته ، وقد كتبت اليك رضى الله عنك بالذى سأل عنه أمير المؤمنين بأمر القرآن بما حضرنى ، وانى أسأل الله أن يديم توفيق أمير المؤمنين ، فقد كان الناس فى خوض من الباطل ، واختلاف شديد ينغمسون فيه ، حتى أفضت الخلافة الى أمير المؤمنين ، فنفى الله بأمير المؤمنين كل بدعة ، وانجلى عن الناس ما كانوا فيه من الذل وضيق المحابس ، فصرف الله ذلك كله ، وذهب به أمير المؤمنين ، ووقع ذلك من المسلمين موقعا عظيما ، وأدعو الله لأمير المؤمنين أن يزيد فى نيته ، وأن يعينه على ما هو عليه

فقد ذكر عن عبدالله بن عباس انه قال : لا تضربوا كتاب الله بعضه ببعض ، فان ذلك يوقع الشك فى قلوبكم . وذكر عن عبدالله بن عمر رضى الله عنه أن نفرا كانوا جلوسا بباب النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال بعضهم : ألم يقل الله كذا ؟ .. وقال بعضهم : ألم يقل الله كذا ؟ .. فسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فخرج كأنه فقىء فى وجهه حب الرمان ، فقال :

ــ أفبهذا أمرتم أن تضربوا كتاب الله بعضه ببعض ؟ انما ضلت الأمم قبلكم فى مثل هذا ، انكم لستم مما هاهنا فى شىء ، أنظروا الذى أمرتم به فاعملوا به ، وأنظروا الذى نهيتم عنه فانتهوا عنه ! ..

وروى عن أبى هريرة رضى الله عنه ، عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال : « مراء فى القرآن كفر » . وروى عن أبى جهيم ــ رجل من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ــ عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « لا تماروا فى القرآن ، فان مراء فيه كفر »

وقال عبدالله بن عباس رضى الله عنه : قدم على عمر بن الخطاب رجل ،

فجعل عمر يسأله عن الناس ، فقال : يا أمير المؤمنين قد قرأ القرآن منهم كذا وكذا .. فقال ابن عباس ، فقلت : والله ما أحب أن يتسارعوا يومهم هذا فى القرآن هذه المسارعة . قال : فزبرنى عمر وقال : مه (١)

فانطلقت الى منزلى مكتئبا حزينا ، فبينما أنا كذلك اذ أتانى رجل فقال : أجب أمير المؤمنين . فخرجت فاذا هو بالباب ينتظرنى ، فأخذ بيدى فخلا بى ، وقال : ما الذى كرهت مما قال الرجل آنفا ؟ .. فقلت : يا أمير المؤمنين ، متى يتسارعوا هذه المسارعة يحتقوا (٢) ، ومتى مايحتقوا يختصموا ، ومتى ما يختصموا يختلفوا ، ومتى ما يختلفوا يقتتلوا . قال : لله أبوك ، والله ان كنت لأكتمها عن الناس حتى جئت بها ..

وروى عن جابر بن عبدالله رضى الله عنه قال : كان النبى صلى الله عليه وسلم يعرض نفسه على الناس بالموقف ، فيقول : هل من رجل يحملنى الى قومه ، فان قريشا قد منعونى أن أبلغ كلام ربى ..

وروى عن جبير بن نفير قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : انكم لن ترجعوا الى الله بشىء أفضل مما خرج منه (يعنى القرآن) (٣)

وروى عن عبدالله بن مسعود رضى الله عنه انه قال : جردوا القرآن ولا تكتبوا فيه شيئا الا كلام الله . وروى عن عمرو بن الخطاب رضى الله عنه انه قال : هذا القرآن كلام الله ، فضعوه مواضعه !

وقال رجل للحسن البصرى : يا أبا سعيد ، انى اذا قرأت كتاب الله وتدبرته كدت أن آيس وينقطع رجائى . قال : فقال الحسن : ان القرآن كلام الله ، وأعمال بنى آدم الى الضعف والتقصير ، فاعمل وأبشر !

وقال فروة بن نوفل الأشجعى : كنت جارا لخباب ــ وهو من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ــ فخرجت معه يوما من المسجد ، وهو آخذ بيدى ، فقال : يا هذا ، تقرب الى الله بما استطعت ، فانك لن تتقرب الى الله بشىء أحب من كلامه

---

(١) زبرنى : زجرنى . ومه : اسكت أو أكفف

(٢) احتق الناس : ادعى كل واحد منهم أنه على الحق . والرجلان يحتقان : يختصمان والمراد هنا هو أن كل واحد يقول : الحق بيدى

(٣) فلنلاحظ أن أغلب ما يذكره هنا ابن حنبل أحاديث وآثار ، فهو يسير على طريقته

وقال رجل للحكم بن عيينة : ما حمل آهل الأهواء على هذا ؟.. قال : الخصومات . وقال معاوية بن قرة ــ وكان أبوه ممن أتى النبى صلى الله عليه وسلم ــ : اياكم والخصومات فانها تحبط الأعمال . وقال أبو قلابة ــ وكان قد أدرك غير واحد من أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم ــ لا تجالسوا أهل الأهواء ــ أو قال أهل الخصومات ــ فانى لا آمن أن يغمسوكم فى ضلالتهم ، ويلبسوا عليكم بعض ما تعرفون ..

ودخل رجلان من أصحاب الأهواء على محمــد بن ســيرين فقالا : يا أبا بكر ، نحدثك بحديث ؟ . فقال : لا . فقالا : نقرأ عليك آية من كتاب الله ؟ . قال : لا ، ولتقوما عنى ، أو لأقومن . قال : فقام الرجلان فخرجا . فقال بعض القوم : يا أبا بكر ، وما عليك أن تقرأ آية من كتاب الله ؟ فقال له ابن سيرين : انى خشيت أن يقرآ على آية فيحرفاها فيقر ذلك فى قلبى . وقال محمد : لو أعلم انى أكون مثلى الساعة لتركتهما ..

وقال رجل من أهل البدع لأيوب السختيانى : يا أبا بكر ، أسألك عن كلمة ؟ فولى وهو يقول بيده (١) .. ولا نصف كلمة . وقال طاووس ابن طاووس لابن له ــ وتكلم رجل من أهل البدع ــ يابنى ، ادخل اصبعيك فى أذنيك حتى لا تسمع ما يقول . ثم قال : اشدد اشدد (٢) وقال عمر بن عبد العزيز : من جعل دينه غرضا للخصومات أكثر التنقل

قال أبو الفضل : وجدت فى كتاب أبى بخطه : حدثنا اسماعيل عن يونس قال : نبئت ان عمر بن عبد العزيز قال : من جعل دينه غرضــا للخصومات أكثر التنقل (٣)

وكان الحسن يقول : شر داء خالط قلبا ــ يعنى الأهواء ــ وقال حذيفة بن اليمان رضى الله عنه ــ وكان من أصحاب رسول الله صلى

---

(١) العرب تطلق مادة « القول » وتريد بها العمل ، وفى كتاب « سلاح الشعر » شواهد كثيرة على ذلك .. ويقول بيده : أى يشير

(٢) لعل المراد بهذا كله هو تجنب التعرض للشبهات دون ان يكون لدى الانسان استعداد لردها وتفنيدها ، وأما القادر على ابطالها بالحجة والدليل فيلزمه ان يزيل عن دين الله كل شبهة

(٣) تألمت حين قرات ان ابن حنبل قيل له : يا أبا عبد الله ، ان ههنا رجلا يفضل عمر بن عبد العزيز على معاوية بن أبى سفيان . فقال « لا تجالسه ولا تؤاكله ولا تشاركه ، واذا مرض فلا تعده » .. انها اجابة قاسية ارجو ان تكون الرواية غير صحيحة

الله عليه وسلم ـ : اتقوا الله معشر القراء ، وخذوا طريق من كان قبلكم ، والله لئن استبقتم لقد سبقتم سبقا بعيدا ، ولئن تركتموه يمينا وشمالا لقد ضللتم ضلالا بعيدا ـ أو قال : مبينا ..

وانما تركت ذكر الأسانيد لما تقدم من اليمين التى حلفت بها مما قد علمه أمير المؤمنين ، ولولا ذاك لذكرتها بأسانيدها ..

وقد قال الله تعالى : « وان أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله » وقال : « الا له الخلق والأمر » فأخبر بالخلق ثم قال : والأمر ، فأخبر ان الأمر غير الخلق . وقال تعالى : « الرحمن علم القرآن ، خلق الانسان ، علمه البيان » فأخبر تعالى ان القرآن عن علمه

وقال : « ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم ، قل ان هدى الله هو الهدى ، ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من الحق مالك من الله من ولى ولا نصير » . وقال : « ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك وما أنت بتابع قبلتهم ، وما بعضهم بتابع قبلة بعض ، ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم انك اذن لمن الظالمين »

فالقرآن من علم الله ، وفى هذه الآيات دليل على ان الذى جاء ـ صلى الله عليه وسلم ـ هو القرآن ، لقوله : « ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم »

وقد روى عن غير واحد ممن مضى من سلفنا انهم كانوا يقولون : القرآن كلام الله ، غير مخلوق . وهو الذى اذهب اليه . لست بصاحب كلام (١) ، ولا أرى الكلام فى شىء من هذا الأمر ، الا ما كان فى كتاب الله ، أو فى حديث عن النبى صلى الله عليه وسلم ، أو عن أصحابه أو عن التابعين فأما غير ذلك فان الكلام فيه غير محمود » !

هذا هو رأى الامام أحمد بن حنبل فى القرآن الكريم وفى فتنة القول بخلقه ، وقد صرح هنا بأنه قديم ، ولعله من المناسب أن تتعرف الى رأى

---

(١) يقصد علم الكلام والجدل فى العقائد

الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده فى الموضوع ، لنجمع بين معرفة رأى السلف ومعرفة رأى الخلف

اذا رجعنا الى كتاب الأستاذ الامام « رسالة التوحيد » وجدناه وهو يتحدث عن تاريخ « علم التوحيد » يقول فى ايجاز وتركيز :

« وحدثت فتنة القول بخلق القرآن أو أزليته ، وانتصر للأول جمع من خلفاء العباسيين ، وأمسك عن القول أو صرح بالأزلية عدد غفير من المتمسكين بظواهر الكتاب والسنة ، أو المتعففين عن النطق بما فيه مجاراة البدعة ، وأهين فى ذلك رجال من أهل العلم والتقوى ، وسفكت فيه دماء بغير حق ، وهكذا تعدى القوم حدود الدين باسم الدين »

ومن الواضح أن هذا عرض تاريخى سريع للفتنة كما وقعت ، فما رأى الأستاذ الامام فيها ؟ ..

اذا تقدمنا فى قراءة « رسالة التوحيد » وجدنا فى الطبعة الأولى منها هذا النص :

« قد ورد أن الله كلم بعض أنبيائه ، ونطق القرآن بأنه كلام الله ، فمصدر الكلام المسموع عنه سبحانه لا بد أن يكون شأنا من شئونه ، قديما بقدمه ..

أما الكلام المسموع نفسه ، المعبر عن هذا الوصف القديم ، فلا خلاف فى حدوثه ، ولا انه خلق من خلقه ، وخصص بالاسناد لاختياره له سبحانه فى الدلالة على ما أراد ابلاغه لخلقه (١) ، ولأنه صادر عن محض قدرته ظاهرا وباطنا ، بحيث لا مدخل لوجود آخر فيه بوجه من الوجوه ، سوى أن ما جاء على لسانه مظهر لصدوره ..

والقول بخلاف ذلك مصادرة للبداهة ، وتجرؤ على مقام القدم بنسبة التغير والتبدل اليه ، فان الآيات التى يقرؤها القارىء تحدث وتفنى بالبداهة كلما تليت ..

والقائل بقدم القرآن المقروء (٢) أشنع حالا وأضل اعتقادا من كل ملة

---

(١) أى أسندنا الكلام المسموع الى الله سبحانه ، لانه قد اختاره وسيلة يدل بها على ما أراد تبليغه لعباده من تكاليف

(٢) أى ما نتلفظ به من الآيات القرآنية عند تلاوتها

جاء القرآن نفسه بتضليلها والدعوة الى مخالفتها . وليس فى القول بأن الله أوجد القرآن بدون دخل لكسب بشر فى وجوده ما يمس شرف نسبته ، بل ما دعا الدين الى اعتقاده فهو السنة ، وهو ما كان عليه النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وكل ما خالفه فهو بدعة وضلالة

أما ما نقل الينا من ذلك الخلاف الذى فرق الأمة ، وأحدث فيها الأحداث ، خصوصا فى أوائل القرن الثالث من الهجرة ، واباء بعض الأئمة أن ينطق بأن القرآن مخلوق ، فقد كان منشؤه مجرد التحرج والمبالغة فى التأدب من بعضهم ، والا فانه يجل مقام مثل الامام أحمد بن حنبل عن أن يعتقد أن القرآن المقروء قديم ، وهو يتلوه كل ليلة بلسانه ويكيفه بصوته »

هذا هو كلام الامام محمد عبده ، وهو فى مضمونه لا يعارض رأى الامام ابن حنبل ، وان كان يعلله بمجرد التحرج والمبالغة فى التأدب ، والامام ابن حنبل لم يصرح كثيرا بأن القرآن قديم ، بل كان فى أغلب الأحيان يردد قوله : هو كلام الله ، ولا يزيد على ذلك . ولكن المفسرين لكلامه فهموا أن مضمونه ان القرآن قديم ، كما أن ابن حنبل صرح بهذا فى بعض النصوص

***

ولكن الامام الشيخ محمد عبده ــ كما يحدثنا أشهر تلاميذه السيد محمد رشيد رضا ــ كتب على طرة نسخته من الطبعة الأولى لرسالة التوحيد عبارة نصها : « فى الطبعة الثانية يحذف القول فى خلق القرآن » . وهو يقصد النص الذى نقلناه من قبل

وقد حذف السيد رشيد فعلا هذا النص من « رسالة التوحيد » التى طبعها أكثر من مرة بعد ذلك ، ونقل السبب الذى دعا الأستاذ الشيخ محمد عبده الى التنبيه على هذا الحذف ، وهو أنه ذكر فى بعض دروسه انه التزم فى كتابه مذهب السلف ، وهذه المسألة ليست من مذهبهم

وكان الذى ذكره بذلك هو الشيخ محمد محمود الشنقيطى ، فادعو

بتذكيره ، ونبه عليه فى الدرس كما هو شأن العلماء الأجلاء فى الاستجابة لنصيحة الخير . وكل ما يستفاد من موقف الشيخ محمد عبده هنا هو انه رأى من الخير عدم الخوض فى الموضوع ، وليس معنى هذا انه رجع عن رأيه أو غيَّر فكرته ..

ولكن الذى أوجد عندى شيئا من الحيرة هو موقف السيد رشيد من الموضوع ، فهو أولا فى احدى تعليقاته على « رسالة التوحيد » هاجم القول بخلق القرآن ، وهاجم أيضا القول بقدمه ، فقال :

« التحقيق ان كلا من القولين مبتدع ، فوصف القرآن بالقدم والأزلية لا أصل له من الكتاب والسنة ، ولم يقل به أحد من الصحابة ولا من التابعين ، ولكن بنى على نظرية فى الرد على مبتدعى القول بخلقه من منكرى صفات الله عز وجل ، وهى ان القرآن كلام الله ، فهو صفة من صفاته الأزلية ، ومن ثم صار القول بقدمه من اصطلاح متكلمى أهل السنة ، وأنصار السلف من أهل الحديث ينكرون على متكلمى الأشاعرة أقوالهم فى الكلام النفسى واللفظى ، وهى فلسفة ليتها لم تكن » (١)

الى هنا وللسيد رشيد الحق فى ابداء رأيه ، حتى ولو خالفه من خالفه ، وهو هنا قد استنكر أن يقال ان القرآن قديم ، أو يقال ان القرآن مخلوق ، ولكن الذى لا حق له فيه ـ حسبما أظن ـ أن يعود بعد ذلك فيخالف رأيه بنفسه ، فانه فى تعليقة أخرى من تعليقاته على « رسالة التوحيد» يذكر ما نفهم منه صراحة أن القرآن كلام الله ، وأن كلام الله قديم ، وكأنه يعتذر عن السلف لعدم تقريرهم هذا بأن نص الشارع لم يرد به ، ثم يصرح السيد رشيد بأن السلف قد استنكروا استنكارا شديدا قول من يقول ان القرآن مخلوق ، فأين هذا الموقف من موقفه السابق ؟ ..

وما لى لا أدع للسيد رشيد نفسه عرض موقفه الثانى بألفاظه هو ، فقد ذكر بيتا لشاعر جاهلى ، وقال ان النطق بهذا البيت الآن لا ينفى انه كلام قيل منذ بضعة عشر قرنا ثم قال ما نصه :

---

(١) انظر رسالة التوحيد ، الطبعة الثالثة عشرة ، ص ١٦

« فهذا أوضح مثال لكون القرآن كلام الله الذى أوحاه الى محمـد رسوله صلى الله عليه وسلم صادرا عن كلامه النفسى ، وان حـدوث الوحى به قبل الهجرة بثلاث عشرة سنة ، وتلاوته بالألسنة وكتابته وطبعه فى المصاحف قرنا بعد قرن ، لا ينافى كونه هو كلامه ، وانه قديم بقدمه ..

على ان السلف لم يقولوا انه قديم ، لأن نص الشارع لم يرد به . وقد أغلظوا النكير على من قالوا انه مخلوق وحادث بشبهة حدوث ايحائه وتنزيله وتلاوته ، لأن الحامل لهم عليه انكار صفات الله تعالى جمـلة وتفصيلا ، بشبهة استلزام اثباتها لتعدد القدماء ، وهى نظرية فلسفيـة مخترعة باطلة ، وضعوها وحكموها فى صفات الله تعالى وكلامه المنزل ، غلوا فى التنزيه انتهى بهم الى جعله عز وجل ماهيـة خيالية سلبية فاقدة لكل صفات الوجود . وكذا نظرية امتناع قيام الحادث بالقديم ..

وانما التنزيه الصحيح انه تعالى موجود متصف بجميع صفات الكمال الوجودية ، ومنها الكلام والتكليم ، بغير تعطيل ولا تمثيل (١)

هذا هو نص كلام السيد رشيد هنا ، فأين هو من كلامه هناك ؟..

لقد انتقل هنا الى مدافع عن القرآن : كلام الله القديم ، باعتباره صفة من صفاته ، والى مهاجم لمن يقول بأن القرآن مخلوق !..

على حين كان هناك يفتتح كلامه بما يجعله قضية مسلمة لاريب فيها ، وهو قوله : « والتحقيق ان كلا من القولين مبتدع » ! ..

رحمة الله على السيد رشيد ! ..

***

فلنعد الى صاحب المحنة الذى صبر عليها ، ولم يتبدل موقفه فيها .. الى الامام احمد بن حنبل ..

كأن الامام ابن حنبل أراد أن يبلغ فى هذه المحنة قمة الصبر والثبات على الأذى ، دون أن يستطيـع جبـار أو متكبر أن يصرفه عن موقفه واعتقاده ، وان مثيل الامام قليل نادر .. ولقد قيل لبشر الحافى — حين

(١) انظر المرجع السابق ص ٤٦ ، ٤٧

ضرب ابن حنبل فى المحنة ــ وبشر هو من هو : يا بشر ، لو قمت فتكلمت كما تكلم احمد ؟.. فقال :

« لا أقوى عليه ، ان أحمد قد قام فى ذلك مقام الأنبياء » ! .. ويالها من كلمة ..

وتعجبنى كلمة المحدث الفقيه على بن المدينى : « ان الله عز وجل أيد هذا الدين بأبى بكر الصديق يوم الردة ، وبعمر بن عبد العزيز يوم رد المظالم ، وبأحمد بن حنبل يوم المحنة » ! .. ويالها من كلمة هى الأخرى !

ولقد توالت الأمداح الشعرية فى تمجيد ابن حنبــل لموقفه العظيم ، وكثير من هذه الأمداح قيل بعد وفاته ، ومن أمثلة ذلك ما قاله جعفر السراج ، ونوه فيه بثبات الامام فى المحنة :

سقى الله قبرا حل فيه ابن حنبــل   من الغيث وسميا على اثره ولى (١)
على ان دمعى فيه روى عظــامه   اذا فاض ، ما لم يبل منها وما بلى
فلله رب النــاس مذهب احمــد   فان عليــــه ما حييت معولى
دعوه الى خلق القرآن كما دعوا   ســواه ، فلم يسمع ولم يتــأول
ولا رده ضرب السيــاط وسجنه   عن الســنة الغراء والمذهب الجلى
ولما يزدهم ــ والسياط تنوشه ــ   فشلت يمين الضــارب المتقتل
على قوله: القرآن ــ وليشهد الورى ــ   كلامك يارب الورى كيفما تلى
فمن مبــلغ اصحابه اننى به   أفاخر أهل العلم فى كل محفل
وألقى به الزهاد فى كل مطلق   من الخوف دنياه طلاق التبتل
مناقبه ان لم تكن عالما بها   فكشفا طروس القوم عنهن واسأل
لقد عاش فى الدنيا حميدا موفقا   وصار الى الأخرى الى خير منزل
وانى لراج أن يكون شــفيع من   تولاه من شــيخ ومن متكهل
ومن حــدث قد نور الله قلبه   اذا سألوا عن أصله قال : حنبلى !

***

على أن هذه المحنة جرت اليه بلاء آخر هو بلاء الشهرة التى لو عرضت

(١) الوسمى : مطر الربيع الاول • والولى : المطر الثانى •

لغيره كما عرضت له لقضت عليه ومحقت عمله .. فلقد صبر الامام ابن حنبل على اليتم والفقر ، وصبر على متاعب طلب العلم ، وصبر على أداء العبادات والطاعات ، وصبر عن الأهواء والشهوات ، وصبر على الضرب والسجن فى فتنة خلق القرآن ..

ثم جاءه بلاء آخر هو تلك الشهرة الواسعة البراقة الخلابة ، التى أقبلت عليه تجرر أذيالها الفضفاضة ، فخاف منها ، وجاهد للتغلب عليها ، وجعل يردد : « أريد أن أكون فى بعض الشعاب بمكة حتى لا أعرف ، قد بليت بالشهرة ، انى أتمنى الموت صباح مساء » . ويقول : « لو وجدت السبيل لخرجت ، حتى لا يكون لى ذكر » !..

ولعل هذا البلاء بالشهرة هو الذى دفعه الى العزلة والاقلال من لقاء الناس كبارهم وصغارهم ، حتى قال فيه مصعب الزبيرى : « من فى ورع أحمد وعبادة أحمد ؟ .. يرتفع على جوائز الخلفاء حتى يظن انه الكبر ، ويكرى نفسه مع الحمالين حتى يظن انه الذل ، ويقطع نفسه من مباشرة عامة الناس وغشيان خاصتهم انسا بالوحدة ، فلا يراه الرائى الا فى مسجد ، أو عيادة مريض ، أو حضور جنازة ، ولم يقض لنفسه ما قضينا من شهوات » ! ..

كتب احمد بن حنبل :

لم يؤلف ابن حنبل فى غير الحديث والسنة ، وكل كتبه مجموعة من الأحاديث والآثار ، وحتى رسائله ــ وقد رأينا بعضها ــ تقوم على أساس الاستشهاد الموصول بأقوال الرسول وأفعاله ، وأقوال الصحابة ، وهى ما يطلق عليها اسم آثار الصحابة ..

وأشهر كتب ابن حنبل هو كتاب « المسند » الذى جمع فيه ما جمع من أحاديث الرسول ، وقد بدأ جمعه سنة ثمانين ومئة ، وقال عنه انه جعله اماما ، فاذا اختلف النـــاس فى شىء من سنة النبى رجعوا اليه . قال : « ما اختلفتم فيه من حـــديث رســول الله صلى الله عليه وسلم فارجعوا اليه ، فان وجدتموه ، والا فليس بحجة » ..

وقد تعب ابن حنبل كثيرا فى جمع الأحاديث عن الرواة والثقاة ، وأنفق فى ذلك معظم حياته ، وكان يكتبه أولا فى أوراق منفردة ، ثم جمعه وأملاه لمن كتبوه من أهله ، وأسمعه لمن تلقوه ، وان لم يكن مرتبا ، وأدركت المنية ابن حنبل قبل أن يرتب هذا الكتاب الذى خدم به السنة أجل الخدمات ..

وقد ضم « المسند » أربعين ألف حديث ، أخرجها ابن حنبل من سبعمائة ألف حديث (١) وبعض العلماء يقول انه ليس فيه شىء من الحديث غير صحيح ، ولكن التحقيق ان فيه بعض الأحاديث الضعيفة ، وهو برغم هذا كتاب عظيم جليل ..

وقد روى ابنه « عبد الله » المسند ونشره بين الناس ، وألّف يحيى بن منده كتابا عن « المسند » سماه « المدخل الى المسند » ..

ولابن حنبل كتاب « الزهد » وهو مطبوع فى مئات من الصفحات ، وقد ذكر فيه زهد الأنبياء والصحابة والخلفاء الراشدين وبعض الأئمة ، واعتمد فيه ــ كما هى طريقته ــ على الأحاديث والآثار والأخبار ..

وله أيضا كتاب « الصلاة » وهو كتاب لطيف الحجم نشر ضمن اكثر من كتاب . وله كتب أخرى هى : المناسك الكبير ، المناسك الصغير ، التاريخ ، الناسخ والمنسوخ ، المقدم والمؤخر فى كتاب الله تعالى ، فضائل الصحابة ، وغيرها ..

رسالته فى الرد على الجهمية :

للامام ابن حنبل رسالة تسمى « رسالة الرد على الجهمية » وهى قصيرة أثبتها هنا ثم أعلق عليها لتعاون فى اكمال الصورة التى نأخذها عن معتقدات هذا الامام المحتسب الجليل .. قال :

« بسم الله الرحمن الرحيم .. الحمد لله الذى جعل فى كل زمان بقايا من آل العلم ، يدعون من ضل الى الهدى وينهونه عن الردى ، يحيون بكتاب الله تعالى الموتى وبسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل

(١) وقيل من سبعمائة الف وخمسين الف حديث كان يحفظها !

الجهالة والردى .. فكم من قتيل لابليس قد أحيوه ، وكم من ضال تائه قد هدوه ، فما أحسن آثارهم على الناس ، ينفون عن دين الله عز وجل تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الضالين ، الذين عقدوا ألوية البدع ، وأطلقوا عنان الفتنة ، يقولون على الله وفى الله — تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا — وفى كتابه : بغير علم ..

فنعوذ بالله من كل فتنة مضلة ، وصلى الله على محمد ..

أما بعد فوفقنا الله واياكم لما فيه طاعته ، وجنبنا واياكم ما فيه سخطه ، واستعملنا واياكم عمل العارفين به الخائفين منه ، انه المسئول ذلك ..

أوصيكم ونفسى بتقوى الله العظيم ، ولزوم السنة ، فقد علمتم ما حل بمن خالفها ، وما جاء فيمن اتبعها .. بلغنا عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال : « ان الله عز وجل ليدخل العبد الجنة بالسنة يتمسك بها » .. فآمركم ألا تؤثروا على القرآن شيئا ، فانه كلام الله عز وجل ، وما تكلم الله به فليس بمخلوق ، وما أخبر به عن القرون الماضية فغير مخلوق ، وما فى اللوح المحفوظ وما فى المصاحف وتلاوة الناس وكيفما قرىء وكيفما يوصف فهو كلام الله غير مخلوق ، فمن قال مخلوق فهو كافر بالله العظيم ، ومن لم يكفره فهو كافر (١) ..

ثم من بعد كتاب الله : سنة النبى صلى الله عليه وسلم ، والحديث عنه وعن المهديين أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ، والتصديق بما جاءت به الرسل واتباع سنة النجاة ، وهى التى نقلها أهل العلم كابرا عن كابر ..

واحذروا رأى جهم (٢) ، فانه صاحب رأى وكلام وخصومات ، فقد أجمع من أدركنا من أهل العلم ان الجهمية افترقت ثلاث فرق : فقالت

---

(١) كلام الامام هنا شديد ، ولعله يقصد به الذين يقولون ان الكلام القرآنى — بمعنى انه صفة الله — مخلوق ، لان ذلك يؤدى الى القول بان الله تعالى غير قديم ، ومن أعتقد أن الله غير قديم فهو كافر ، ونلاحظ ان الامام قد غالى فى عبارته هنا غلوا واضحا ، ولعله كان يريد اغلاق الباب نهائيا امام هذه الفتنة

(٢) يقصد جهم بن صفوان واليه تنسب الجهمية

طائفة منهم : القرآن كلام الله مخلوق ، وقالت طائفة : القرآن كلام الله ، وسكتت ، وهى الواقفة الملعونة (١) وقال بعضهم : ألفاظنا بالقرآن مخلوقة ، فكل هؤلاء جهمية كفار (٢) يستتابون فان تابوا والا قتلوا ، وأجمع من أدركنا من أهل العلم ان من هذه مقالته ان لم يتب لم يناكح ، ولا يجوز قضاؤه ، ولا تؤكل ذبيحته ..

والايمان قول وعمل ، يزيد وينقص ، زيادته اذا أحسنت ، ونقصانه اذا أسأت ، ويخرج الرجل من الايمان الى الاسلام ، ولا يخرجه من الاسلام شيء الا الشرك بالله العظيم (٣) أو برد فريضة من فرائض الله عز وجل جاحدا بها ، فان تركها كسلا أو تهاونا كان فى مشيئة الله ، ان شاء عذبه وان شاء عفا عنه ..

وأما المعتزلة الملعونة فقد أجمع من أدركنا من أهل العلم انهم يكفرون بالذنب ، ومن كان منهم كذلك فقد زعم ان آدم كان كافرا ، وان اخوة يوسف حين كذبوا أباهم يعقوب كانوا كفارا ..

وأجمعت المعتزلة ان من سرق حبة فهو كافر ، تبين منه امرأته ، ويستأنف الحج ان كان حج (٤) فهؤلاء الذين يقولون بهذه المقالة كفار ، لا يناكحون ولا تقبل شهادتهم ..

وأما الرافضة فقد أجمع من أدركنا من أهل العلم انهم قالوا : ان على ابن أبى طالب أفضل من أبى بكر الصديق ، وان اسلام على كان أقدم من اسلام أبى بكر ، فمن زعم ان على بن أبى طالب أفضل من أبى بكر فقد رد الكتاب والسنة ، لقول الله عز وجل : « محمد رسول الله والذين معه » (٥) فقدم الله أبا بكر بعد النبى صلى الله عليه وسلم ..

وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « لو كنت متخذا خليلا لاتخذت

---

(١) ولماذا تكون ملعونة وهى لم تقل بخلق القرآن ؟ .. لعلها كانت تقول قولا وتطوى غيره.

(٢) هذا حكم شديد جدا من الامام كنا نتمنى لو لم يقله ، ولكن لعل هدفه الاساسى كان هو اغلاق الباب على جميع هؤلاء بعنف وشدة ، لانه يدرك خبث طواياهم وان زوروا الكلام ولفوا فيه.

(٣) هذا القول يخفف وقع ما سبقه

(٤) لعله يقصد بهذا انه اذا اهتدى من ضلاله وعاد الى الاسلام فانه يعيد حجه من جديد

(٥) الاستشهاد بهذه الاية هنا غير واضح والاحسن ان يستشهد بآية : « الا تنصروه فقد نصره الله اذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين اذ هما فى الغار .. » الاية

أبا بكر خليلا ، ولكن الله قد اتخذ صاحبكم خليلا ، ولا نبى بعدى » ..

فمن زعم ان اسلام على أقدم من اسلام أبى بكر فقد كذب ، لأن أول من أسلم عبد الله بن عثمان عتيق أبى بكر بن قحافة ، وهو يومئذ ابن خمس وثلاثين سنة ، وعلى ابن سبع سنين ، لم تجر عليه الأحكام والفرائض والحدود ..

ونؤمن بالقدر خيره وشره ، وحلوه ومره ، وان الله خلق الجنة قبل الخلق ، وخلق لها أهلا ، ونعيمها دائم ، ومن زعم انه يبيد من الجنة شيء فهو كافر ، وخلق النار قبل خلق الخلق ، وخلق لها أهلا ، وعذابها دائم ، وان أهل الجنة يرون ربهم لا محالة ، وان الله يخرج أقواما من النار بشفاعة محمد صلى الله عليه وسلم ..

وان الله كلم موسى تكليما ، واتخذ ابراهيم خليلا . والصراط حق ، والميزان حق ، والأنبيـــاء حق ، وعيسى بن مريم رســـول الله وكلمته ، والايمان بالحوض والشفاعة ، والايمان بمنكر ونكير (١) وعذاب القبر والايمان بملك الموت ، يقبض الأرواح ، ثم ترد فى الأجساد فى القبور فيسألون عن الايمان والتوحيد ، والايمان بالنفخ فى الصور ، والصور قرن (٢) ينفخ فيه اسرافيل ..

وان القبر الذى بالمدينة قبر محمد صلى الله عليه وسلم ، معه أبو بكر وعمر رضى الله عنهما ، وقلوب العباد بين اصبعين من أصابع الرحمن ، والدجال خارج فى هذه الأمة لا محالة ، وينزل عيسى بن مريم فيقتـــله بباب لد ..

وما أنكرت العلماء من الشبهة فهو منكر ، واحذروا البدع كلها . ولا عين نظرت بعد النبى صلى الله عليه وسلم خيرا من أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، ولا بعد أبى بكر عين نظرت خيرا من عمر ، ولا بعد عمر عين نظرت خيرا من عثمان ، ولا بعد عثمان بن عفان عين نظرت خيرا من على بن أبى طالب ، رضى الله عنهم أجمعين ..

---

(١) حقق ابن العم أنه لم يثبت فى سؤال منكر ونكير حديث
(٢) أى بوق كبير

هم والله الخلفاء الراشدون المهديون ، وان نشهد للعشرة بالجنة ، وهم أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلى ، وطلحة ، والزبير ، وسعد ، وسعيد ابن زيد ، وعبد الرحمن بن عوف الزهرى ، وأبو عبيدة عامر بن الجراح.

ومن شهد النبى صلى الله عليه وسلم له بالجنة شـهدنا له بالجنة ، ورفع اليدين فى الصـلاة زيادة فى الحسنات ، والجهر بآمين عند قول الامام : (ولا الضالين) ، والصلاة على من مات من أهل هذه القبلة ، وحسـابهم على الله عز وجل ، والخروج مع كل امام فى غزوه وحجه ، والصلاة خلفهم صلاة الجماعة والجمعة والعيدين ..

والكف عن مسـاوىء أصحاب رسـول الله صلى الله عليه وسلم .. تحدثوا بفضائلهم ، وأمسكوا عما شجر بينهم ..

ولا تشاور أحدا من أهل البدع فى دينك ، ولا ترافقه فى سفرك ، ولا نكاح الا بولى وخاطب وشاهدى عدل ، والمتعة حرام الى يوم القيامة ..

ومن طلق ثلاثا فى لفظ واحد فقد جهل ، وحرمت عليه زوجته ، ولا تحل له حتى تنكح زوجا غيره ، والتكبير على الجنائز أربع ، فان كبر خمسا فكبر معه . قال ابن مسعود : « كبر ما كبر امامك » . وخالفنى الشافعى وقال : أن زاد على أربع تكبيرات أعاد الصلاة ، واحتج بأن النبى صلى الله عليه وسلم صلى على النجاشى فكبر عليه أربع تكبيرات ...

والمسح على الخفين : لمسافر ثلاثة أيام ولياليهن ، وللمقيم يوما وليلة ، واذا دخلت المسجد فلا تجلس حتى تركع ركعتين تحية المسجد ، والوتر ركعة ، والاقامة فرادى ..

أحبوا أهل السنة على ما كان منهم .. أماتنا الله واياكم على السنة والجماعة ، ورزقنا واياكم اتباع العلم ، ووفقنا واياكم لما يحبه ويرضاه »

هذه هى الرسالة ، ونلاحظ عليها أول ملاحظة ، وهى تتعلق باسمها ، فهى فى الواقع ليست ردا على الجهمية وحدهم ، بل فيها رد على المعتزلة ، وعلى الرافضة ، بجوار ما فيها من أقوال أخرى للامام ابن حنبل فى أمور شتى ..

ونلاحظ أيضا ان الاستشهاد بالأحاديث فيها قليل ، وأغلبها من عبارات ابن حنبل ، وهذا بخلاف أكثر كتبه ورسائله حيث تحشد فيها الأحاديث والآثار تباعا ..

ونلاحظ عليها التفكك فى بعض مواطن منها ، فهو ينتقل من حديث الدجال ونزول عيسى الى انكار العلماء للشبه ، وينتقل فجأة بلا رابط أو تمهيـــد من كلمة عابرة عن البـــدع الى الحديث عن مكانة الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم أجمعين ..

ونلاحظ على الرسالة شدتها فى اصدار الحكم بالكفر ، ومن ورائه اللعن ، فالجهمية بفرقهم الثلاث : الغالية والمتوقفة والمعتدلة ــ كفار ، ان لم يتوبوا فجزاؤهم القتل بلا استثناء ، والمعتزلة كفار ، ومن اعتقد ان نعيم الجنة يبيد فهو كافر .. الخ . تمنيت ــ والله ــ لو خلت رسالة الامام من هذه الشدة الصارمة ، أو لعلها ليست له ..

ومن أعجب العجب أن يأتى فى الرسالة ان من قالوا : « ألفاظنا بالقرآن مخلوقة » كافرون ! ! ..

وأعجبنى فى الرسالة حديثها عن الخلفاء الراشدين الأربعة ، ونهيها عن التعرض لمساوىء الصحابة ..

كما أعجبنى ردها القوى المفحم على المعتزلة فيما يتعلق بتكفير المذنب ، والاستشهاد هنا بآدم واخوة يوسف جميل رائع ، بخلاف استشهاده على فضل أبى بكر بالآية : « محمد رسول الله والذين معه » . ولعله يريد أن يقول ان التقدير فى الآية هو : « والذين معه فى الغار » ، ولكن كلمة « الذين » جمع وليست مفردا ، ولو فرضنا فرضا ان الجمع هنا أريد به التعظيم ، فماذا نصنع فى بقية الآية وهى تنطق بما لا مجال للريب معه ان الكلام عن صحابة الرسول عليه الصلاة والسلام : « محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم ، تراهم ركعا سجدا ، يبتغون فضلا من الله ورضوانا ، سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ، ذلك مثلهم فى التوراة ، ومثلهم فى الانجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ

فاستوى على سوقه ، يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار ، وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما » ..

والمناسب للاستشهاد هنا هو قول الله تعالى : « الا تنصروه فقد نصره الله اذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين اذ هما فى الغار ، اذ يقول لصاحبه لا تحزن ان الله معنا ، فأنزل الله سكينته عليه ، وأيده بجنود لم تروها ، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى ، وكلمة الله هى العليا ، والله عزيز حكيم » ..

كلمات ابن حنبل :

كان ابن حنبل لا يتكلم من عند نفسه الا قليلا ، وكان يغلب على كلامه الاستشهاد بالأحاديث والآثار ، ولذلك قد يكون من الخير أن نلتقط طائفة من كلماته التى تعاون على جلاء آرائه وأفكاره ، فمن كلامه هذه الكلمات :

١ ــ الدنيا دار عمل ، والآخرة دار جزاء ، فمن لم يعمل هنا ندم هناك..
٢ ــ الفتوة ترك ما تهوى لما تخشى ..
٣ ــ لو طلبنا المال لم يأتنا ، وانما أتانا لما تركناه ..
٤ ــ ان القلنسوة لتقع من السماء على رأس من لا يحبها ..
٥ ــ سبحانك ، ما أغفل هؤلاء الخلق عما أمامهم : الخائف منهم مقصر ، والراجى منهم متوان ..
٦ ــ أصول الايمان ثلاثة : دال ودليل ومستدل ، فالدال الله تبارك وتعالى ، والدليل القرآن ، والمستدل المؤمن ، فمن طعن على حرف من القرآن فقد طعن على الله تعالى ، وعلى كتابه ، وعلى رسوله صلى الله عليه وسلم ..
٧ ــ اذا سكت العالم تقية (١) والجاهل يجهل ، فمتى يظهر الحق ؟ ..
٨ ــ الناس يحتاجون الى العلم مثل الخبز والماء ..
٩ ــ اذا مات أصدقاء الرجل ذل ..

(١) التقية : الحذر والخوف

١٠ — لو ان الدنيا تقل حتى تكون فى مقدار لقمة ، ثم أخذها امرؤ مسلم ، فوضعها فى فم أخيه المسلم ما كان مسرفا ..

١١ — طوبى لمن أخمل الله تعالى ذكره ..

١٢ — رأيت رب العزة فى المنام فقلت : يارب ، ما أفضل ما تقرب به المتقربون اليك ؟ .. فقال : بكلامى يا أحمد ..
قلت : بفهم أو بغير فهم ؟ .. قال : بفهم وبغير فهم ..

١٣ — اذا كان فى الرجل مئة خصلة من الخير ، وكان يشرب الخمر ، محتها كلها ..

١٤ — لا تكتبوا العلم عمن يأخذ عليه عرضا من الدنيا ..

١٥ — اذا رأيتم من يحب الكلام فاحذروه ..

١٦ — اياك أن تتكلم فى مسألة ليس لك فيها امام ..

١٧ — اظهار المحبرة من الرياء ..

١٨ — اذا رأيت رجلا يتهم أحدا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بسوء فاتهمه على الاسلام ..

١٩ — الفائز من فاز غدا ، ولم يكن لأحد عنده تبعة ..

٢٠ — ليس يحرز المؤمن الا حفرته ، الأعمال بخواتيمها ..

ابن حنبل والشعر :

قد يكون عجيبا ان نذكر الشعر فى مجال الحديث عن الامام ابن حنبل ، لأنه كما رأينا رجل دين وزهد وورع وتشدد ، ولكن الشعر له نصيب ما فى حياة هذا الامام الجليل ، فقد قال له أبو حامد الخلقانى : ما تقول فى القصائد ؟ .. فقال : فى مثل ماذا ؟ .. فقال أبو حامد : مثل أن تقول :

اذا ما قال لى ربى   أما استحييت تعصينى ؟
وتخفى الذنب عن غيرى   وبالعصيان تأتينى ؟ ..

فأخذ ابن حنبل يعيد ما سمع .. وكأنه باعادته له قد أعطى الفتوى فى جواز قول الشعر وانشاده . ولكن أى شعر يجيزه ابن حنبل ؟ ...

انه يجيز الشعر فى مثل مارأينا من موضوع : فى الوعظ والتذكير والتوبة والتعبد والاستغفار ، وما الى ذلك من سبيل ، ولذلك سأل الامام عن نوع الشعر قبل أن يفتى فيه ، فلما سمعه ووجده لا يخرج عن كونه كلاما فى الدين والوعظ أجازه ..

وقد نقل الينا بعض شعر قاله الامام الجليل ، ولكنه أيضا من النوع الذى أشرنا اليه ، فقد دخل عليه ثعلب النحوى يوما ، فسأله الامام : فيم تنظر يا ثعلب ؟ .. فقال : فى النحو والعروض ، فقال له ابن حنبل هذه الأبيات :

اذا ما خلوت الدهر يوما فلا تقل
خلوت ولكن قل : على رقيب
ولا تحسبن الله يغفل ما مضى
ولا أن ما تخفيه عنه يغيب
لهونا عن الأيام حتى تتابعت
ذنوب على آثارهن ذنوب
فيا ليت أن الله يغفر ما مضى
ويأذن لى فى توبة فأتوب

وهذا هو ابن حنبل يستخدم كلمة الشعر فى الدعوة الى محاربة الأهواء والأباطيل ، والى الدعوة للعمل بالعلم فى السر والعلانية ، ومحاربة البدعة والضلال ، والحرص عن السنن والآثار ، فيقول :

يا طالب العلم ، صارم (١) كل بطال
وكل غاد الى الأهواء ميال
واعمل بعلمك سرا أو علانية
ينفعك يوما على حال من الحال
ولا تميلن يا هذا الى بدع
تضل أصحابها بالقيل والقال

---

(١) أى قاوم كل داعية الى الباطل

خـــذ ما أتاك به ما جـاء من أثر
شـبها بشبه، وأمثالا بأمثـــال
الا فكن أثريا خالصـــــا فهمـــا
تعش حميـــدا ، ودع آراء ضلال (١)

شهادات السلف له :

تكاثرت شهادات الفقهاء والعلماء السابقين لابن حنبل ، ولا يتيسر لنا أن نستعرض كل هذه الشهادات فى مجالنا المحدود ، فلنقتطف منهـا طائفة :

١ ــ يقول ابراهيم الحربى : أحمد بن حنبل كأن الله عز وجل جمع له علم الأولين من كل صنف

٢ ــ ويقول أبو مسهر : ما أعلم أحدا يحفظ على هذه الأمة أمر دينها الا شابا بالمشرق (٢) (يعنى ابن حنبل)

٣ ــ ويقول أبو عبيد : انتهى العلم الى أربعة : أحمد بن حنبل وهو أفقههم فيه ، وعلى بن المدينى وهو أعلمهم به ، ويحيى بن معين وهو أكتبهم له ، وأبى بكر بن أبى شيبة وهو أحفظهم له

٤ ــ ويقول أبى داود السجستانى : لقيت مئتين من مشايخ العلم ، فما رأيت مثل أحمد بن حنبل ، ولم يكن يخوض فى شىء مما يخوض فيه الناس من أمر الدنيا ، فاذا ذكر العلم تكلم

٥ ــ ويقول أبو ثور : لو أن رجلا قال أن أحمد بن حنبل من أهل الجنة ما عنف فى ذلك

٦ ــ ويقول النووى : هو الامام البارع المجمع على جلالته وامامتــه وورعه وزهادته ، وحفظه ووفور علمه وسيادته

٧ ــ ويقول أبو حاتم : اذا رأيت الرجل يحب أحمد بن حنبل فاعلم انه صاحب سنة

---

(١) بعض الكاتبين يسك فى نسبة هذه الابيات الى الامام ابن حنبل
(٢) كأنه يشير الى انه مجدد الاسلام فى عصره

٨ ــ ولقد مدحه شيخ الاسلام عبدالله الانصارى الهروى بهذه الأبيات من قصيدة طويلة :

وامامى القـــوام لله الـــذى	دفنوا ــ حميد الشأن ــ فى بغداد
جمع التقى والزهـــد فى دنياهم	والعلم بعـــد طهـــارة الأردان
عوض النبى ، وصير فى خديثه	ومغلق أعـــرافه بمعـــــان
حبر العراق ، ومحنة لذوى الهوى	يدرى ببغضته ذو الأضـــغان
عرضت له الدنيا فأعرض ســالما	عنها كفعـــل الراهب الخمصـــان
هانت عليــه نفســـه فى دينـــه	ففــدى الامام الدين بالجثمـــان
لله ما لقى ابن حنبـــل صـــابر	عزما ، وينصره بلا أعـــــوان
أنا حنبلى ما حييت ، وان أمت	فوصيتى ذاكم الى اخـــوانى
اذ دينه دينى ، ودينى دينـــه	ما كنت أمعـــة (١) له دينـــان

***

والذى لا مرية فيه أن جموع الناس أحبت الامام ابن حنبل حبـــا شديدا ، وقد يكون منهم من يتبع مذهب سواه ، ولكن موقف الامام الرائع فى فتنة القول بخلق القـــرآن أكسبه مكانة لا تدانى ، وشـــهرة لا تبارى ، اذ لم يكن موقفه مجرد دفاع عن رأى يختلف فيه غيره معه ، ولكن كان رمزا للاباء وعدم الخضوع ، والاحتمال للأذى والعذاب ، فغرس الامام حبه فى قلوب الناس فى مختلف الأقطار ، حتى قال الحسن ابن الحسين الرازى : حضرت بمصر عند بقال ، فسألنى عن أحمد بن حنبل ، فقلت : كتبت عنه ، فلم يأخذ ثمن المتاع منى ، وقال : لا آخذ ثمنا ممن يعرف أحمد بن حنبل !

ومن مظاهر هـــذا الحب الجارف أن تكثر الرؤيا الطيبة من الناس ، يروون فيها ثناء مستطابا على أحمد بن حنبل ، فهذا أحمد بن النصر يروى عن نفسه أنه رأى النبى فى النوم ، فقال له : يارسول الله ، من تركت لنا فى عصرنا هذا ممن يقتدى به ؟.. فقال : عليكم بأحمد بن حنبل ..

---

(١) الامعة : الرجل الذى يتابع كل أحدعلى رايه ، ولايثبت على شىء

ولو رجعنا الى كتاب « الذيل على طبقات الحنابلة » لوجدنا فيه كثيرا من هذه الرؤى !

وأحيانا لا تقتصر الرؤيا على كلمة ثناء أو مديح ، بل تطول وتمتد ، وتتسع لأسئلة وأجوبة ، ونكتفى بشاهد على هذا الطراز من الرؤيا ، وبطل هذا الشاهد هو أبو الخطاب أحمد بن على البغدادى الصوفى المؤدب المتوفى سنة ست وسبعين وأربعمائة ، ولندعه يقص علينا رؤياه نثرا ، ثم يصوغها شعرا ، فيقول :

« كنت على مذهب الامام الشافعى ، وكانت عادتى أن لا أرجع فى الأذان ، ولا أقنت فى صلاة الفجر ، غير اننى أجهر : ببسم الله الرحمن الرحيم . وكانت عادتى أيضا ليلة الغيم أنوى من رمضان كما جرت عادة أصحاب أحمد (١)

فلما كان فى بعض الليالى . رأيتنى كأننى فى دار حسنة جميلة ، وفيها من الغلمان والخدم والجند خلق كثير ، وهم صغار وكبار ، والدخل والخرج ، والأمر والنهى ، فاذا رجل بهى شيخ على سرير ، والنور على وجهه ظاهر ، وعلى رأسه تاج من ذهب مرصع بالجوهر ، وثياب خضر تلمع ..

وكان الى جنبى رجل ممنطق يشبه الجند ، فقلت له : بالله هذا المنزل لمن ؟ .. قال : لمن ضرب بالسوط حتى يقول : القرآن مخلوق . قلت أنا فى الحال : أحمد بن حنبل . قال : هوذا . فقلت : والله ان فى نفسى أشياء كثيرة أشتهى أن أسأله عنها . وكان على سرير ، وحول السرير خلق قيام ، فأومأ الى أن أجلس وسل عما تريد .. فمنعنى الحياء من الجلوس ، فقلت : ياسيدى ، عادتى لا أرجع فى الأذان ، ولا أقنت فى صلاة الفجر ، غير اننى أجهر ببسم الله الرحمن الرحيم ، وأخشع

فقال بصوت رفيع عال : أصحاب رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ

---

(١) يقصد ليلة الثلاثين من الشهر اذا كان فى السماء غيم ، ولم تستطع رؤية الهلال ، فانه ينوى الصوم احتياطا . والحديث يقول عن الهلال : «صوموا لرؤيته ، وافطروا لرؤيته، فان غم عليكم فاكملوا عدة شعبان ثلاثين يوما»

أتقى منك وأخشع ، وأكثرهم لم يجهروا بقراءتها . فقلت : عادتى ليلة الغيم أصوم كما قال الامام أحمد بن حنبل . فقال : اعتقد ما شئت من أى مذهب تدين الله ، ولا تكن معمعيا (١) وأنا أرعد

فلما أصبحت أعلمت من يصلى ورائى بما رأيت ، ولم أجهر بعد » (٢)

ونظم أبو الخطاب فى هذه الرؤيا قصيدة طويلة جدا ضمنها الكثير من الآراء والأقوال الحنبلية ، نقتطف منها الأبيات التالية . بدأها بقوله :

حقيقة ايمانى أقول لتسمعوا — لعلى به يوما الى الله أرجع
بأن لا اله غير ذى الطول وحده — تعالى بلا مثل ، له الخلق خضع
وليس بمولود ، وليس بوالد — يرى ما عليه الخلق طرا ويسمع

وذكر أبياتا أخرى ثم قال :

وان كتاب الله ليس بمحدث — على ألسن تتلو، وفى الصدر يجمع
وما كتب الحفاظ فى كل مصحف — كذلك ان أبصرت أو كنت تسمع
وللجبل الرحمن لما بدا له — تدكدك خوفا كالشظى يتقطع
وكلم موسى ربه فوق عرشه — على الطور تكليما ، فمازال يخضع

وذكر أبياتا أخرى ثم قال :

وعن مذهبى ان تسألوا فابن حنبل — به أعتد ما دمت حيا أمتع
وذاك لأنى فى المنام رأيته — يروح ويغدو فى الجنان ويرتع
وفى منزل بنيانه غير مشبه — لبنيان ذى الدنيا ، وفى العين أوسع
وفيه بيوت ما استدارت منيرة — زرابيها مبثوثة فيه تلمع
وكان الى جنبى نقيب ممنطق — عليه ثياب مسكها يتضوع
فقلت له : بالله ذا المنزل الذى — أراه لمن ؟ قل لى فانى مروع
فقال: ألا تدرى ؟ فقلت: وكيف لى — بعلم اليه أنت أهدى وأسرع ؟
فقال : لمن بالسوط يضرب تارة — ليرجع فى الأخرى ، وما فيه مطمع
يقول : كلام الله ليس بمحدث — وليس بمخلوق، فما شئتم اصنعوا
فقلت له فى الحال : ذاك ابن حنبل — امام ، تقى ، زاهد ، متورع

(١) المعمعى : الذى يكون مع من غلب . والمعمعة : الاكثار من قول « مع »
(٢) أى لم يجهر بالبسملة فى أول الفاتحة فى الصلاة

وانى لمشـــتاق اليـه ، فدلنى ... ففى النفس حاجات اليـه تسرع
فأوما اليـــه ، فالتفت اذا به ... على سدة من وجهه النور يسطع
ومن سندس أثوابه فى اخضرارها ... على رأسـه تاج بدر مرصع
ومن حوله ولد صباح وغلمـة ... تواصل بالكاسات قوما وتقطـع
أشار بأطراف البنان تعطفـا : ... أن اقرب فقل ماشئته منك نسمع
وأومأ : أن اجلس ،فامتنعت مهابة ... وداخلنى رعب ، وعينـاى تدمع
فقلت له : يا أزهد النـاس كلهم ... عليك اعتمادى ، دلنى كيف أصنع
طبعت على أشـــياء هن ثلاثة ... وكل على ما قـــدر الله يطبـع
فمنها : اذا غم الهـــلال لليلة ... صبيحتها عشر وعشرون تتبـع
أصوم كما قال الامام ابن حنبل ... فللصوم خير من ســواه وأنفع
وعند صلاة الصبح لست بقـانت ... وعند ندائى (١) عادتى لا أرجع
ولكن اذا ما قمت لله طائعـــا ... أبسمل جهرا فى الصـلاة وأخضع
فقال بصـــوت جهورى سمعته : ... صحاب رسول الله أتقى وأخشـع
وأكثرهم لم يجهـــروا بقـراءة ... وهم قدوة فى الدين أيضا ومفزع
وان تعتقد ما شئت من أى مذهب ... به الله يرضى والنبى المشـــفع
ولا تك فيـــه معمعيـا كلاعب ... يدين بما يهوى ، وللعـزم يدفع
فقلت له : فى النفس شىء أقـوله ... أنا فى صفات الحق أيضا متعتع(٢)
فقال : تعالى الله ، ليس كمثـله ... ـكما قالـ شىء ثم للذكر فاتبعوا
فما كان فيه من صفات مليـكنا ... على الرأس والعينين ما عنه مدفع
وماجاء فى الأخبار عن سيد الورى ... روته ثقات عنـه لا يتمنـــع
فليس لترك الحق عندى رخصة ... اذا كان جهال له قد تبشـــعوا
فكن حنبليا تنـج من كل بدعة ... «فأحمد» عند الله فى الزهد أبرع

ثم أتم القصيدة بأبيات أخرى ! ..

ولم يقتصر تمجيد السابقين للامام ابن حنبل على كلمات الثنـاء أو

---

(١) يقصد بالنداء هنا الاذان ، والترجيع فيه اعادة كلماته
(٢) يلاحظ ان هذه المسألة لم ترد فى قصة الرؤيا النثرية ويخشى ان يكون قد سـقط منها بعض اجزائها

قصائد المديح أو رؤى الخير ، بل ألفوا فيه الكتب الكثيرة ، نذكر منها كتابا ألّفه عبد الله الأنصارى المتوفى سنة احدى وثمانين وأربعمائة ، وكتابا ليحيى بن منده الحنبلى المتوفى سنة احدى عشرة وخمسمائة . وقد ألّفه بدافع الرد على المبتدعة الذين انتقصوا مقام الامام ابن حنبل ، وتحاملوا عليه ، فجاء ابن منده وفسح المجال كثـيرا لمدائح فى الامام ولرواية روايات عجيبة فى تمجيده والسمو بمكانته ، وفى فاتحة هـذا الكتاب يقول ابن منده منددا بأولئك المبتدعة :

«ومن أعظم جهالاتهم وغلوهم فى مقالاتهم ، وقوعهم فى الامام المرضى ، امام الأئمة ، وكهف الأمة ، ناصر الاسلام والسنة ، ومن لم تر عين مثله علما وزهدا ، وديانة وأمانة ، امام أهل الحديث أبى عبد الله أحمد بن محمد ابن حنبل الشيبانى ـ قدس الله روحه ، وبرد عليه ضريحه ـ الامام الذى لا يجارى ، والفحـل الذى لا يبـارى ، ومن أجمع أئمة الدين ـ رحمة الله ورضوانه عليهم ـ فى زمانه على تقدمه فى شأنه ، ونبله وعلو مكانه ، والذى له من المناقب ما لا يعد ولا يحصى ، قام لله تعالى مقاما لولاه لتجهم الناس ، ولمشوا على أعقابهم القهقرى ، ولضعف الاسلام ، واندرس العلم . ولقد صدق الامام أبو رجاء قتيبة ، حيث قال : « ان أحمد بن حنبل فى زمانه بمنزلة أبى بكر وعمر فى زمانهما » . وأحسن من قال : « لو كان أحمد فى بنى اسرائيل لكان آية ، أعاشنا الله تعالى على عقيدته ، وحشرنا يوم القيامة فى زمرته »

وحين وقفت على سرائر هؤلاء ، وخبث اعتقادهم فى هذا الامام ، قصدت لمجموع نبهت فيه على بعض فضائله ونبذة من مناقبه ، وذكرت طرفا مما منحه الله تعالى من المنزلة الرفيعة والرتبة العلية فى الاسـلام والسنة ..

مع انى لست أرى لنفسى أهلية لذلك ، وأن المشايخ الماضين رحمهم الله تعالى قد عنوا بجمعه فشفوا ، لكننى أردت أن يبقى لى بجمع مناقبه ذكر ، وأن أكون مشرفا فيما بين أهل العلم من أهل السنة بانتسابى اليه ، ونحلى مذهبه وطريقته »

صفات ابن حنبل :

كان ابن حنبل رجلا طويلا أسمر ، يخضب بالحناء ، ويلبس الثياب الغليظة ، ويأتزر ويعتم ، وكان قليل الطعام ، لا يستوفى له حظا من أصناف المأكولات ، يأتدم فى كثير من الأحيان بالخل ، وكان يستقى ماء الوضوء بيده ، ولا يدع غيره يستقى له ، ويشترى حزمة الحطب أو الشيء ويحمله ، وكان يجلس على لبد قد أتى عليه سنون كثيرة حتى بلى

وكان رجلا قوى الحافظة ، فاهما لما يحفظ ، متخلقا بالصبر الجميل والعزم الوطيد والارادة القوية ، والثبات على المبدأ ، والبعد عن الرياء ، والنفور من المزاح ، حتى كان الناس لا يجرأون على المزاح فى حضوره

ولقد مزح يزيد بن هارون فى مجلسه يوما مع مستمليه ، وكان ابن حنبل موجودا ولم يره يزيد ، فتنحنح ابن حنبل . فسأل يزيد من المتنحنح ؟ . فقيل له : أحمد ابن حنبل . فضرب يزيد بيده على جبينه وقال : ألا أعلمتمونى أن أحمد بن حنبل ها هنا حتى لا أمزح ..

وكان الامام ابن حنبل لا يفتى الا اذا سئل ، ولا يفتى الا فيما يقع ، ولا يحب الأمور الفرضية أو تصور المسائل أو تشقيق الفروع ، وكان لا يفتى بالرأى الا فى أضيق نطاق ، ويقول : « لا أدرى » كثيرا ..

وكان ينهى نهيا شديدا عن تقييد العلوم وكتب الرأى والجدل ، ولما قيل له ان عبدالله بن المبارك كتب شيئا من كتب الرأى قال : « ابن المبارك لم ينزل من السماء ، انما أمرنا أن نأخذ العلم من فوق » .. ولعله يقصد الأخذ عن رسول الله الموحى اليه من عند الله رب العالمين

ولقد كتب اليه رجل يسأله عن حكم مناظرة أهل الكلام ، فرد عليه بقول : « أحسن الله عاقبتك .. الذى كنا نسمع ، وأدركنا عليه من أدركنا ، انهم كانوا يكرهون الكلام ، والجلوس مع أهل الزيغ ، وانما الأمر فى التسليم والانتهاء الى ما فى كتاب الله ، لا تعد ذلك . ولم يزل الناس يكرهون كل محدث : من وضع كتاب ، وجلوس مع مبتدع ، ليردوا عليه بعض ما يلبس عليه فى دينه »

ومن أخلاق ابن حنبل الصفح عن المذنب ، وتروى عنه فى ذلك روايات كثيرة ، ولعل أوقعها وأشدها أثرا فى النفس ان بعض الجهلة المتعصبين لأبى حنيفة قال لابن حنبل : بول أبى حنيفة أكثر من ملء الأرض مثلك !
ثم انصرف ، وبعد قليل أدرك اثمه فيما قال ، فعاد الى ابن حنبل يعتذر اليه ويقول له : يا أبا عبدالله ، ان الذى كان منى كان على غير تعمد ، فأنا أحب أن تجعلنى فى حل . فقال الامام أحمد : ما زالت قدماى من مكانهما حتى جعلتك فى حل

ومن أخلاقه التواضع للفقراء والضعفاء ، وان كان عزيزا كل العزة على الكبراء والعظماء ، حتى قال تلميذه المروزى : « لم أر الفقير أعز منه فى مجلس أبى عبدالله ، كان مائلا اليهم ، مقصرا عن أهل الدنيا ، وكان فيه حلم ، ولم يكن بالعجول ، وكان كثير التواضع، تعلوه السكينة والوقار ، اذا جلس فى مجلسه بعد العصر للفتيا لا يتكلم حتى يسأل ، واذا خرج الى مجلسه لا يتصدر ، يجلس حيث انتهى به المجلس »

وكان ابن حنبل عفيفا نزيها زاهدا متحرزا من الحرام ، ولقد سأله أبو حفص الطرسوسى : بم تلين القلوب ؟.. فأجاب : بأكل الحلال يابنى . ولما عرض أبو حفص هذه الاجابة على بشر بن الحارث قال : جاء بالأصل . ولما عرضها على عبد الوهاب بن أبى الحسن قال : جاءك بالجوهر ، الأصل كما قال ، الأصل كما قال !

وكان الامام ابن حنبل كثير التعبد والتهجد ، ويروى ابنه عبدالله انه كان يصلى كل يوم وليلة ثلاثمائة ركعة ، ولما مرض من تعذيب المحنة كان يصلى مئة وخمسين ركعة ، وكان قد قرب من الثمانين ، وكان يختم القرآن كل سبعة أيام

أسرة ابن حنبل :

تسرى ابن حنبل بجارية اسمها « حسن » ، وفعل ذلك تشبها بالنبى صلى الله عليه وسلم حينما تسرى بمارية القبطية ، وقد ولدت هذه المرأة لابن حنبل أولادا هم : سعيد ومحمد والحسن وزينب وفاطمة ، وتوأمين

سماهما الحسن والحسين وماتا عقب ولادتهما

وتزوج ابن حنبل من « العباسة بنت الفضل » ، وكان له منهـا ولده الأكبر صالح . وكنيته أبو الفضل ، ولد سنة ثلاث ومئتين ، وتوفى سنه خمس وستين ومئتين وتولى قضاء أصبهان وقد كتب ترجمة لأبيه

وله منها ولده عبـدالله ، وكنيته أبو عبـد الرحمن ، وكان اماما فى الحديث ، وتوفى سنة تسعين ومئتين

وقد دفنت بنت أحمد بن حنبل معه فى قبره ، كما دفن بجواره كثيرون من الحنابلة ..

مرض ابن حنبل ووفاته :

مرض ابن حنبل مرض الموت ، وكان لا يشغله فى هذا المرض الا أمور هى : الصلاة ، والتفكير فى توزيع المال الذى تركه ، وثلاث شعرات من شعر النبى كانت عنده ، وحرصه على عدم الأنين مهما اشـتد عليـه الوجع ، لأنه روى حديثا عن طاووس ينهى عن الأنين

ولقد حافظ على الصلاة لم يتركها بحال من الأحوال ، وحين عجز عن تخليل أصابعه أمر أولاده بتخليلها ، وقد توفى بعد وضوء له بلحظات محدودة ..

وسأل عما عنده من المال فكان ضئيلا فأمر بأن يتصدق منه .. ولم يصدر منه أنين قط ..

وفى أول يوم من شهر ربيع الأول سنة احدى وأربعين ومائتين أصابته الحمى ، وضعف عن المشى فى البيت الا مسـتعينا بغيره ، ووصف له الطبيب طعاما يشوى ، فقال ابن حنبل لولده صالح : لا تشو هذا الطعام فى بيتك ، ولا فى بيت عبد الله أخيك ، وانما قال هذا ابتعادا عن الشبهة لأنهما كانا يأخذان من مال السلطان

وكان ابن حنبل قد حنث فى يمين هى اليمين الوحيدة التى حنث فيها خلال عمره كله ، فأمر بشراء تمر ، وعمل كفارة عن هذه اليمين ، ثم قال : الحمد لله ..

وكانت لابن حنبل وصية قال فيها :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما أوصى به أحمد بن حنبل : أوصى انه يشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله ، أرسله بالهدى ودين الحق ، ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ..

وأوصى من أطاعه من أهله وقرابته أن يعبدوا الله فى العابدين ويحمدوه فى الحامدين وأن ينصحوا لجماعة المسلمين

وأوصى انى قد رضيت بالله ربا ، وبالاسلام دينا ، وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيا ..

وأوصى أن لعبدالله بن محمد المعروف ببوران على نحوا من خمسين دينارا ، وهو مصدق فيما قال ، فيقضى ماله على من غلة الدار ان شاء الله ، فاذا استوفى أعطى ولد صالح وعبدالله ، ابنى أحمد بن حنبل ، كل ذكر وأنثى عشرة دراهم ، بعد وفاء مال أبى محمد

شهد أبو يوسف ، وصالح وعبدالله ابنا أحمد بن محمد بن حنبل »

ثم توفى الامام أحمد بن حنبل ضحى يوم الجمعة الثانى عشر من شهر ربيع الأول سنة احدى وأربعين ومئتين ، وتولى غسله أبو بكر أحمد بن محمد بن الحجاج المروزى ، وكان أثيرا عنده . وكانت جنازته بعد صلاة الجمعة ، وكانت جنازة حاشدة شهدها عشرات الألوف ، ودفن فى بغداد حيث مات .. رضى الله عنه

المراجع

١ ـ عن ابي حنيفة

١ ـ مناقب الامام الاعظم أبى حنيفة ، للموفق المكى
٢ ـ تبييض الصحيفة بسيرة أبى حنيفة ، لجلال الدين السيوطى
٣ ـ الخيرات الحسان فى مناقب ابى حنيفة النعمان ، لابن حجر العسقلانى
٤ ـ عقود الجمان فى مناقب ابى حنيفة النعمان ، لمحمد بن يوسف الصالحى
٥ ـ تاريخ بغداد ، لابى بكر الخطيب البغدادى ، الجزء الثالث عشر
٦ ـ ابو حنيفة ، لمحمد ابو زهرة
٧ ـ ابو حنيفة ، لمحمد يوسف موسى
٨ ـ ابو حنيفة ، لعبد الحليم الجندى
٩ ـ حسن التقاضى فى سيرة الامام ابى يوسف القاضى ، لمحمد زاهد الكوثرى
١٠ ـ دائرة المعارف الاسلامية ، مادة « ابو حنيفة »

٢ ـ عن مالك

١١ ـ الديباج المذهب ، لبرهان الدين بن فرحون
١٢ ـ ترتيب المدارك ، للقاضى عياض بن موسى
١٣ ـ تزيين الممالك فى مناقب الامام مالك ، لجلال الدين السيوطى
١٤ ـ مناقب مالك ، للزواوى
١٥ ـ مقدمة الزرقانى لشرح كتاب الموطأ
١٦ ـ مالك : حياته وعصره ، آراؤه وفقهه ، لمحمد ابو زهرة
١٧ ـ مالك : تجارب حياة ، لامين الخولى
١٨ ـ المسوى من احاديث الموطأ ، لولى الدين الدهلوى

٣ ـ عن الشافعى

١٩ ـ مناقب الشافعى ، للفخر الرازى
٢٠ ـ مناقب الشافعى ، للآبرى
٢١ ـ معجم الادباء ، لياقوت الحموى
٢٢ ـ وفيات الاعيان ، لابن خلكان
٢٣ ـ الديباج المذهب ، لابن فرحون
٢٤ ـ الشافعى : حياته وعصره ، آراؤه وفقهه ، لمحمد ابو زهره

٤ ـ عن ابن حنبل

٢٥ ـ مناقب الامام احمد ، لابى الفرج بن الجوزى
٢٦ ـ مختصر طبقات الحنابلة ، لمحمد بن عبد القادر النابلسى
٢٧ ـ الذيل لطبقات الحنابلة ، لابن رجب الحنبلى
٢٨ ـ ابن حنبل ، حياته وعصره ، آراؤه وفقهه ، لمحمد ابو زهرة
٢٩ ـ أحمد بن حنبل ، لأحمد عبد الجواد الدومى
٣٠ ـ مقدمة كتاب المسند ، طبعة دار المعارف بالقاهرة
٣١ ـ رسالة التوحيد ، لمحمد عبده
٣٢ ـ جمهرة رسائل العرب ، لأحمد زكى صفوت

٥ ـ مراجع مشتركة بين الائمة

٣٣ ـ البداية والنهاية ، لابن كثير
٣٤ ـ تهذيب الاسماء واللغات ، للنووى
٣٥ ـ طبقات الصوفية ، للشعرانى
٣٦ ـ حلية الاولياء ، لابى نعيم
٣٧ ـ من أخلاق العلماء ، لمحمد سليمان
٣٨ ـ نظرة عامة فى تاريخ الفقه الاسلامى ، لعلى حسن عبد القادر

٦ ـ مراجع عامة

٣٩ ـ أحياء علوم الدين ، لابى حامد الغزالى
٤٠ ـ مقدمة ابن خلدون ، لعبد الرحمن بن خلدون
٤١ ـ تفسير المنار ، لمحمد رشيد رضا
٤٢ ـ المجددون فى الاسلام ، لعبد المتعال الصعيدى
٤٣ ـ تقريب التهذيب ، لاحمد بن على بن حجر العسقلانى
٤٤ ـ النهاية فى غريب الحديث ، لابن الاثير
٤٥ ـ شذرات الذهب ، لابن العماد الحنبلى
٤٦ ـ سلاح الشعر ، لاحمد الشرباصى
٤٧ ـ الناموس المحيط ، لمجد الدين الفيروزابادى
٤٨ ـ خامس الراشدين عمر بن عبد العزيز ، لاحمد الشرباصى
٤٩ ـ أعلام الموقعين ، لابن القيم
٥٠ ـ تاريخ الفقه الاسلامى ، لمحمد يوسف موسى
٥١ ـ رياض النفوس ، لابى بكر بن ابى عبد الله المالكى

فهرس

صفحة